محمد العربي

الجزء الثاني

تأليف
نهاد المارك

- الفصل العاشـــر -

* العوني ينطلق من صمته متأقلمـــــــــا *

ذكرت في الصفحات السابقة ان العوني ظل في حائل خمس سنوات محفوفا بالعنايـــة والاكرام - ولكنه رغم ذلك لم ينقاد بشعوره وعواطفه تجاه الامير بن رشيد - ولم يتأقلم بولائـــه لحائل وأميرها - كما أكدت بان هذا الشاعر حضر مع ابن رشيد مايزيد عن خمسة عشر غـــزوة . وأهمها غزوة جراب ومع ذلك لم نر له بيتا واحدا أنشده بحماسه المعهود مهيجا قوم ابن رشـيد ومحرضا لهم على اعدائهم - كما كان يفعل ذلك عندما كان بجانب الامام عبد العزيز بن سعود - الذى سجل انتصاراته بالقصائد والابيات التي تصلح ان تكون مرجعا تاريخيا .

ولئن دل صمت العوني في حائل هذه السنين بدون ان يتأقلم أو يميل في جوارحـــه للامير ابن رشيد - فانما يدل ذلك على امرين هامين اولهما - انه لم يكن رجل مرتزقا كما سبـق ان نفيت عنه ذلك كما لم يكن مضللا لا هدف له ولا غاية كأمثال اشباه الرجال الذين وصفهـــــم احمد شوقي بقوله :

الناس صاع في الحياة لغايـة ومضلل يسعى بغير عنـــــــان

لا ليس شاعرنا من نوع الرجال الذين بهذا الشكل بل الرجل له هدف ينشده ، ولـه غاية يستهدفها وهذا الهدف وتلك الغاية ناتجان عن طموحه الذى لا حدود له - ذلـــك الطموح الذى دفع ثمنه غاليا . ثانيهما - كان صمته السابق ناتجا عما فطرت عليه نفســـه من حقد دفين لاسرة آل رشيد حقد وكره منغمسان بدمه ولحمه منذ ان انشق بصره على الدنيا -

وقلب كقلب العوني اذا امتلأ كرها وعداوة ـ ليس من السهولة بمكان أن ينغسل هذا الكره ويحل محله المحبة والاخلاص بين عشية وضحاها ـ واذا كان العوني مضرب عليه الصدون التي سلف ذكرها بدون ان يشارك أهالي حائل بافراحهم وسرورهم في حالة انتصارهم كما لم يشاركهم الاسى في حالة تفككهم وتقتلهم فيما بينهم كصرع الوصي زامل ـ فانه عندما اطال المكوث بحائل فرضت عليه اقامته في تلك البلاد أن يتأقلم بقلبه وقالبه .

أجل لقد مال العوني في نهاية أمره مال بكل جوارحه وعواطفه تجاه امير حائل . وكيف نفسه كأنه واحد من أهالي حائل ـ بل كأنه من أسرة آل رشيد انفسهم وذلك عندما ذهب ينافح دون حائل واميرها وقبيلتها . ينشدا القصيدة تلو القصيدة ـ كلما تأتي مناسبة تدعوه الى ان ينشد قصيدة حماسية يحرض بها رجال قبيلة حائل باعثا فيهم الحماسه والنخوة وشاحذا هممهم .

ولاعجب فقد استوطن حائل واستقر فيها مدة لم يستقر في اى بلد كما استقر بحائل .

واذا كانت قصيدة العوني المسمات بالخلوج تعتبر من أهم قصائده الحماسية في شحذ هم المواطنين من اهالي القصيم بلاد الشاعر على اعتبار ان تلك القصيده صادرة من قلبه عندما أثار عوامل الشمم والنخوه في بني قومه القحطان ، فاننا نجد هذا الشاعر بعد ان تأقلم في حائل واستقر نهائيا فيها ، وربط مستقبله ومصيره في مستقبل امارة آل رشيد نجده ذهب ينشد قصائد حماسية صادرة من مهجته ـ وتحمل من معاني التحريض والحماس واثارة العنفوان والنخوة القدر الذى لايقل عن قصيدة الخلوج بل قد يسمو عليها روعة وتأثيرا في شحذ النخوه في نفوس رجال شمر قبيلة ابن رشيد الذين ذهب

العوني — في بعض المناسبات يندب فرسان هذه القبيلة واحدا واحدا كل باسمه " بنخوته " التي تثير فيه الحماس — بل والهيجان احيانا .

" ماهي المناسبة التي خرج بها العوني عن صمته " ؟؟

اليك الجواب على هذا السؤال .

غزا الامام عبد العزيز قبيلة شمر وصب غارته على موقع يدعى " ياطب " وهو واد لايبعد عن حائل الا كيلوات لاتتجاوز عشرين كيلو ومنذ تاريخ تلك الغزوة انفجرت قريحة العوني وخرج عن صمته وذهب ينشد القصائد الحماسية الباعثة للشجاعة في نفوس رجال بن رشيد منذ تلك الغزوه الى ماقبل ان يفتح الامام عبد العزيز حائل بفترة قصيرة جدا .

اما القصيدة فان اللتان انشدهما العوني في مناسبة غزوة ياطب — فان احدهما ميميه ، وهي على وزن مايسمى — عند الشعبيين — بالبحر الطويل — وهي من وزن القصائد التي لم يتقيد الشاعر فيها الا بقافية واحدة فقط — اما القصيدة الثانية لاميه ويقال لوزنها عند الشعبيين " مسحوب " وهي تستلزم الشاعر ان يجعل لمثل هذه القصيدة قافيتين — والشعبيون يلحنون القصيدة الثانية على عدة ألحان متباينة — بينما الاولى لاتلحن الا على لحن واحد فقط . ولايتم تلحينها الا على يد شخص واحد يلحنها — في احدى الاندية — بينما الثانية قابل ان يلحنه الفرد والجماعة معا وجميع معاني القصيدتين متحدة في هدف واحد — وهو اثارة الحماس والنخوه في نفوس رجال قبيلة ابن رشيد

ليأتوا حفافا وثقالا ليدافعوا دون سيادة البلاد ودون مجدهم ومجد اميرهم — ولقد كان لتلك القصيدتين أثر فعال هيّج فرسان القبيله — فجاءوا من كل فج عميق لنجدة اميرهم . والعوني في اكثر قصائده التي ينشدها في تهييجه لفرسان قبيلة شمر نجده يجعل القصيدة كأن المنشد لها الامير سعود بن رشيد نفسه وكان الامير يخاطب قبيلته بأسلوب بالغ الاهمية في اثارة الحماسة والنخوه في نفوس رجال القبيله شيوخا وشبانا . واليك القصيدة الاولى :

مضى الليل وانحن النجوم وقام	١	ضياء الصبح يجلي عن سناه قصام
وانا ساهر مالاجت العين بالكرى	٢	ادبر قالات وهن عظام
اقلب الحيلات وابكي رفاقتي	٣	ابعاد وردن الحريب هيام
تمنيت لوشافوا خيولن تزودنا	٤	يردن باعلراف البلاد جهام
نخيتهم والقد عندي ودونهم	٥	تمنيت لوهم يسمعون كلام
وهم سمفي القاطع الى زامت العداء	٦	وهم لكل النايبات حزام
منادي يب انا نخاكم تعدون ماجرى	٧	على كنس بتر الفوخذ هيام
عوص رمن الحجتين ورود من	٨	لما غدن مثل الفحول جسام
هن منوة المنيوب هن غاية المنى	٩	هيم دعاهن الهيج هيام
شاشين من صيحات علوى وساقمن	١٠	عن الشرب والمرعى قزن عدام
هجّن من سهين البلاد وباطب	١١	اوجن هرب كنه فروق نعام
شولر عليهم بالعوازم وبالكسم	١٢	تنامون وناما هجع عني منام
سيروا كفاكم شر مابان واختفى	١٣	على هرب خمس الله

اركبتكم من فوقهن عقب جفلهـــن ١٤ تردون لطهار: اشعاف ســـلام

وتعدون ما شفتم وشافت عيونكـــم ١٥ وتبدون بالهرج المصيب شـــام

تقولون ينخاكم من الضيم شيخكـم ١٦ فلامين ماعقب الصباح مقـــام

تنخاكم السمراء . وعكاش والحمى ١٧ واجاه وجلديه ترد ظـــلام

وسلمى تنادى وين الاسلم بصوتها ١٨ تودع قلوب السامعين حطـــام

تصيح يابرفش تحسبه حاضـــر ١٩ عزاه مادريت عليه هـــدام

وينخاكم الاجفر شكا ضيم ضدكـم ٢٠ بلاه من ضيم الحريب وشـــام

تمنيت لو الموت جاني قبـل ذا ٢١ ولا طق بين البهبتين حيـــام

ياليت عين (للسناعيس) وابقـت ٢٢ تنظر ذرى السمراء عليه قتـــام

وتشوف يابوم (بعكاش) ضدنـا ٢٣ غشى (الخريبي) من وراه قتـــام

فلامين كيف اسهر وترقد عيونكـم ٢٤ أمينين هم وتقبلون طعـــام

فلامين تروا كل شيء يباع ويشترى ٢٥ الا العز بيعه بالسحوت حـــرام

وتروا كل ماحاش الفتى ضده الفناء ٢٦ الا العز يبقى للرجال د وا م

روش خانته القب الجياد وربطها ٢٧ اليعاد ماتكسي الحريـ

تقفون ياشر نخيت اجمعينكـم ٢٨ عبده والتـ

(فلما) بكيت وصاحت الدار بعدكم ٢٩

(فلما) بغى عمي وركني وعد

وبين الظنايا وبين كسابة الثنـ

فلامين قوموا قومة الهث كلكـم

وشيب صبني ماجوج الدوم شوفهم	٣٣	على عين مزهوم بعض بهـــام
يظن لنا خفراتكم وبن دارهـــم	٣٤	ود وجههن فوق الخدود نظـــام
يصحن وينخن وبن (شمر) دلالنا	٣٥	واقدامهن عقب الترائف لكـــام
عنكن لا تبكن نجفو رفاقـــتي	٣٦	مادام العمر يجلب ود ونكن وبـــام
انا صلب عبدالله وانا سترمن بكت	٣٧	الى عقد ماله فزوة اوصـــام
قلته وانا منكم ودون حقوقكـــم	٣٨	مالي ونفس باللزوم سهـــام

الشـــرح : يقول الشاعر من لسان حال الامير سعود بن رشيد :

١ — لقد مضى الليل وأدبرت النجوم وتام نور الفجر يضفي على ظلام الليل المنصرم .

٢ — هذا وانا ساهر ولم يطب لعيني النوم ، افكر في مهام الامور العظام .

٣ — تلك الامور التي جعلتني اتمس الف حيلة وحيلة نادبا لرفاقي ابناء قبيلتي الذين بعدت دارهم في الحين الذي غدرنا به العدو وهاجما علينا .

٤ — وكم كنت أتمنى ان أبناء قبيلتي شاهدوا بأعينهم فرسان العدو والذين صبوا غارتهم على مكان قريب من البلاد .

٥ — وأني أهيب بنخوتهم واستنجد بهمتهم في هذه الفترة التي ظل بها العدو حائلا بيني وبينهم ، وكان بودي انهم يسمعون ندائي هذا من كثب .

٦ — انهم سلاحي الماضي اذا ماطغى العدو علي وهم حصني الحصين الذي اعتمد عليه بالملمات .

بعد هذا البيت السادس ـ انتقل الشاعر الى الأسلوب الذى يتحله في كثير من قصائده بصيرة يسرى بها الخيال الى انتدابه رسلا يمتطون نجائب من الابل الاصيلة ليستولوا نقل النبأ الى من يريد ان يستنجد بهم ، كقوله :

٧ ـ ايها الرسل انني اهيب بنخوتكم لتنقلوا الامر الواقع الى ابناء قبيلتي ـ وها أنتم تمتطون ابلا (كـنّس) اى سمان ـ بتر الفخوذ ـ اى قصيرات الافخاذ (وكلما كانت الناقة قصيرة الفخذين كان ذلك دليلا على نجابتها) .

٨ ـ يضيف الشاعر الى هذه الابل نعوتا جميلة .

٩ ـ كذلك هذا البيت يشبه الذى قبله من حيث وصفه لابل الرسل مؤكدا بأن هذه الابل خير مايتمناهن الرجل ذو الحاجة في الظروف الحرجة التي تستدعي السرعة العاجلة .

١٠ ـ لقد أصيبت هذه الابل بذعر وفزع جعل نفوسها تعزف وتضرب عن قبول العرض وحتى عن شرب الماء . وذلك نتيجة لما شاهدته هذه الابل من صرخات وزهو قبيلة (طوى[1]) .

١١ ـ مضت هذه الابل في مسيرها من بين البلاد (اى حائل) ومن بين (ياطب) يقصد الموقع الذى صب فارته عليه الامام عبد العزيز بن سعود وياطب وادى قريب من مدينة حائل . ويصف الشاعر هذه الابل بأنها اشبه ماتكون بسرعة جريها بالنعام .

قبائل

١٢ ـ امضوا ايها الرسل فوق هذه النجائب واياكم ان تركنوا الى النوم في سبيلكم مادمت حارسا عن النوم .

---

(١) طوى ـ هي قبيلة مطير التي كانت على حد تعبير الشاعر صبت فارتها بجانب الامام عبد العزيز ابن سعود على ارض ابن رشيد .

١٣ — سيروا أيها الركب في سبيلكم حفظكم الله من شر كل حفية وبهنة — سيروا فوق هذه النجائب الضامرات البطون اللواتي أضربن عن قبول المرعى والشراب معا .

١٤ — لقد انتدبتكم لتركبوا هذه النجائب الجافلات التي أصيبت بذعر ، اريدكم ايها الركب ان تبلغوا أولا سلامي (لطيار الشعاف) بحي قبيلة شمر . وأريدكم أن

١٥ — تتحدثوا ايها الركب بما شاهدته عيونكم وليكن حديثكم بهذا الشأن حديثا عاقلا وبقدر ما يمكن من السرعة .

١٦ — قولوا أيها الركب ان اميركم يهيب بنخوتكم بحكم ما يعانيه من الضيم . فكيف ايها الفتية يطيب لكم المقام بعد صياح نسائكم واطفالكم وشيوخكم الذين فاجأهم العدو .

١٧ — وكذلك تهيب بنخوتكم الجبال والوديان والارض الخصبة — السراء[1] — عكاش[2] الحمى[3] — أجاء — جلديه — كل هذه الجبال تستنجد بكم .

١٨ — (وسلمى) تصرخ بعالي صوتها تنادي الفارس (برغش ابن طموله) رئيس عشيرة الاسلم من قبيلة شمر وهي عندما تستنجد به تظن انه على قيد الحياة وقد خفي عنها العلم ان هذا الفارس الذي يحمي الذمار قد توفي (وسلمى واجا) هما جبلا طي المعروفان .

---

١ — السراء يقصد الجبل العالي المشرف على مدينة حائل بصورة مباشرة من الناحية الشرقية .

٢ — عكاش وادي قريب من المدينة نفسها من ناحية الشرق ايضا .

٣ — والحمى — ارض خصبة — تقع ايضا بالقرب من حائل من الناحية الشرقية . ولا يفوتنا الانتباه ان الغارة التي صبها الامام عبد العزيز بن سعود تقع شرقا عن حائل .

٤ — [illegible]

١٩ — وقد أضاف الشاعر الى هذه الجبال وتلك الوديان اضافة موقع يسمى الاجفر قريبا من حائل ، راجع الجزء الاول من (شيم العرب) للمؤلف ص ٢٢٤ — الطبعة الثانية .

٢١ — كنت أتمنى انني مت وأنطوى اجلى كان ذلك احب الىّ مالم ارى العدو ونصب خباءه بين (الهضبتين) اى بين جبلي طى سلمى وأجاء .

٢٢ — ألا بالميت (السنامس[1]) ينظرون بأعينهم غبار غارة العدو . الذى — فتى — ظلال — جبل الصمراء المجاور للبلد حائل عن كثب .

٢٣ — هذا البيت مطابق معناه للذى قبله .

٢٤ — ايها الفتية — كيف يطيب لكم النوم في الحين الذى اجدني ساهرا — وكيف تعيشون بأمن وكيف تقبل نفوسكم الطعام .

٢٥ — ايها الفتية : ان كل شيء يمكن ان يباع ويمكن ان يشترى ، اللهم الا العز — فان بيعه بفضولات المادة محرم .

٢٦ — وكل شيء يكسبه الانسان في هذه الحياة سوف يدرس . ويخفى ذكره على مر الايام ، اللهم الا المجد فانه سوف يبقى خالدا تتناقله الاجيال على مدى الدهر .

٢٧ — لست ادرى ماهي الفائدة من الاحتفاظ بالخيل الاصيلات ، ما الفائدة بها اذا لم يقم فرسانها بغارة يخيم غبارها على ارض العدو .

---

(١) — السنامس كنية يقصد بها قبيلة شمر بكاملها البدو والحضر . مع انها من حيث الاصل الاساسي — خاصة — بعشيرة عبده فقط ولكنها على طول المدى اصبحت شاملة للقبيلة بدوا وحضرا .

٢٨ — انني عندما أقول (واشعراه) فانما أعني بهذه الكلمة قبيلة شعر كلها سواء عشيرة عبد أو عشيرة الصائغ[1] ، فكلكم قوم كرام .

٢٩ — (فلها)[2] لقد بكت الديار وصاحت نادبة اياكم ، وها أنذا أهيب بنخوتكم . فأنتم بعيدي الهمة .

٣٠ — انتم ابناء عمي . وأنتم الركن الذي أعتمد عليه وأنتم سلاحي وعتادي اللذين اقاوم بهما العدو عندما يتطاول عليّ .

٣١ — اين اولئك — الطنايا[3] — اي الاباة ، اين اصحاب الثناء ؟ اين تلك الجموع التي كأنها جيش منظم ((يقصد بذلك فرسان ومشاة قبيلة شعر)) .

٣٢ — ايها الفتية : هبوا جميعا ، وثبوا كما يثب الاسد عندما يضام ، وحينما يتحفز ويهجم على من يعتدي عليه في عرينه .

٣٣ — الله الله ما أحوجني الى رؤيتكم ما دمت بهذه الحالة الحرجة .

٣٤ — يسألننا فتياتكم قائلة — اين ذهب فرسان قبيلتنا ، يسألننا هذا السؤال ودموعهن تجري على خدودهن كحب اللؤلؤ المنظوم .

٣٥ — يسألننا فتياتكم ويكررن سؤالهن هذا بالحاح قائلا : اين هما اين الرجال الذين عشن برعايتهم وبدلالهم ؟ كيف

---

(١) — جميع قبيلة شعر يتفرع منها هاتان ١١

(٢) — فلها — اسم من الاسامي التي تكنى

(٣) — (الطنايا) اسم ايضا من الاسامي ،

هذه الكلمات واقدامهن المترفات الناعمات يقطرن دما من اثر الحجارة التي جرحت تلك الاقدام الطريات الناعمات .

٣٦ — عندما رأت صباى هذا المنظر من فتياتنا أجبتهن قائلا : كنّ على أتم الاطمئنان ولا داعي الى بكاكن فيما اذا بعد عنكن رجالكن وتخلوا عنكن . كن على يقين بانني سوف احميكن الى آخر نقطة من دمي . ثم يمضي العوني ليؤكد انه يتحدث عن لسان حال امير البلاد فيقول :

٣٧ — ألست من صلب وسلالة « عبدالله »[1] ؟ .. اذن فلا مناص لي من أن اكون حاميا وساترا لكل فتاة لم يكن لها حام من رجال قبيلتها أومن عاصمها . ثم يؤكد ذلك بقوله :

٣٨ — عندما أعلن قولي هذا لا أرى لي في ذلك منة . وكل ما في الامر هو انني اجد نفسي واحدا من أفراد قومي ، مدافعا دون حقوقهم وواضعا كل ما أملكه من مال وجاه — بل وحتى نفسي — كل ذلك واضعا له فداء لرجال قومي وأبناء وطني عندما يهدد اللازم ويجد الجد .

كان لهاتين القصيدتين اعمق الاثر في نفوس قوم بن رشيد البدو منهم والحضر فأما البدو فقد جاؤوا على كل ضامر من كل فج عميق ، كما أن الـ

---

(١) يقصد عبدالله العلي بن رشيد المؤ .

آل رشيد المجد الذي كانوا ولا زالوا يحفظ

وقاموا قومة رجل واحد ، متأهبين جميعا لصد هجوم قوة المهاجم ، ولكن الذى حصل هو أن المهاجم اكتفى بغارته التي صبها على نفر من قبيلة شمر في (باطـــــب) ثم قفل راجعا من حيث أتى .

أما القصيدة الثانية فان معانيها مطابق لمعاني القصيدة الاولى وان اختلفت بالقافية والوزن والأسلوب من حيث التلحين ، ومادام ان معاني هذه ومعاني الاولـــى متفقان من حيث ما استهدفه العوني في اثارة الحماسه والنخوه في قبيلة شمر — فانـــي لاأرى مايدعو الى شرح الابيات التي في هذه القصيدة الآتية :

هزيل قلب كل ماقرب الليـــل	١	عليه صارن الدقائق جلايـــــل
وهتاف عن طيب الكرب بالتعاليل	٢	بفكارو واذكار وقيل وقالـــــل
والعين كن بموقها بدرج السيل	٣	عيت تطبق النوم من فور جايـــل
على بني عمي سنادى عن السيل	٤	نطاحت الكايد كبار الوايـــــل
اقفوا كما فسرن ثقيل المخاييل	٥	من زاعج الغربي حدر له شعايـل
يادار وين اهل السهار المشاويل	٦	اهل النزول اللي تعز النزايـــل
شمر مثابيس المنايا هلل الخيل	٧	عصان الاروى مقحمين الدبايـــل
ذكرتهم يوم رتدم فوقي الشميل	٨	وبكيتهم يوم قهل الضد صاقـــــل
صاح الصباح وجدعن الهلاهيل	٩	وهلت دموع معكرشات الجدايـل
قلت ابشرن مادامها العمر تسهيل	١٠	مادام مازرت علي النصايـــــل
لاتبكن الوحده وقل الرجا جيـل	١١	مادام عين الله علينا تخايـــــل

وظهرت انا بشم العصات المشاكيل ١٣ وصوا حماهم نقدمين الغمايـــل
قالوا عليهم قلت لا ترجي الخيـل ١٤ او قهرتم فصب وردوا خلايـــل
هم حاصلي الى كلن المحاصيـل ١٥ فوش الجبل خزني صناديد حائل
وادنيت هجن يقرين المحاويـل ١٦ هجن هجاهيج هجاف نحائـل
تلائص عوص صعائع شماليـل ١٧ من سلسلت نسل السباق السلايـل
هلاكم تطرب قلوب البراسـيل ١٨ خفقات صلات صلاب جلايـل
الصبح فزن كانهن جولت الريـل ١٩ فيفتح علت فوقه رجال صمايـل
الرابعه يلفسن نزول كما الليل ٢٠ شمر الى عدة اصول القبايـل
ادنا بالادنى خبروهم بتفصيل ٢١ لا تتركون صغارهم والحمايـل
لازم الى شافوا ركاب مقابيـل ٢٢ تلزمهم النشدة عن سكن حائـل
قولوا لهم يا معتلين على حيل ٢٣ نجد و هلها يطلبون الوايـل
جونا اهل نجد بجمع كالسيل ٢٤ دربو بنا قل وردوا فشايـل
جرى لنا يوم " بها طيب " به الشيل ٢٥ من طاح ماتثنى عليه الرحائل
وصنا على هكاش مثل الهماليـل ٢٦ وردت لصبيان الجبل والنحائـل
قل كانهم قفوا بستة مخاليـل ٢٧ يا طول ما حنا لهم بالا وافـل
وبن الطنايا وبن شرابت الهمل ٢٨ وبن الحيود اللي تشيل الثقايل
وبن السيوف اللي تعدل لي العمل ٢٩ وبن الرماح اللي تحت كل طايـل
اشرب بهم صاف القراح الشهاليل ٣٠ ونزل بهم فصب على كل طايـل
بشم النشاما والعصاة المشاكيل ٣١ وجموع باطرافه تضيع الدبايل

شعر ترى بلدانكم لهمة النهـل ٣٢ تنحا الرجال ومكرمات الاصايـل

الله وانا منكم على العدل والمسيل ٣٣ يعل ما نعتاض عنكم بدايـل

تمت وصلوا عدوا بل المخايـل

على نبي الحق مازال زائـل

وهذه القصيدة انشدها العوني ايضا على لسان حال امير حائل . وكلاهمـا كان لهما تأثير فعال في نفوس رجال ابن رشيد حذرا وبدرا .

" فترة هدوء وتعبئة عسكرية للامام وأدبيه للعونـي "

بعد غزوة باطب ساد الهدوء نجدا ولم يكن ثمة اصطدام عسكري بين القوتـين المتكافئتين أي بين ابن سعود وابن رشيد — وقد جاء هذا الهدوء نتيجة حتميـة لمعاهدة الصلح التي تمت بين هذين الحاكمين ، وقد كانت هذه المعاهدة من صـالح الاول اكثر مما هي من صالح ابن رشيد ، وذلك أن الامام عبد العزيز سعى في تلـك الفترة وقبلها بفترة قصيرة — سعى بتحضير البادية وتوجيههم توجيها دينيا بصورة تتمكـن بها أن يجعل كل قبيلة من قبائل البادية تبني بيتا من الطين وتستوطنه ، وكانـوا يتجمعون في بعض المواقع ، ويسمى الموقع الذي يختارونه (هجره) ومعنى ذلـك أن هؤلاء البدو هاجروا من الشرك والضلال الى التوحيد والهدى .

../..

وكانوا يعرضون مواشيهم للبيع في مدن نجد ، فيبيع الواحد منهم رعيته الابـــل بالجملة وبأبخس الأثمان ، ومن المعلوم أن هذه الماشية هي مصدر قوت البدو واليومـــي ، وهي تراث الأحفاد من الأجداد ، ولكنهم مع ذلك يرخصونها ويستهترون بها معتقدين أن رعايتهم لهذه المواشي وعنايتهم بها أمر أشغلهم عن عبادة الله وعن جهاد الكفـــرة . وكما أن أصحاب النبي (محمد) عليه السلام يعتقدون أن كلما كان قبل تاريخ رســـالة النبي فانما هو عهد جاهلي بالنسبة لعرب الجزيرة ، فكذلك كان اولئك الاخوان يعتقدون هذا الاعتقاد نفسه . فهم مثلا : يسمون باصطلاحهم العهد الذى قبل أن يتبنوا هـــذه العقيدة يسمونه (عهد الجاهلية) .

وكما أن معتنقي العقيدة الاسلامية الاوائل منهم من قاتل بجانب النبي " ص " كل من لم يستجب الى رسالة محمد ، ولو أدى ذلك الى أن يقاتل أو يقتل أباه أو أخاه أو عمـــه أو خاله(١) كذلك فعل هؤلاء الاخوان المتعصبون بعقيدتهم ، واعتبروا كل من لا يؤمـــن بعقيدتهم ولا ينطوى تحت قيادتهم ، فان جهاده شرعا وقتله كفرا ، وبقدر ما يزيد عدد من يقتله المؤمن منهم من الكفره ، بقدر ما يكون نصيبه من جنات النعيم والحور العـــين الناصرات الطرف اكثر نسبة من غيره .

---

(١) — يؤكد الرواة أن شخصا يدعى (ملهس) بن جبريل من رؤساء فخذ من أفخاذ قبيلة شمر ، فهذا الشخص من الذين اعتنقوا عقيدة الاخوان المتدينين عن ايمان أعمى ، وعن عقيدة متحجرة ، وكان شوقه الى احتضان الحور العين ، بأى ثمن يكون جعله في معركة الصفيح الكائنة في ١٣٣٩ هـ بين الاخوان . واهالي حائل ، في تلـــك المعركة طلب (ملهس) من رفاقه بأن من يظفر بخاله فهذا الجبر بأن يهبه اياه ليتقرب الى الله بدم خاله — كدليل على صدق ايمانه ، وهربونا ينال به الحور الحسان « ومن طلب الحسنى استرخص المهر » .

ولما كان الأدب الشعبي هو السجل التاريخي الامين الذى يعكس لنا الصورة الناطقة عن الاحداث السياسية والاجتماعية في تلك الفترة ، فاننا مع الاسف لم نجد من القصائد الشعبية السائدة الكافية التي تعبر لنا عن هؤلاء الاخوان التعبير الصادق الصحيح ، وكان أهم الاسباب لذلك هو أن هؤلاء الاخوان يحرمون الغناء والقصيد ، على أساس أن الغناء مزامير الشيطان والشعراء يتبعهم الغاوون — ولذلك انعدم انشاد الشعر في عهدهم كلية ، وبما أن البدوى بطبيعته وبفطرته اذا امتطى جوادا أو ركب راحلته فانه لابد من أن يشعر بشوق يحفزه الى الحداء فان هؤلاء الاخوان عندما يمتطون أفراسهم أو رواحلهم ويشعرون بذلك الشوق الذى يحفزهم الى الحداء فعند ذلك يضطرون الى ان يلحنوا آية من آيات القرآن ، على وزن وتلحين — قصائدهم الشعبية — عندما كانوا (في العهد الجاهلي) !!

وكانت بعض الآيات من سورة الفاتحة هي التي وجدوها صالحة للتلحين من ناحية سد فراغهم الذى يعانون به شوقهم الى الغناء ، وهكذا تجدهم يلحنون هذه الآية : ﴿ اياك نعبد و ، واياك نستعين ﴾ ، ثم يختمون هذه الآية في الآية الآتية ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ .

وهناك قصيدة (هجينية)[1] لم احفظ منها الا بيتين ، وهذان البيتان على مافيهما من الاختصار فان فيهما معان تعبر بالصدق التعبير عن اتجاهات اولئك الاخوان السياسية والاجتماعية ، وهاهما البيتان :

---

(١) الهجينية قالها لا تتجاوز اكثر من ستة أبيات وتلحن على ظهور الابل في بعض الاحيان .

شد النضاء في سبيل اللـــــه

والنفس ترجع الواليهـــــــــا

ربع يوم في سبيل اللـــــه

يساوى الدنيا ومافيهـــــــــا

الشـــــرح :

١ — شد رحالك في سبيل الله ، ونفسك مصيرها ومرجعها الى الله الذى يتولاهـا .

٢ — ان ربع يوم في سبيل الله تجاهد به الكفرة المشركين هو أفضل من الدنيا ومافيها من خيرات ومسرات . . . الخ .

اذا كانت هذه الفترة من الناحية التاريخية بالنسبة للامام عبد العزيز تعتبر فترة التعبئة العسكرية التي صنع بها عبد العزيز قبلته الزمانية في تحضير أولئك الهدو . وقد احتفظ في تلك القبلة الى ان حانت الفرصة التي وحّد فيها جزيرة العرب ، فان تلـــك الفترة بالنسبة للعوني — يرى انها فترة التعبئة الادبية لانه صمت في خلالها ولم ينشـــد شعرا بعد قصيدتيه اللتين انشدهما بعد وقعة باطب — ولكنه بعد تلك الفترة النوجـــيزة انفجرت قريحته انفجارا هائلا — وبصورة متواصلة لا فتور فيها — وذلك منذ عام ١٣٣٨ هـ الى ان سقطت امارة آل رشيد في عام ١٣٤٠ هـ وسقط معها نجم العوني الى الابد .

واذا كان صاحب الترجمة لا تنمو قريحته الادبية ولا تنصقل موهبته الشعرية وتنطلق من اسرهـا الا اذا توفر له الأمران الآتيان :

أولا — ان يكون منسجما مع ضميره ووجدانه مؤمنا بأن اى بيت ينشده ، صادر من وجدانه لا من جـــرانه .

ثانيا — أن تتاح له الفرصة المواتية التي يسبح فيها خياله كيف يشاء وكما يهوى — وقد توفر له في فرصة التعبئة هذين الامران جميعهما . فالامر الاول توفر له مجرد ما تحرر من ضغائنه واحقاده المزمنة ضد آل رشيد ومن ثم تأثلم في حائل وقرر أن يربط مصيره ومستقبله في مصير أمارة ابن رشيد الى نهاية المطاف — واما الامر الثاني فقد توفر له ايضا في مناسبتين . واليك المناسبة الاولى :

الاولى

" المناسبة التي ذهب العوني يمدح بها كالبلبل "

ماهي هذه المناسبة التي جعلت العوني يرسل خياله محلقا فوق السحب صادحا كالبلبل في فصل الربيع ؟

وماهي اسباب هذه المناسبة ؟؟

اليك الجواب على السؤال الاول :

المناسبة هي غزوة الامير سعود بن رشيد للجوف الذي كان تحت امرة الامير نواف بن شعلان ووالده النوري .

أما الجواب على السؤال الثاني أي اسباب هذه الغزوه فان أسبابها ومبعثها هو مايحسن بي أن أوافي القارئ كما نقلته عن أقرب المقربين للشيخ النوري بن شعلان وهو سليمان الجميري الرجل الصادق بحديثه الثقة بروايته ومع ذلك فهو محسوب من رجال الشعلان المخلصين . يقول الجميري كان الشيخ نواف الشعلان وكل والياً يتوجه في امارة الجوف . باسم [illegible] من جانب آل شعلان

القدماء ، وقد منح الشيخ نواف ثقته مطلقة لواليه المشورب ، ومن خلال هذه الثقة اصبح المشورب يتصرف تصرف الحاكم المطلق يفعل مايشاء ولاراد لأمره وكان الشيخ نواف يقضي الكثير من أوقاته في الصحراء تابعا الكلأ والمرعى الخصب لابله بصفته بدويا اكثر منه حضريا .

كان المشورب ظالما ، وسيء الاخلاق ولا يحترم المواطنين ، وكان الشيخ نواف قد أمر نائبه ان يبني له قصرا في مدينة(سكاكا) التي تبعد عن الجواف يوما للراحلة — بصفة أن (سكاكا) أصح مناخا من الجوف ،ولم يكن لدى المشورب الا أن ينفذ امر سيده في بناء القصر، ولكن تنفيذه هذا الامر كان على حساب المواطنين من اهالي (سكاكا) وذلك أنه بدلا من أن يأتي بعمال يعمرون القصر مقابل اجرة يدفعها لهم ، كان يسخر أهل البلد ذكورا ونساء ليقوموا بعمران القصر بدون أن يدفع لهم بذلك شيئا — وكانت الطريقة التي اتبعها نائب الشعلان في عمران قصر سيده — هي أن جعل سخرته هذه للمواطنين بالدور ، فأهل الحي الذين يتولون العمل اليوم ، كانوا يرتاحون ويقوم عنهم اصحاب الحي الثاني ، وهكذا . . دواليك . . وكان على رأس كل حي رجل مسؤول عن رجال حيه أمام المشورب — فان تأخر احد فان العقاب من المشورب — سوف يقع على ذلك المسؤول .

ويؤكد الراوي السيد سليمان الخميري — ان هذه السخرة كانت تسير بصورة طبيعية ، ولم يبد وأي ضجر محسوس من المواطنين .

ويضيف الخميري قائلا : ان صبر الغيورين من اهل البلاد نفد عندما رأوا أن نائب الشعلان (المشورب) — لم يقف به الحد الى تسخير المواطنين الى عمران قصر سيده

مجانا بل راح يتحرش بالنساء المحصنات ـ الامر الذى لا يستطيع أن يطيقه من به مثقال ذرة من الشهم والاباء ويمضي الخميرى قائلا : كان من بين النساء اللواتي شملتهن السخرة ـ فتاة جميلة تدعى مزنه ـ ابنة درعان ـ فهذه الفتاة الحسنى الفارعة الطول المشوقة القوام الرائعة الجمال ، وقع نظر المشورب عليها ـ ففكر بالحكيلة التي تمكنه من اصطيادها ـ فوجد أن أهون السبل التي تمكنه من الوصول اليها هو أن يسجن شقيقها المدعو (صنيتان بن درعان) وعندها سجنه بحجة ما !! . هنالك جاء بعض من زعماء اهل (سكاكا) يتشفعون بالسجين لدى الحاكم المشورب ـ فكان جواب المشورب هو انه لن يطلق سراح السجين ولن يقبل وجاهة أى من كان اللهم الا واجهة شقيقة السجين (مزنه) .

ولم تكن الغاية التي يستهدفها المشورب من وراء طلبه لوجاهة شقيقة السجين خفية على البسطاء من اهل البلاد فضلا عن العقلاء الامر الذى جعل الاباة منهم يزدادون حنقا وغضبا على نائب الشعلان وعلى أسياده ، وكان اكثر زعماء البلاد تأثروا من هذا الاجراء الشيخ (رجاء بن مويشير زعيم المعاتله)[1] يضاف الى ذلك أن الفتاة شقيقة السجين عندما شعرت أن عرضها مهدد من قبل المشورب حاكم البلاد لم يسعها الا أن هربت ودخلت في بيت الشيخ رجاء مستجيرة ـ بعرضها من المشورب ، وعندما ازداد حنق وغضب الحاكم المشورب على ابن مويشير ذهب يلتمس الحيلة التي يتحدى بها كبرياء المويشير وينال من كرامته .

---

(١) المعاتلة جماعة من اهل تلك البلاد تربط بعضهم ببعض رابطة الدم والعرق والجوار .

ولما كان كل حي من أحياء البلاد الذين يحررون قصر الأمير بالمجان يكـــون المسؤول عنهم شخص من أعيان هذا الحي نفسه ، فقد اهتبل المشورب حجة على رئيس حي الشيخ رجاء — والذى من رجال رجاء الادنين فجاء به وأشبعه اهانة وملأفيه ووجهه طينا بحجة انه تأخر عن مواقيت العمل . وبعد ما فعل ذلك المشورب برجل الموشير قـال له : اذهب الى رجاء ليغسل وجهك وفيك من الطين .

ذهب الرجل الى الشيخ رجاء وهو في منظره هذا ملما وجهه وفيه من الطين ومن هناك بلغ الشيخ رجاء رسالة الحاكم المشورب التي يأمره أن يتولى رجاء غسله من الطين .

لم يتلفظ ابن موشير بكلمة واحدة تعبر عن سخطه أو تأثر ، وكل مافي الامـــر أن قام وسكب ماء على وجه هذا الشخص وغسل الطين بيده ، كما طلب منه الحاكم المشـــورب أن يفعـــل .

هذا وقد واصل الخبيرى حديثه الى أن قال :

النورى

ان الشيخ رجاء بن موشير كان يشعر أن في ذمته عهد للشيخ نواف الشملان . وبما أن الشيخ نواف يقضي أغلب اوقاته في الصحراء ، خلاف والده الشيخ النورى الـــذى يقيم وقتها في دمشق وشكا له كل الاساليب التعسفية التي يقوم بها عامر المشورب . وطلـــب من النورى عزل المشورب ، وتعيين أى حاكم يختاره الشملان من رجالهم بدلا مـــن المشورب . ولم يكن من النورى الا أن أصغى الى شكاية الموشير وأطرها جل اهتمامـــه واستجاب لطلبه ، ولكن المشكلة على حد رواية سليمان الخبيرى — تعود الى أن تعيين النائب الذى يقوم مقام المشورب عمل من اختصاص الشيخ نواف — الامر الذى جعـــل الشيخ النورى يستدعي ابنه الى دمشق ليسمع شكوى ابن موشير من كثب ، وقد حضـــر

نواف واستمع لشكوى ابن مويشير بصورة مفصلة . وكان جواب الشيخ نواف هو أن قال انه سوف يذهب الى الجوف بعد مدة ما واذا وصل هناك يتخذ الاجراءات اللازمة بشأن عزل المشورب .

يقول سليمان الخميري ان رجاء بن موشير قال للشيخ نواف العبارة الآتية :

« اذا لم تعزل المشورب فان الوجه من الوجه أبيض »[1]

بعد ذلك قفل المويشير راجعا الى بلاده وهو عازم على أن يتخذ القرار الحاسم . وكان أول خطة احتياطية قام بها ، هي أن أرسل أخاه حمدا الى امير حائل سعود بن رشيد يطلب منه أن يحميه ويجيره من ابن شعلان — عندما يمضي في خطته القاضية — بقتل المشورب نائب الشعلان ، وقد اكد المويشير لابن رشيد بانه مقدم على قتل المشورب لا محالة ، وكل مايريده هو أنه يستنجد بابن رشيد ويستجير به من سلطة ابن شعلان الحاكم الشرعي للجوف — في حالة تنفيذ خطته .

كانت المسافة بين حائل والجوف مقدار خمسة ايام للابل النجائب تقريبا ، وما أن وصل حائل اخو رجاء الموفد من قبل أخيه الى الامير ابن رشيد حتى نفذ رجاء ما تعهد به أي انه قتل عامر المشورب بيده . وبالاضافة الى ذلك قتل المويشير شقيق المشورب .

هذه خلاصة الرواية التي نقلتها من سليمان الخميري الذي يقيم في منزل الشعلان في دمشق ، وكان ذلك في ٢٨ / رجب ١٣٨٦ — ١٣ / أيلول ١٩٦٦ .

---

(١) تفسير هذه الجملة هو أن الموشير يقول : اذا لم يعزل المشورب فانه لم يكن بذمتي عهد للشيخ ابن شعلان .

لم يتأخر ابن رشيد عن الاستجابة لنجدة ابن مويشير ، بل هبّ من فوره قاصدا الجوف(١) لينجد ابن مويشير ، الذى عندما قتل والي بن شعلان ، ظل في قصره يؤيده الاقربون من بني قومه ، المسمين بـ (المعاقلة) أما العدد الكثير من أهل البلاد فانهم ضده .

كانت القوة التي جاء بها ابن رشيد كنجدة لمستنجده ابن مويشير قوة ضئيلة جدا ، لا تستطيع الدفاع عن نفسها في مواجهة قوة ابن شعلان فضلا من أن تهاجم أو تفك الحصار عن ابن مويشير ـ الذى جاء ابن شعلان وحاصره هو وابن رشيد معا .

وقد حدد لنا الشاعر محمد العوني عدد قوة ابن رشيد في بيت من قصيدته التي سوف نوردها في هذا البحث كشاهد تاريخي ـ ولكي نعرف بالضبط مقدار المقاتلين الذين جاء بهم ابن رشيد لنجدة بن مويشير لنتأكد من ذلك ، لابد لنا من العودة الى البيت الذى حصر به العوني ذلك العدد بقوله :

(جلنا ثلاثمائة ذلولا تحتهن نهني نعدل أبين وبحار)

ومن معاني هذا البيت يتضح لنا أن عدد رجال ابن رشيد ستمائة مقاتل هذا على أبعد حد وأقصى تقدير ، ويبدو لنا الامر واضحا عندما نعتبر أن كل ذلول يركبها اثنان ، اى (مردفين) فيكون تقديرنا صائبا حسب التحديد الذى قدره العوني الشاهد عيان .

كان الشيخ نواف الشعلان يتوقع بل يعتقد جازما ان رجاء ابن مويشير عندما قرر

---

(١) الجوف : هي دومة الجندل .

أن يقتل نائبه عامر المشوب ـ فانه سوف يستنجد بابن رشيد كما كان يتوقع ابن رشـــــيد سوف لا يتأخر عن تلبية المويشير ، الامر الذى جعل الشعلان حالما يبلغه مصرع نائـــبه ، هب مسرعا قاصدا أن يقضي على ابن مويشير قبل أن يستفحل أمره .

وكان التقدير الذى توقعه نواف الشعلان من حيث استنجاد بن مويشير بابن رشيد تقديرا صائبا ، وكما مر بنا : بعث ابن مويشير أخاه حمدا الى ابن رشيد يطلب منـــــه العون والنجدة العاجلة ولسان حاله يعبر عما قاله الشاعر العربي :

لئن كنت مأكولا فكن خير آكلـــــي

وإلاّ فادركـــني ولما أمـــــــزق

لم يسع ابن رشيد الا أن لبى نداء مستجيره حسب التقاليد العربية ، ولكنهـــــا تلبية مرتجلة لا تفكير فيها ، وبلا تدبر وبدون امعان .

" كان للعوني الاثر الفعال في تحقيق النصـــــــر "

لقد أوشك ابن رشيد أن يذهب لقمة سائغة لابن شعلان نتيجة لنجدته المرتجلة ، وقد كان لصوت العوني وأناشيده الحماسية الأثر الفعال في ثبات رجال ابن رشيد فـــــي بداية الأمر ثم في كسب المعركة والنصر فيما بعد .

استطاع ابن رشيد أن يدخل مدينة (سكاكا) لينجد المويشير ، ولكن المشكلة أن ابن شعلان جاء فيما بعد بقبيلته الرولة . وقبيلة الحويطات بقيادة (الشيخ عودة أبو تايه)

وقبيلة الشرارات بقيادة للحاوى وقبيلة الحوازم بقيادة اديهم ، ومن هناك ضرب حصارا طوق به ابن رشيد من جميع الجهات : شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وكانت المعارك يوميا تدور على قدم وساق بين الجانبين ، وسوف نترك شرح المعارك للشاعر العوني الذى وصفها وصفا رائعا في أكثر من قصيدة من قصائده التاريخية التي سوف نورد ها عما قليل .

ولما الآن فاننا نود أن نذكر الموقف الحرج الذى عاناه ابن رشيد في بداية الامر كنتيجة لمغامرته هذه .

لقد طال الحصار على ابن رشيد وتجاوز عدد الايام والاسابيع الى عدد الاشهر ، ومن هناك جمع ابن رشيد أولي الرأى من رجاله ليستشيرهم ما الحل ؟ وما الرأى السديد الذى يخرجون به من هذا المأزق الحرج ؟ .. كان هناك من لا يرى سبيلا للسلامة الا سبيلا واحدا — وهو الخروج من حيث الدخول — وهذا يعني الهزيمة — ولكن الامير الشاب وأصحاب النهات والجلد ، كانوا لا يرون هذا الرأى ، وفي طليعة اصحاب الرأى الاخير شاعرنا العوني الذى يقول عنه من لا يعرف تاريخ حياته جيدا بأنه جبان.

كان الرصيد الاساسي الذى يركن اليه الامير الرشيدى في تلك الايام الحرجة ، والجيش الاحتياطي الذى يستند اليه هو : صوت العوني المهيج للعواطف والشاحذ لهمم المقاتلين ، والباعث لروح الشجاعة في أفئدة رجاله الهواسل .

ظل العوني ينشد قصائده المتباينة الاهداف والتي تحمل طابعين الطابع الاول يختص باشعال جذوة الحماس في نفوس رجال ابن رشيد المثابرين في سكاكا — وقد كان لقصائده أعظم الاثر في نفوس المحاربين — تلك القصائد العربية الموسيقية التي

ينشدها ولحنها هو بذاته تلحينا منسجما ونغمات ـ الدمام ـ الطبل الذى يثير شجون المحاربين حينما يتولى دقه نفر من الماهرين بهذا الفن .

وفي أثناء (العرضة) ـ أى الرقصات الحربية ـ فكم من بيت يحمل من المعنى الذى يجعل السامعين له من بعض الشجعان يرقص حماسا بصورة يفقد بها هذا الشجاع في تلك اللحظة شيئا من اتزانه .

ولما كانت المناورات الحربية التي تقام بها رقصات الحروب[1] غالبا ما تكون مستمرة كل يوم وليلة خاصة في حالة الحرب ، فقد كان العوني وقتذاك كالآلة الطبيعية المحركة لرجال ابن رشيد المحاربين بقصائده الحربية التي ينشدها بعد كل معركة تقع بين الجانبين .

هذا نوع من الطابع الاول الذى أشرنا اليه بالسياق . أما الطابع الثاني الذى ينتهجه العوني بأسلوبه ، فهو ايقاظ روح الحمية القبلية في نفوس رجال قبيلة شمر الذين كان الكثير منهم تاركا اميره ابن رشيد بدوافع مختلفة ، فمنهم من كان تاركا له وفي نفسه ما فيها من الغضب على أميره ، ومنهم من تركه متأثرا بمبادئ الاخوان الدينية التي سبق ان تحدثنا عنها ، تلك المبادئ التي اهم اسسها نبذ التكاتف القبلي ، والاقلاع نهائيا عن البداوة وهجر بلاد الكفر والالتفاف تحت راية المؤمنين الموحدين الذين يتزعم حركتهم الامام عبد العزيز آل سعود ومنهم من ذهب الى جزيرة الفرات واستوطنها راضيا مختارا بعد ما وجدها بلادا خصبة فأرغد بها تاركا نجد القاحلة (قبل ان يتفجر بها ينابيع الزيت)) .

---

(١) يقول الشاعر الكبير الاستاذ احمد الصافي النجفي في نعته لرقصات الحروب :

تعلموا رقص الحروب وجنبوا ... رقصا يضم به الرجال نساء

وهكذا ظل العوني ينشد قصائده ذات الاتجاهين ، وبقدر ماكانت قصائده موٴثرة وملهبة لحماس رجال بن رشيد المحاربين ، وباعثة في نفوسهم نشاطا وقوة وجلدا على المثابرة والاستمرار في المعارك الدائمة ، بقدر ماكانت من ناحية اخرى سببا رئيسيا لاثارة نخوة فرسان قبيلة شمر الذين كما ذكرت كان الكثير منهم تاركا لاميره يدافع عن الاسباب المتباينة التي أشرت اليها آنفا — ولكن جميع تلك الاسباب تمزقت وتفتتت بل ونسيت كأن لم تكن وذلك حالما وصلتهم قصيدة العوني بصحبة عبدالله بن فلال بن طم سعود الرشيد الذى بعثه ابن عمه ليستنجد رجال القبيلة واليزف لهم قصيدة العوني التي أثارت النخوة في نفوسهم بصورة جعلتهم يأتون متكاتفين يدفعهم الحماس والتفاني في سبيل الحمية القبلية وكانت النتيجة أن هجموا على ابن شعلان وهزموه هزيمة لم يعد بها الى أرض الجوف الى يومنا هذا وهكذا كانت نتيجة الظلم الذى قام به عامر المشهور والشين نواف .

واليك القصيدة التي نخا بها العوني روٴساء قبيلة شمر نادبا كل واحدة منهم بأحسن مايكون به . وقد جاء مطلع القصيدة على النحو الآتي :

١ راكب فوق حر يذعروه طلّه — مثل طير كفخ من كف قضابه

٢ من اسكا كا ترحل واترك الزله — واترك الخوف هاجوسك تعمق به

٣ سر لشمر وخبر "لابتي" كله — لابتي باللقاء ياوى من لابه

٤ قل "لوادي" و "بوطافت" بعد قله — بانهار على الجوبه حضرنا به

٥ الدخن فوقنا كن الدجاء ظله — من رويل وابن شعلان واجنابه

٦ دربوا ان قليل وادركوا خيله وارتكبنا بعون الله وحجابـــه

٧ مانحق النظر من كثر خلق الله ومن شعر هلليل العادات والجابه

٨ النخ " مطني وعباس " ورمح له بالها كربه لولا انلها لابـــه

٩ وانسخ " طابس " وبرجس هو وجند له والنسخ عنده الى محل ضيعايه

١٠ وانسخ " راع الملبحا لا تساهلـه وانسخ شعر وط الصوت يدري به

١١ والنخ " فهران " اخو رفعه ورحله يتقى بالملاقا كف قضابـــــه

١٢ النخ " طاري " والا سلم قل تجمي سله النخ " اخو صلفه " الى منه كلح نابه

١٣ والنخ " سنجارة " و" قاسم " ساتر الخله والنخ " فضيان ابوغلوش " واقرابـه

١٤ والنخ " عدوان ابومسدوح " بين له يرفع الصوت للغلمان بالجابـــــه

١٥ والنخ " اخوشاهه " المصطور وافطن له والنخ " مطلق " مع التومان واصحابه

١٦ والنخ سماح بأهل الدين والمـله والنخ الاخوان جند الله واحزابـــه

١٧ والنخ " فهاد " و " بايق " هو وربيع له والنخ شيان شرهم وشـــيابه

الشـــرح :

هذه القصيدة تسمى بالإصطلاح الشعبي " حربية " لانها تلعن على نغمات الطبل في " العرضه " الحربية لتكون اكثر اثارة للشعور والعواطف .

١ — وقد ابتداء العوني قصيدته هذه — كعادته — بوصفه للراحله العربية بأصالتها لكي يبعث فوقها رسولا يبلغ رؤساء قبيلة شمر المهمة التي انتدب الرســـول من اجلها — وكانت الراحلة التي امتطاها الرسول على حد تعبير الشاعـــر

جملا فتيا كما وصفه بقوله " راكب فوق ناقة يذعره ظله " الخ .. وقد حذف يا المنادى — فنجده يقول : أيها الرسول اذ هب على ظهر الجمل الحمر الاصيل الذى يجفل من ظلاله من شدة عنفوانه وقوته وصلابته ، ثم ينعت الجمل نعتا آخر فيقول انه اشبه ما يكون من حيث السرعة في جريه بالطير العقر عندما يصطاده انسان ما وبعد ذلك يتمكن هذا الطائر من أن ينفلت من قبضة الصياد محلقا بالجو هاربا . هكذا وصف العوني راحلة الرسول في البيت الاول .

٢ — ارحل أيها الرسول من (سكاكا)[1] ، يعني (البلد الذى تدور فيها رحى الحرب بين الجانبين وأياك أن يخطر ببالك الخوف في سبيل هذا .

٣ — اقصد قبيلة شمر واشرح " للابتي "[2] الامر الواقع . تلك القبيلة التي أعظم رجالها من الشجعان رابطي الجأش عند ملاقاة العدو .

٤ — بلغ يا رسولي (والدى)[3] و (ابوهافت)[4] قل لهما أيها الرسول .

---

(١) — الجوف اسم شامل للجوف وسكاكا معا .

(٢) — كلمة لابتي تعني القبيلة والعشيرة الاقربين .

(٣) — يقصد الشاعر (والدى) بن علي .

(٤) — ويقصد بابي هافت : عقاب بن عجل وكلاهما من فرسان قبيلة شمر ورؤسائها .

٥ — ان دخان ملح البوارد في المعركة التي خضنا غمارها اعتلى فوق رؤوسنا كأننا في ظلم ليل دامس مدلهم وذلك بحكم كثرة فرسان (الرولة)[1] بزعامة ابن شعلان ومن دار بفلكه من القبائل الاخرى . قل ايها الرسول

٦ — لقد طمع العدو بنا عندما تأكد اننا قوم قليلون . ولكننا ثبتنا واعتمدنا على الله .

٧ — في صدر هذا البيت يقول الشاعر اننا اصبحنا مطوقين بصورة لا نستطيع بها أن نرى الفضاء من كثرة عدد رجال العدو الذين أحاطوا بنا من جميع النواحي . وقد ابتدأ الشاعر مهمته التي يصبوا اليها باستنجاده بقبيلة شمر قائلا : ابن شمر — اصحاب النجدة الذين عرفوا عادة بالايجابية في حالة كهذه .

٨ — استنجد ايها الرسول (بسطني) و (عباس) يقصد بالاول (سطني) ابن شريم — راجع الصفحة (١٥٨) — من كتابنا هذا . كما يقصد بالثاني عباس ابن علي أحد رؤساء فخذ آل جعفر من قبيلة شمر . وفي عجز هذا البيت يتأوه الشاعر قائلا يالها من (كربه) شديدة ثم يستدرك قائلا : (لولا ان لها لابه) ، أي اننا في مجيئنا هذا وقعنا في محنة لا مخرج لنا منها لولم يكن لنا (لابه) أي عصبة من رجالنا ذوي النخوة الذين نثق بأنهم سوف ينقذوننا من هول هذه الكربه وقد اكد لي احد الرواة المرحوم حارالله القبب قائلا : ان العوني عندما سمع المحاربين يلحنون عجز هذا البيت ويرددونه في رقصتهم الحربية (العرضه)

---

(١) — وقد مر بنا ذكرهما في هذا الكتاب — صفحة ( ) .

هناك انتضى سيفه ورفعه طالبا رافعا بزهو واعتزاز وله فيه عليته هذه القصيدان الآتيـــان :

أولا : أراد أن يبث في كيان هؤلاء المحاربين روحا جديدة . وآمالا وطيدة تجعلهم يزدادون ثباتا عندما يتقون بأن هذا الحصار وتلك الحـــرب سوف يكون عاقبتهما الفرج والنصر — بفضل وجود رجال قبيلتهم الذين عندما يسمعون هذه القصيدة ويعلمون ان اميرهم وأبناء عمهم في محنـــة فانهم سوف لا يترددون عن نجدتهم العاجلة ، التي ينقذون بهـــا الموقف بقدر ما يمكن من السرعة . هذا الامر الاول الذى قصده العوني .

أما الامر الثاني : فانه يعتقد بأن رؤساء هذه القبيلة عندما يسمعون هـــذا البيت فانهم سوف يكونون امام أمر واقع في قبيلتهم لنجدة واسعاف مـــن استنجد بهم .

وهكذا بدأ الشاعر ينخي رؤساء قبيلة شمر واحدا واحدا كلا باسمه وبأحسن كنيـة يكنى بها ففي صدر البيت التاسع جاء باسمى (ظاعن بن جبريل) وتبعه باسم (برجس) وكلاهما من رؤساء قبيلة شمر ، وفي عجز البيت الحادى عشر قصد الفارس ذهران الصديـد رئيس عشيرة الرصافيح في جزيرة الفرات ، وفي البيت الثاني عشر قصد الشيخ ضاري بن طواله رئيس عشيرة الاسلم وفارسها الذائع الصيت — وفي البيت الثالث عشر شمل بنخوته عشـــيرة (سنجاره) المتفرعة من قبيلة شمر كتفرع عشيرة الاسلم وعدها كما قصد رئيسا هذه العشيرة وهما (قاسم بن رخيص وغضبان بن رمال) وفي البيت الرابع عشر قصد عدوان ابن رمال (ابو مدوح) وهو أحد رؤساء عشيرة سنجاره وفي البيت الخامس عشر قصد رؤســـاء

عشيرة التومان . وهم برفش التمباك وابنه مثل — ومطلق — التمباك . والتومان مشهورون بالفروسيه — وفي البيت السادس عشر استنجد الشاعر برئيس من رؤساء عشيرة الشلقان يدعى (مياح) وفي هذا البيت معنى يحتاج الى شرح وفي والى لفت نظر اكثر بل والى تدبر وامعان وذلك ان (مياح) هذا من ضمن رجال قبيلة شمر الذين اعتنقوا عقيدة الاخوان المتدينين ، اولئك الذين سبق ان تحدثنا عنهم وعن عقيدتهم التي تجعل من يؤمن بها يقتضيه الامر أن لا يتأثر بالعصبية القبلية بل وعلى المؤمن بهذه العقيدة من رجال قبيلة ابن رشيد عليه ان يكفر حاكمه كما مر بنا شرحه ولذلك نجد العوني عندما جاء الى اسم هذا الشخص نجده ذهب يثير نخوته بأسلوب ومعان تختلف عن المعاني التي اطلقها على رؤساء القبيلة الاسبقين . فنجد الشاعر في صدر البيت — يكني (مياحا) باسم الدين والملة الحنيفية . وفي عجز هذا البيت نفسه نجده ينعت بانه من الاخوان الذين هم جنود الله وحزبه .

والجدير بالذكر ان نخوة العوني هذه (لمياح) ورفاقه اثرت تأثيرا فعالا بصورة لسبي بها (مياح) ورجال عشيرته من الاخوان . وأكثر شيء يثير الانتباه هو ان العادة المألوفة عند هؤلاء الاخوان المتدينين تستوجب منهم في حالة خوضهم لوطيس معركة ما أن لا ينتخوا بنخوة القبيلة المعتادة وانما تكون نخوتهم المشتركة (اهل التوحيد) فيرددون هذه الكلمة جماعة وافرادا وهكذا بدأ جماعة مياح يرددون هذه الجملة (اهل التوحيد) وذلك عندما وقعت اول معركة بينهم وبين ابن شعلان — بعدما جاء وانجده لابن رشيد ولكن المشكلة التي واجهها هؤلاء الاخوان الشمريون هي أن كلمة اهل التوحيد لم تثير حماسهم كما تثير حماسهم (نخوتهم التي كان ينتخي بها شجعانهم

في عهد الجاهلية[1]) . ولذلك عادوا الى نخوتهم القديمة التي يقال لهـــا (الدعوج) فما أن سمعوا هذه الكلمة حتى بدأت روح الحماس والشجاعة تـــدب فيهم من جديد .

هذا وقد ختم الشاعر قصيدته بالبيت السابع عشر الذى استنجد به بالفارسين ، فهاد بن مصطح وبايق بن ثمان . وكلاهما من رؤساء عشيرة سنجاره — وقد قتل الاول في آخر المعركة التي وقعت بين ابن رشيد وابن شعلان .

وقد ختم العوني قصيدته بالمعنى الذى جاء بعجز هذا البيت بقوله :

" انسخ شمان شرهم وشتّابه " أى انه شمل الشمان هـــم والشيوخ من رجال هذه القبيلة — وكما سبق أن قلت انه اصبح لقصيدته هذه اكـــبر الاثر في تهييج رؤساء قبيلة شمر الذين جاؤوا من كل فج عميق . ومن ثم ربـــح ابن رشيد المعركة في نهاية الأمر .

---

(١) سبق ان ذكرت بان هؤلاء المتدينين كانوا يسمون العهد الذى مضى قبل أن يعتنقوا هذه العقيدة بسمونه بالعهد الجاهلي .

سجاره السالف ذكرها — وقد ختم العوني قصيدته بالمعنى الذى جاء بعجز هذا البيت بقوله :

« افتح شهان شمر حسم وشبابه » ، أى انه شمل الشهان والشيوخ من رجال هذه القبيلة وكما سبق أن قلت بأنه صار لقصيدته هذه اكبر الاثر في تهييج رؤساء قبيلة شمر الذين جاؤوا من كل فج عميق ، وربحوا المعركة في نهاية الامر .

هذا وقد كان للعوني قصائد أخرى في تلك الحادثة ، وانما قدمنا هذه القصيدة لحلسي فيها لانها ذات مدلول ايجابي بالنسبة للقصائد الاخرى الثلاث التي منها قصيدتان حربيتان ، والعادة المألوفة تشير بأن القصيدة الحربية تكون بيوتها محدودة — وأما قصيدته الثالثة الرائية فانها طويلة ، ولا يسعنا سردها بكاملها ، وانما أكتفي بذكر ما فيها شاهد تاريخي كمرجع نستند اليه في اثبات هذه الحادثة التي نحن بصدد ذكرها .

ولسوف آتي بتلك القصيدة الطويلة بعد ما أورد القصيدتين الحربيتين اللتين جاءت أولاهما كما يلي :

١ — ياندبي سر على كور[1] قطعية
حرة من ساس ذرواة مفرود

٢ — ماحلى زوله بدو خلاوية
كأنها الربدا من الدحو مطرود

٣ — أركبه ياصاح ياطيب النية
والضحى هذاك بالحزل[2] منشود

---

١) الكور هو الشداد ،
٢) الحزل احدى المواقع التي تقطنها قبيلة شمر .

٤ — لازم تأتوك ظلما[1] شفاويه
يسألونك والخبر عند ما جوه

٥ — قل جرى يوم عبوس سنك فيه
زلزل الضلمان[2] والقاع برفرود ٥

٦ — بدننا كن الموازر ضحى الهيه
ضوح برق الصيف والهند مجرود ٥

٧ — والجنابز مثل جدع الخدريه[3]
قبل شرب الماء على جال مارود ٥

٨ — والدما تجرى على الارض سيليه
تشبع السرحان والطير وجنود ٥

٩ — ستة فوش الشعالين قحريه
مع رويل كنها الغيد مرجود ٥

١٠ — يوم قام سعود ينحى الفداويه
زادت الغلمان والفز بسعود ٥

١١ — سلبوا صبيا حايل قصاويه
وردوا ورد على الضد وكود ٥

---

(١) سبق أن قلنا ان اسم قالها خاصيا بقبيلة شمر .

(٢) الضلمان اى الجبال .

(٣) الخدريه اسم لنوع من النخل .

١٢ — لين بلوا كل نفس شـــفاويـــه

اشهد ان الطيب هم راس مالـــوده

١٣ — شيخنا زين الواثبه ضحى الهيـــه

في نهار يصبغ الشيب مالـــــوده

الشـــرح :

كعادة المعني يبتدئ قصيدته بانتدابه رسولا راكبا ذلولا سريعة الجرى يبلغ رسالته الى من يريـــد .

١ — وها هو يقول اذ هب أيها الرسول الراكب فوق راحلة سريعة العدى من سلالـــة ذرواه[1] .

٢ — ما أجملها عندما تنطلق تعب الفيافي الخالية من البشر كأنها نعامة .

٣ — اركبهـــا أيها الرسول السليم الطويه ، وفي الضحى سوف تصل الى الحـزل وسوف تجد من يسألك عما جرى .

٤ — لابد أن يأتيك رجال من قبيلة شمر يستفسرون منك عن أخبارنا يحدوهم الشوق والرغبة الاكيـــدة .

٥ — اخبرهم بأنه وقعت بيننا وبين العدو معركة عنيفة حجب ظلالها الشمس ، وزلزلـــت الجبال والارض من هولها .

٦ — وكانت أفواه (الموازر) أى البنادق بيننا وبين خصمنا في ساعة المعركة تضئ فـــي

---

(١) ذراوة اسم خاص بنجائب ابن رشيد .

برقها مشتعلة أشبه ما تكون بشعاع البرق في آخر الصيف ؛ وقد انتضيت السيوف من أغمدتها بين الجانبين .

٧ — وكانت الجنائز تتساقط هنا وهناك كما يتساقط التمر من النخل في حالة نضوجه .

٨ — ودماء القتلى تجرى على الارض كالسيل الهادر ، الى أن شبعت الوحوش والطير من لحوم القتلى .

٩ — وقتل من أسرة آل شملان ستة من فتيانهم الفرسان المواصل ، وأما القتلى من قبيلة الرولة فقد تراكمت جثثهم حتى أصبحت اشلاؤهم كالجبل .

١٠ — كان ذلك حينما قام (سعود) يحثني الامير ، ينخى الفتيان الفدائيين من بني قومنا عندئذ ازداد الفتيان هياجا وعزا مستمدا من أميرهم .

١١ — ففي تلك الساعة هجم فتيان (حائل) على العدو هجوما ما أخطره من هجوم .

١٢ — حتى انهم في هجومهم هذا غسلوا مافي نفس كل فرد من حقد سابق على العدو ولا ريب عندى أن هؤلاء الفتيان هم منبع الشجاعة الموروثة .

١٣ — كما أن قائدنا كان من القادة الشجعان الذين يحمون مؤخرة قومهم في اليوم الذى تبلغ فيه المعركة عنفا يشيب من هوله الرضيع .

انتهت القصيدة الاولى

واليك قصيدته الحربية الثانية :

١ — مزنة هل الغضب من جوانبهـــا ... قادها المولى على رأس عدوانـــه

٢ — أمطرت بالموت والموت صايبهـــا ... وانزوج سوء البلا قبل دخانـــه

٣ — الفخر والمدح للي بجانبهـــا ... يوم حل البين والنفس بلشانـــه

٤ — طاش من كفه ضحى الكون خضبها يوم غطوا (اللأش)[1] به طارت أذهانه

٥ — امدحوا صبيان حائل صلابهـا وردوا بايمانهم كل عطشانـه

٦ — يوم قام (سعود) بالصوت ينديهـا وردوا حوض المنايا على شانـه

٧ — خلوا الشعلان تطرخ ذوابهـا عند فرس الجوف تروح بهسانـه

٨ — ذيب بالليل بالخلاء لا تجنبهـا من هل (العليا)[2] تراهم بجدرانـه

الشـــرح :

١ — يصف الشاعر رصاص المعركة بالسحابة المطر المنهمر — ويقول : ان البارود صب جام غضبه على أعدائه — يقصد العوني خصومه .

٢ — كان الموت نازلا بجانب تلك السحابة التي اندلعت نيرانها المحرقة قبل أن يرى دخانها .

٣ — يستحق الثناء العاطر الفتيان الشجعان الذين استمروا في شجاعتهم بدون أن تنثني عزائمهم ، على الرغم من أن المعركة كانت ذات هول شديد من شأنه أن يجعل الانسان يحتار في مصيره .

٤ — الافلحي كالشجاع رابط الجأش ، في اللحظات العصيبة التي فقد بها الجبان رشده .

٥ — يستحق الثناء — فتيان (حائل) الصلبين الذين اشهروا أنصلة سيوفهم الظمآنة من رقاب الاعداء .

---

(١) اللاش — يعني الجبان أو النذل .

(٢) هل العليا — يقصد قبيلة ابن شعلان الرولة لانهم يكنون بهذه الكنية ويفتخرون بها في الحروب .

٦ — كان ذلك عندما قام قائدهم (سعود)[1] ينحني رجاله عندئذ هجموا هجوم من يستهتر بالحياة تجاوبا مع نخوة قائدهم .

٧ — فكانت نتيجة هجومهم هذا هو أن تركوا أشلاء آل شعلان مبعثرة تحت مشاتيل نخل الجوف .

٨ — أيتها الذئاب الجائعة التي تقتن في الفيافي طيكن أن تذهبن الى لحوم هؤلاء القتلى من العدو فسوف تجدن أهل العليا تحت تلك الجدران .

هذه القصيدة الثالثة الحربية التي أنشدها العوني أما القصيدة الرائية المطولة والبالغة مايزيد عن تسعين بيتا . فاني لاأرى مايوجب ذكرها كاملة ، وانما رأيت من الافضل أن أختصر الموضوع على الابيات ذات الشواهد التاريخية ، وهاهي القصيدة .

١ — الاعار سفن والليالي بحار — بالاقدار تجرى والغياب فزار

٢ — الى هب له ولم سارت سريعة — صبور مرجع العمار دمار

٣ — نويت أنا بعد التكالي على الولي — أعد ما شاف النظير وصار

٤ — وقول للركب العقيلي ترحلوا — على اكوار وسعت النحور جزار

٥ — اركبتهن من نقرة (الجوف) أوشطن — كما زول ربدن صابهن ذبار

٦ — بعد خمس ليلات يلفن قبيله — لهم بالثنا علم بعيد اذكار

٧ — يلفن (النواف بن شعلان) شيخهم — تردون له هرج بعد جهار

٨ — تقولون مازين المخيف من السردى — ترى النصح بشرى والصحيح قرار

---

1) يقصد سعود بن رشيد .

٩ — نقولك مالهو مشعل مقابـــل ... الا من يكتب عليه : دمـــــار

١٠ — ونخبرك عن ماضي الليالي بفعلنا ... أوقبل شفتنا بالناظرين صغـــار

١١ — جيت بالحوازم والشرارة خلطهم ... وابو تايه برتـــع بغير هجـــار

١٢ — اما أهل — العليا — فنعم القبيلة ... لا شك ماهد الجبال جـــدار

١٣ — تكابرتم منزلكم علينا وغركـــم ... تحسبونا حضر عماه حظـــار

---

١٤ — جتنا منادیب من الجوف قولهم ... ماعاد بالجوبه يسوح اوســـار

١٥ — اوجينا ثلاثماية ذلول نحثهن ... نسهي نعـ ـيـ ماهل ويســـار

١٦ — لما وردنا الحزل جتنا ركايب ... يقولون كل اللي يقال بـــوار

١٧ — يقولون بن شملان بالجوفنازل ... ومن هولكم قبل صديق بـــار

١٨ — وابن موهشير تبين بفعلـــه ... وقامت عليه الدبرتين وحـــار

١٩ — ويشلرنا برد الراس والحاق قوه ... تودع بواليد الحديد كســـار

٢٠ — ويذخاك يازين الرفيق ود ونـــه ... نار يشطر من حماها نـــار

٢١ — وشلغ (طير شلوى)(١) ماتسمع لقولنا ... يقول مايقرى الرفيق عـــذار

٢٢ — وعيب على مثلي الى هد ينشني ... الى شاف نيران الحروب كمـــار

٢٣ — ووثب مثل فوارس سقط وسط غبه ... يشق البحر لوكان موجه فـــار

٢٤ — وكثر اهل الخونات مع كثر قومهم ... وشفتوا بنا بالطيبين عـــوار

---

(١) طير شلوى الصقر — وشلوى يقال انها جبل من جبال فارس فيها وكور للصقور ، والشعراء دائما يمدحون الشجاع بطير شلوى .

٢٥ — وزود طعمكم قلنا قبل فعلتنا ... وعنا الى فك اللزوم كتار

٢٦ — وجيتوا جموع مايلين تبونا ... وهاتكم قبل الزحام قتار

٢٧ — من قبل ما اوجبوا فلامين قومنا ... تنادى بحس للحريب ذهار

٢٨ — ورد و مشافيق على الموت كنهم ... ورد يريد الماء من بعد حصار

٢٩ — تلخضو تنا خوصبيان الجبل خزن شيخهم ... الى ما احتكم مر الزمان وجار

٣٠ — لما صدرتم تدالهون بيوتكم ... والموت بالطرافكم يغم خيار

٣١ — وشفترا وعتم رأيكم قبل ما جرى ... تقولون ناخذ هم بطول مدار

٣٢ — ما ودهو أن اللي يدبرون بعامهم ... يدبره ابو مشدل يشرب بهمريار

٣٣ — ارسل لشمرنا در من مجاذبه ... ابنه الى قام الخصيم بشار

٣٤ — من حين جاءهم صاح صوت يحثهم ... وبكى عبرة منها جرت عبار

٣٥ — والله لولاهم فلا يذكر الوفاء ... ولا للحمية بالبلاد مدار

٣٦ — ويشهد لقولي يوم جاء ندب شيخهم ... وهم قبل غضبانين عليه جهار

٣٧ — مشوا من شط الفرات عصايب ... ميعادهم نار الحريب نهار

٣٨ — تلاقوا على الحزل القديم وقبلوا ... على اكوار جمل يجنن امهار

٣٩ — على خشم " سكاكا " باللقايط تنابلوا ... الى ماركب خشم الطعوس غبار

٤٠ — يرعد ويبرق والغضب في جوانبه ... خم " ابو سلطان " سناه ونار

٤٢/٧

الشرح :

أعتقد أن هذه القصيدة واضحة المعاني الى حد ما بالنسبة للقصائد الاخرى ، فهو يقول في شرح البيت الاول والذى يليه ان الانسان يسير في هذا الكون كالسفينة ، وهذه

الدنيا اشبه ما تكون في لجة البحر الصاخب . ومهما كانت السفينة سريعة في سيرها ، فسان مآلها في نهاية الامر الى الفناء .

ثم بعد ذلك ينتقل الى البيت الثالث ويقول[1] :

٣ — لقد عقدت العزيمة على أن أتحدث عن معركة الجوف بالامر الواقع الذى كنت به شاهد عيان .

٤ — لقد انتدبت رسلا امتطوا رواحل نسيجات الصدور عربيات الاصل .

٥ — (٢) بعثت هؤلاء الرسل من أرض الجوف — فوق هذه النجائب التي تشبه النعام بسرعة جريهـــا .

٦ — وبعد خمسة أيام سوف يصل أصحاب هذه النجائب الى القبيلة التي لرجالها مجـــد تاريخ تريق ذائع الصيت . يقصد الشاعر بذلك قبيلة (الرولة) التابعة للشيخ نـــواف ابن شعلان . ولقد سبق ان ذكرت بأن العوني دائما يجب ان يرفع من شأن العـــدو ويعظم جلالة قدره وينسب عنه بأنه يعتب على الشاعر الذى يحط من قدر عدوه — ويعلل ذلك قائلا اذا نلت من قيمة عدوك بعد انتصارك عليه . فهذا يعني انك لم تنتصر على قوم أولي شأن عظيم يستحق المنتصر ان يفخر بانتصاره عليهم — ومن أوضح الادلة على ذلك هو مانجد العوني مضى بثنائه وتمجيده للشيخ نواف الشعلان[2] بالابيات الآتية :

٧ — فيقول : اقصدوا ايها الرسل الشيخ نواف بن شعلان . وحدثوه بكل صراحة .

---

(١) بين البيت الثالث والثاني ثلاثة بيوت اهملتهن اختصارا للشرح .

(٢) قفزت خمسة بيوت للاختصار .

(٣) علما بان الشيخ نواف واسرته وقبيلته يستحقون الثناء .

٨ — وقولا له يا أيها الشجاع الحامي لجواره والمنيع الجانب، لاى شخص يلوذ بحماه خائفا من يهدده بالموت . قولوا له انني الناصح الامين لك . والنصيحة تشترى بالمال فيما اذا كان صاحبها صادقا . واذا كانت الادلة كلها تقر وتثبت مايدلي به من النصح .

٩ — اكرر قولي ناصحا بأن من يعرض نفسه لمنازلة ابي مشعل[1] فهذا يعني انه كتب عليه الدمـــار .

١٠ — واني عندما أكدت ذلك ، فان التاريخ الماضي القريب يثبت لك صحة ما أشير اليه من حيث افعالنا البطولية — علما بأنك في بداية الامر نظرت الينا نظرة استهجان .

١١ — وقد جندت لمحاربتنا الحوازم[2] والشرارات ومن دار بفلكهما كما جندت ابا تايه الذى جاء هو الآخر يجرى بجانبك بلا عقل وبدون قيد .

١٢ — اما قبيلتك اهل العليا (يعني الرولة) فانهم بها من قبيله — ولكنها لاتقاس بنا الا اذا كان الجدار يقاس قوته بالجبل .

١٢ — لقد نظرتم الى كثرة جنودكم وبلغ بكم الغرور درجة ظننتم اننا منغمسين بالحضارة مائعين لاتستطيع لقاكم بصفتكم بدوا خشنين .

١٣ — (٣) من هنا دخل الشاعر في صميم الموضوع موضحا اسباب هذه الغزوة ومبرراتها . فيقول لقد جاءتنا رسل تقول ان الجوف لم يكن به أية قوة .

---

(١) ابو مشعل يعني سعود الرشيد .

(٢) الحوازم والشرارات قبيلتين من القبائل التي لايعترف العرب باصالة نسبتهما . وقد كان امير الحوازم شخص يدعى — اديهم — واامير الشرارات — الكاسب — واما ابو تايه فهو امير الصويطات .

(٣) — بين البيت الثاني عشر والثالث عشر بيت اجتزته اختصارا .

١٤ — ولذلك جئنا بقوم قليلين كان عددهم ثلاثمائة هجان . ولم يكن لنا قصد الا أن نكون واسطة خير .

١٥ — ولكننا عندما وصلنا الحزل[1] جاءنا اصحاب ركائب آخرون يقولون — ان كل ما يقال لكم انه لم يكن بالجوف قوة ضدكم فانما هو حديث لا صحة له .

١٦ — ويؤكد هؤلاء ان الشيخ نواف الشعلان جاء بقوته واستحكم بالجوف . وكل من كان صديقا لكم بالامس من اهل الجوف فانه تنكر لكم .

١٧ — اللهم الا رجاء بن مويشير . فانه اعلن موقفه بعمله الذى قام به في قتلته للمشورب نائب ابن شعلان . وهو الآن حيران لا يعرف له مخرجا لانه مطوق من جميع البلدتين اللتين قام اهلهما ضده — وهاتان البلدتان هما " الجوف وقارا " وبعض من اهالي سكاكا .

١٨ — ولم يكن لدى ابن مويشير من الامل الا انه يستنجد بنخوة ابن رشيد ويهيب بمروءته فهو — اى سعود الرشيد — مناط أمل الملتجي " وسند الرفيق وحتى لو كان هذا الملتمس " دونه ودون نجدته نار مشتعلة .

١٩ — عندما بلغنا جراجة الموقف — تبادلنا الرأى نحن قوم الرشيد وابدينا رأيا بشير أن لا نغامر بانفسنا من اجل ابن مويشير — وان نتدبر الامر ونتأنى حتى نجمع لنا قوة تقل الحديد لنقابل بها قوة العدو .

٢٠ — ولكن (طير شلوى) يقصد الامير سعود الرشيد لم يستمع لاقوالنا . بل مضى في سبيله مغامرا وأجابنا قائلا : ان المستنجد والمستجير بالعرف العربي لا يقبل اى عذر دون نجدته .

---

(١) هو الموقع الذى كما ذكرته بانه يقع بين الجوف وحائل . اى شمالا للغرب عن حائل .

الحزل

٢١ — ويؤكد اميرنا قائلا : أليس من العار على فتى من امثالي يتراجع القهقرى من همته ، ويتقلب على عقبه منهزما بعد ما وثب مقدما لمجرد ما يرى ان نار الحرب مشتعلة على نطاق واسع رهيب .

٢٢ — فمضى اميرنا مصرا على الاقدام ووثب مقتحما وطيس الوغى وثوبا يشبه وثوب السباح المغامر المعتاد على اقتناص المجوهرات في لجة اليم عندما يغامر ويسقط في قلب البحر الهائج المتلاطم الامواج .

٢٣ — وقد ازداد طمعكم بنا ايها الاعداء الطيبين وذلك لسببين الاول ان الخيانة كثرت من بعض أهل الجوف يعني نفر يقال لهم المظر(١) الامر الثاني كثرة عددكم .

٢٤ — وما زاد طمعكم بنا هو قلة عددنا هذا هو الذي جعلكم تزدادون طمعا بالاستيلاء علينا ولا سيما قبل ان تروا افعالنا وقد غاب عن بالكم اننا وان كنا قلة ولكننا عند الازمات والشدائد نكون كثيرين .

٢٥ — وهكذا جئتم بجموعكم هاجمين علينا . وكانت همتكم كهمة المغامر وذلك قبل ان يحسي الوطيس بيننا وبينكم .

---

(١) وهم جماعة من اهل الجوف انقلبوا على ابن رشيد بعد ما كانوا بجانبه في اول الامر ، وانخلوا من جانبهم رجالا لابن شعلان طوقوا قوة لابن رشيد وعندئذ ازداد الامر تأزما على ابن رشيد لولا أن رجاله قاموا بمغامرة انتحارية . فثقوا بها الحصار عن انفسهم وقتلوا عددا كبيرا من الذين نكثوا العهد وعلى رأسهم كبيرهم .

٢٦ — ومن قبل أن تسمعوا لخوات فتيان قومنا عندما يتناخون بصوت يخلع قلب العدو ،،

٢٧ — وعندما هجم هؤلاء الفتية مستهترين بالموت فكانهم بهجومهم اشبه مايكونون بالابطال الظمآنة عندما تهجم على الماء بنهم واشتياق .

٢٨ —

٢٨ — لقد تناخوا فتيان الجبل[1] ، رصيد اميرهم في المناسبات الحرجة .

٢٩ — وعندما رأيتم ايها الخصوم شجاعة رجالنا عندئذ تركتم القتال ذاهبين الى بيوتكم ، وكان الموت في مؤخرة قومكم ينتقي خيرة رجالكم .

٣٠ — وقد رأيتم الموقف الذى بدل رأيكم الأسمق قبل أن تقع الحرب وتدور المعارك بيننا . وتراجعتم عن رأيكم الذى كنتم تقولون بانكم سوف تستولون علينا على طول المدى .

٣١ — اما تعلمون ان الرأى الذى تفكرون به وتبرمونه بصفة كاملة — بنقضه — ابو مشعل — اميرنا بلحظة لا تزيد عن شرب فنجان قهوة .

٣٢ — ألا تعلمون ان اميرنا بعث الى قبيلة شمر (نادرا)[2] وهو ابنه الذى يثأر له عندما يعتدى عليه الاعداء يقصد ابن عم الامير سعود عبدالله[3] ابن طلال فهذا الشاب هو الذى انتدبه الامير ليستنجد بقبيلة شمر كما مر بنا .

٣٣ — في الحين الذى جاء اليهم مستنجدا بكوا من شدة الحماس .

٣٤ — يقول العوني : انه يقسم برجال قبيلة شمر رمز للوفاء وللتكاتف والحمية .

---

(١) يقصد جبلى طى سلمى واجاء .

(٢) النادر هو فرخ الصقر البكر .

(٣) وعبد الله هذا هو الذى اغتال الامير سعود بعد عودته من غزوة الجوف بشهر فقط . كما سيأتي ذكر ذلك .

٣٥ — والدليل القاطع على صحة قسمه هذا هو أنه حالما بلغهم استنجاد اميرهم وطلبه منهم يد العون ، لبوا طلبه فورا على الرغم من أنهم كانوا ساخطين على أميرهم بصورة علانية . ولكنهم نسوا سخطهم السابق .

٣٦ — وقد جاؤوا من أطراف نهر الفرات وعينوا مكانا يلتقون به . وكان موضوع اللقاء المعركة الفاصلة التي يشنونها على العدو .

٣٧ — فكان الاجتماع الاول في " الحزل " .

٣٨ — ثم كان اللقاء الثاني — في أطراف سكاكا — وفي " اللقايط "[1] ، وهناك وقعت المعركة وحمي الوطيس وكان غبار المعركة قد خيّم على تلك التلول الرملية .

٣٩ — انها المعركة الطاحنة العنيفة — لها دوى كدوى الرعد — وأصوات كأصوات الصواعق ولقّبت هذه المعركة (أبا سلطان[2] بعجلتها .

+ + +

انتهى ما اخترته من قصيدة العوني التي أنشدها بعد انتصار ابن رشيد على ابن شعلان وهناك قصيدة حربية أنشدها الشاعر فهد الغويه جاءت كمايلي :

١ — ياندبني على حمر أردوم — حرة له ثلاث اسنين حائل

٢ — اركبه يوم بشر بالعلوم — بم شعر صناديد القبايل

٣ — قل جرت ساعة تجلى الهموم — تبرى الكبد من باقي الفلايل

---

(١) — اللقايط — قرية من قرى سكاكا .

(٢) — ابو سلطان يعني الشيخ نواف الشعلان .

٤ — جانا (نواف) وجموعه تـــــزوم مبروم خبيثين الدفايـــــــل

٥ — صاح — ابوشعلان الصبح الضـــروم صاح بالصوت ياصبيان حافـــــل

٦ — قالوا الروح ماهي باللـــــزوم سبلوا وركضوا صدق صايـــــل

٧ — والعصايا غدوا مثل الرجـــــوم خلّوا الدم وسط السوق سايـــل

٨ — وابن روضان الفتيان شـــــوم حيف ياشوق نقاض الجذايـــــل

٩ — حيف ماقحم راع القحـــــوم ماشن سابقه خلف الدبايـــــل

الشـــــرح :

١ — اذهب أيها الرسول الراكب على قلوص حمراء — مكتنزة اللحم منذ ثلاث سنوات لم يدن منها الفحل .

٢ — اركب هذه الذلول وزف البشرى الى (قبيلة شمر) الصناديد .

٣ — واخبرهم بأنه وقعت معركة أزاحت كل مافي النفس من غـلّ .

٤ — جاء الينا نواف الشعلان هاجما بجمعه العرمرم ، وكان هجومه هذا بواســـطة الخبثاء[1] السيئي النية الذين فتحوا له نافذة دلوقتنا بواسطتها .

٥ — ففي تلك اللحظة الحرجة صاح (ابوشعلان) اميرنا الصبح الصارم القوي المراس ، صاح بعالي صوته ناخيا فتيان حامل .

---

(١) يشير الشاعر الغويه الى نكث العهد الذى قام به الجماعة الذين يقال لهم (المطـــر) برئاسة (ضافي الدندشي) وهؤلاء الناكثو العهد سبق ان اشار اليهم الشاعر العونـــي في البيت الثالث والعشرين من قصيدته الرائية ، كما سبق أن ذكرت شرح ذلك البيت ان رجال ابن رشيد قاموا بمغامرة انتحارية كسروا بها طوق الحصار وهزموا جنود ابن شعـــلان وقتلوا كثيرا من جماعة المطر بمافيهم رئيسهم (ضافي) .

٦ — فاستجاب أولئك الفتيان لنخوته وقالوا ليس للحياة عندنا قيمة بعد ذلك ، فهجموا على قوة العدو هجوم القوم الصادق في العزيمة .

٧ — فكان من أثر هجومهم هذا أن صيّروا القتلى من فتيان العدو كالحجارة مرصوصة فوق جبل عال ، وكانت دماؤهم تجرى في وسط الشارع كالسيل .

٨ — وكان من أبرز القتلى في تلك المعركة من رجال العدو الغشيان بن روضان[1] ، ويا أسفاه على ذلك الفتى الوسيم — يقصد الغشيان — ويقال انه فتى جميل بهي الطلعة ويؤكد أكثر من واحد من الرواة — ان فتاة من فتيات بلدة سكاكا عندما رأت الغشيان مجدلا ظلّت تنحب باكية وتندد بالويل والثبور بجانب جثمانه . ويقال انه عندما رآها أحد رجال[2] ابن رشيد بهذه الحالة نهرها قائلا : سوف لا يموت الفتيان البواسل الجميلين بموت الغشيان . . الخ وهذا ما عناه الغويه عندما قال (حيف ياشوق نقاض الجدايل) أى وا أسفاه على مقتل هذا الفتى الوسيم الذى يعشقه الفتيات ناقضات الشعر الطويل .

٩ — وا أسفاه — أيضا على الفارس مقحم صاحب الجواد الجربه الصلبه — كيف ينهزم — بدون أن يقاتل خلف رفاقه لكي يحمي مؤخرة قومه والشاعر يعني بذلك الشيخ مقحم بن شعلان — المتوفى سنة ١٣٧٧ هـ . وكان مقحم هذا هو رئيس السرية التي جاء بها جماعة المطير —

---

(١) هو من أسرة آل شعلان — البعيد بن عن رئاسة القبيلة .

(٢) هو عثمان المشارى المعروف بشجاعته وإبائه . وقد قتل في معركة النصيه الواقعة بين ابن سعود وابن رشيد وذلك بعد معركة الجوف بسنتين .

وقد نجا بنفسه وسلم من تلك المجزرة التي شملت كل فتى من فتيان ابن شعـــلان الهواسل الذين حاولوا أن يقاوموا هجوم جماعة ابن رشيد بالثبات والجلد ، فدفعوا حياتهم ثمنا لبطولتهم وثباتهم - فالشاعر الغويه يلوم الشيخ نقعم الذى لم يشهد ثبات أولئك الفتيان الشجعان الذين لقوا مصيرهم المحتوم . وهكذا انتهت تلك الحـــرب الطاحنة بين الرشيد وآل شعلان والتي كان سببها ظلم والي الشعلان انتهت بانتصـــار ابن رشيد ، الا أن ذلك الانتصار كان ولا شك آخر انتصار حققه ابن رشيد ، وذلك الـــذي بعد مضي سنتين من تلك الحرب ، انتهت امارة آل رشيد .

* عبد العزيز اشرف من أن يكون انتهازيا أو غاديا بالحرب من أجل الحرب *

لو أن الامام عبد العزيز من نوع بعض الحكام الانتهازيين الذين متى ما أتيحت لهم الفرصة بالعدو أجهزوا عليه بدون أن يرعوا ذمة للعهد متذرعين بالسياسة الميكيافيليـــة القائل فيلسوفها - الغاية تبرر الوسيلة ، وما أكثر الحكام الانتهازيون الذين من هـــذا النمـــط .

أو لو أن عبد العزيز يهوى بطبيعته الحرب من أجل الحرب كشأن بعض الحكام الذين لا يطيب لهم العيش الا بالحروب والتوسع . ولو كانت الحرب لا تتم الا بعد ازهاق أرواح الآلاف من المواطنين الابرياء .

أجل لو أن عبد العزيز من هذا النوع لكان باستطاعته أن ينتهز مناسبة تخولـــه أن يحتل حائلا عاصمة أمارة آل رشيد - ويسيطر عليها بكل سهولة - وذلك في الوقت الـــذي

كان فيه سعود بن رشيد محاصرا في الجوف ومطوقا من قبل الشيخ نواف بن شعـــــلان - أما كان باستطاعة عبد العزيز بأن يبعث لابن شعلان رسولا يؤكد له بأن يشد طوق الحصار على ابن رشيد في الجوف الذى كان فيه الامير سعود مطوقا أوقسم من نفس اهل الجوف خانوا ابن رشيد وأدخلوا ابن رشـــعلان .

والجدير بالذكر ان الامام عبد العزيز جاء اليه رجال من الانتهازيين وابدوا له رأيهم بأن يلتمس العذر الذى يبرر له نقض العهد الذى بينه وبين ابن رشيد وان ينتهز هـــذه الفرصة التي لايجود الزمان بمثلها . وان يغزو حائلا مادام أن اميرها وقوته الضاربة من أهالي حائل محاصرون في الجوف من قبل ابن شعلان - فكان جواب عبد العزيز مايلي :

أولا - ان بيني وبين ابن رشيد عهد الله وميثاقه ولايمكن أن أنقض هذا العهد الا بعـــذر يقبله العقل والدين والخلق وتطمئن اليه نفسي .

ثانيا - حتى لولم يكن بيني وبين ابن رشيد عهد فان ديني وأخلاقي وشيمتي لاتقبل أن أغـزو بلدا لم يكن فيها الا الاطفال والنساء .. الخ .

"لوصول ابن رشيد بقوة الغلج لغزو الامـــــام"

بعد ان عاد الامير سعود بن رشيد من الجوف نشوانا بلذة النصر . ومعـــــتزا بمجدته لابن مويشير - بعد ذلك بمدة قصيرة فتاله ابن عمه الامير عبد الله بن طلال . وفي الوقت ذاته لقي القاتل مصير المقتول على يد أحد حراس الامير سعود " المدعو درعان " .

وكان للعوني يد طولى في تحريض القاتل على قتل أمير البلاد — كيف كان ذلك ؟ ولماذا يحرض العوني على قتل الامير الذى كان بالأمس القريب يكيل له القصائد الطافحة بالمدح والاطراء — ؟ ؟ الجواب على ذلك سيأتي موضحا في الفصل القادم .

+ + +

الفصل الحادى عشـــــر :

" لماذا حرّض العوني القاتل على قتل ابن عمـــــــــه ؟ "

ولنترك الحديث عن الخطة الحربية المحكمة الصارمة التي اتخذها الامام عبدالعزيـــز في القضاء على أمارة حائل ، لنتركها الآن ، لكي نعود اليها وذلك بعد أن نجيب عمن يقـول لماذا حرّض العوني القاتل ؟

الجواب على هذا السؤال متشعب . والآراء فيه متباينة ـ منها ماهو وان كان غاريـــا من الدليل فان أمانة النقل تستوجب علينا أن لا نغفله ، ومنها مايستند الى أكثر من دليـــل ـ فالجواب الاول يقول أصحابه :" ان العوني وان بدا منه مؤخرا مايدل على انه تقاقم في حائل . وذهب ينشد القصائد التي تعبر عن أنه تجرد عن ضغائنه السابقة وأحقاده المزمنة ضد أســـرة آل رشيد ، فان ذلك المظهر من قبيل التقيـه والتمويه ليس الاّ ـ أما رواسب جذور الكـــره لآل رشيد المتأصلة بدمه ولحمه . فانها راسخة في نفسه كرسوخ روحه في جسده ، ويســـتدل أصحاب هذا الرأى بدليل وان كنت لم أروه من مصادر موثوقة ـ كما لاأستطيع أن أؤمن بصحتـه لضحالته . ولكن لايسعني الا أن أورده مادمت أحاول أن اكتب التاريخ للتاريخ بكل صـــدق وتجرد ـ يقول أصحاب هذا الرأى أن العوني قال للامام عبدالعزيز عندما التقى به بعد فتـوح حائل : ان لي عليك ياعبد العزيز فضلا كبيرا . وذلك انني أشعلت نار الفتنة بين آل رشـــيد حتى جعلتهم يتقاتلون فيما بينهم .... الخ .

والذين يعتقدون أن هذا الرأى وهذا القول عاريان من الصحة ـ يفندونه بالأدلـــــة الآتيـــة :

أولا : انه لوكان هذا القول صحيحا لكنا وجدنا دليلا يثبت أن للعوني مع الامام عبد العزيز يد سرية تعمل بالخفاء من وراء الامير ابن رشيد — كما كان يفعل عدد كانوا من نفس أهل بلاد الامير ومن الذين في ذمتهم عهدا للأمير . ومع ذلك خانوا ذلك العهد وراحوا يكاتبون الامام سرا — وظلت خيانتهم مستترة ومتوارية عن الاعين الى أن كشفها التاريخ ذلك الشيخ القاسي الذى لا يرحم كشفها التاريخ وذلك بعد أن سقطت أمارة آل رشيد .

ثانيا : لوكان الامر صحيحا — لكنا وجدنا العوني من دعاة الصلح والاستسلام . وذلك عندما حاصر الامام حائل — وماكنا نجده في آرائه وفي أشعاره الحماسية من أشد المحرضين على المقاومة . واثارة الحماس في نفوس المحاربين — بل كان هو المحرض الوحيد في حائل والمشعل لجذوة النخوة والاباء في أعماق المقاتلين . وهل تريد دليلا أوضح من ذلك الدليل الذى أنقله عن الشيخ عبد العزيز ابن زيد على الوجه الآتي :

يقول ابن زيد عندما وقعت معركة الصفيح — وتلتها معركة النصيه[1] انهارت معنوية المحاربين من رجالنا على اعتبار أن هاتين المعركتين قتل فيهما نخبة الافذاذ المواسل من شجعان فتياننا الابطال الذين لا يوجد في البلاد من يملأ فراغهم قطعا — ويمضي ابن زيد قائلا انه لو أن الامام عبد العزيز واصل المعركة واستمر فيها الى أن وصل مدينة حائل لكان بامكانه ان يفتح البلاد بدون أن يجد مقاتلا منا لديه القدرة على الدفاع لان معنوية المقاتلين انهارت انهيارا فظيعا —

(١) الصفيح والنصيه الاولى ارض صحراء والثانية قرية صغيرة وكلاهما محاذيان لحائل من الناحية الشمالية لا يتجاوزان عشرين كيلومترا .

ولكن ما ان تجمعتغلولنا وعرض ماتبقى من المقاتلين العرضة الحربية — وجاء العوني حاسرا رأسه ومنتضيا سيفه ومن ثم أنشد تلك القصيدة الحربية ، حتى انبعثت الشجاعة في نفوس مقاتلينا فكأنه لم يقتل من رجالنا شخصا واحدا — ويؤيد رواية ابن زيد هذه الرواية التي نقلها عن " ذعار النافع " يقول ذعار — جاء العوني بعد معركتي النصيه والصفيح منتضيا سيفه حاسرا رأسه متناثرا شعر شواربه — جاء يحمل قصيدة ملقيا لها على صفوف الرجال الذين في العرضه — فذهب ولحنها عند صفوف اهل البده " ودق أهل لبده " الطبل " ولكن العوني لم يسر أن دقتهم للطبل منسجمة مع تلحين القصيدة فترك اهل لبده — وذهب الى صفوف اهل مفيضه — فلم يجد عندهم مايطمئن اليه — فجاء الينا نحن جماعة برزان — أومايقال لهم — الميرف الوسطي بيرق الفريخ — ويقول ذعار انني كنت واخي مناحي اللذين نتولى دقة الطبل — فما ان لحن العوني قصيدته الحربية الحماسية وضربت واخي الطبل ضربة منسجمة مع تلحينه للقصيدة حتى قام العوني يضرب رأسه بعرض السيف ويقول مأخوذا بنشوة الحماس " أبوى أبوى يكررها عدة مرات اى فديتك بابي " . ويمضي الراوى بقوله : ما ان استمرت عرضة رجالنا المقاتلين الذين كان العوني الجهاز المطيب لحماسهم — حتى شعرنا بنشوة اعتزاز وزهو كأننا منتصرون لا محاصرون .

فهل ياترى الرجل الذى لديه هذه النفس الجبارة المتمردة أيمكن أن يقبل العقل بصحة مايقوله القائلون عنه — واعني بذلك الرواية التي تعني بأن العوني قال للامام عبد العزيز بعد سقوط حائل ان لي فضلا عليك . . . الخ .

أما كان من العوني أن يصمت على الاقل عند نشيد الحماسه الذى يثير بـــه حماس المقاتلين . بل ويحرضهم على الاستمرار بقتالهم ضد الامام ـ لماذا لا يصمت كما كان صامتا ابان معركة جراب وقبلها وبعدها بعدة سنوات أى قبل أن يتأقلم ؟؟ بل لماذا لا يكاتب الامام عبد العزيز عندما شدد حصاره على أسوار مدينة حائـــل كما كاتبه ابراهيم السام السبهان الذى هو من أبرز أسرة بحائل بعد آل لرشيد ـ واذا قال قائل ان العوني أقل منزلة في حائل من ابن سبهان وانه لو كاتب الامـــام فانه لا يقبل منه . . الخ ؟؟ قلنا ان الامام في حالة حرب وقد فرضت عليه ظروف الحرب ان يقبل مكاتبة " الخائن المولى راشد " .

أجل كان على العوني أن يصمت أو يفعل ما فعله غيره ممن كاتبوا الامام ـ بـــدلا من أن يظل محرضا ومهيجا للمحاربين بالقصائد النارية التي مر بنا ذكرها . والـــتي كل بيت منها يقوم مقام جيا جحافلا من الجيوش المحاربه . نعم كان على العونـــي ألا يفعل ذلك فيما لو صحة الرواية القائلة ان رواسب عداوته لا زالت باقية ضد آل رشيد كان عليه أن لا يظل محاربا بجانب امير البلاد محمد الدلال ولم يتخل عنه قطعيـــا حتى الصباح الذى سلمت به البلاد ، ففي الجيش الذى ذهب أغلبية اهل البـــلاد يسلمون على الامام الفاتح الذى كان معسكرا تحت سفح جبل أجاء من الناحية الغربيـة لحائل في موقع قاب قوسين أو أدنى من المدينة ـ في تلك اللحظات الحرجة ظـــل العوني بجانب امير البلاد ـ الذى لم يبق عنده الا الافذاذ القلة من نخبة النخبـــة البواسل المخلصين الذين كانوا العوني في مقدمتهم .

ثالثا : لو كان العوني يضمر العداء لآل الرشيد ويعمل ضدهم بالخفاء خلاف ما يقوم به علانية — لو كان الرجل بهذه الصفة — لما كان له في نفس الامام أية أهمية تجعله يودعه في غياهب السجن حتى كف بصره ثم لقي حتفه كما سيأتي — واذا قال قائل ان الامام أراد أن يقضي عليه نهائيا قلنا — بامكان الامام أن يقتله أدبيا ومعنويا لان القتل الادبي والمعنوي على نفسية شخص كالعوني اشد وطأة من القتل المادي — وامني بقتل الامام المعنوي والادبي للعوني — هو أن يعلن الامام عن العوني بانه كان يخون آل رشيد — ويكاتبه سرا . وهو في ذمته للرشيد عهد . وفي عنقه لهم فضل ومنّه .

وصراحة من الامام عبد العزيز بهذه الصفه كافية أن تقتل العوني بدون صلاح ولن ولن تقوم له قائمة الى الابد .

واذا انتهينا من عرض رأي هؤلاء — طاب لنا أن نعود الى رأي أولئك الآخرين الذين يرون ان السبب الذي حفز العوني على تحريضه لعبد الله الطلال على قتله لابن عمه الامير سعود — أجل يرى أولئك ان السبب ناتج عن العوامل الآتية :

١ — يقول الآخرون — ان آل طلال عبد الله وشقيقه محمد كانوا مستضعفين — بل محتقرين من قبل امير البلاد ، أو بالأصح محتقرين من قبل المسؤولين عن ادارة شؤون الأمارة — عندما كان الامير طفلا وتنفذ الاوامر باسمه — وحتى عندما تجاوز الامير سن الطفوله — وبلغ سن الفتوه الذي قتل قبل أن يتجاوزه حتى بعد ذلك لم يقم بالاعمال التي تجعل أبناء عمه يشعرون بانه ساواهما

وأنصفهما انصافا أزاح مافي نفوسهما من الاحتقاد — وكل ماهنالك ان الامير الفتى سعى سعيا ظريفا في تحسين أحوال ابني عمه آل الطلال ، فمثلا جعل أبواب بيتهما يفتح على مصراعيه ، وجعل لهما حاشية وهذه الامور على ضآلتها كان آل طلال محرومين منها .

ومن يريد أن يكتب التاريخ لتلك الفترة بانصاف وتجرد — فانه لا يسعه الا أن يقول ان الامير سعود أو بالاحرى المحيطين به لم يوفقوا لهذا الاصال المجد به التي تزيح الضغينة والحسد من نفسي آل طلال على اعتبار أن لهما بالاماره الحق الشرعي نفسه الذى يتمتع به أمير البلاد وحاكمها .

فنتج عن هذه المعاملة المجحفه التي عومل بها آل طلال رحمة تجعل أى انسان لديه درهم من العاطفة الانسانية يرق قلبه لهما — ويكفي دليل واضح المعالم مؤيدا لصحة قولي — هو ان عثمان المشارى الذى بعث من قبل المسؤولين عن السلطة عندما كان الامير طفلا — وتنفذ الاوامر باسمه بعث عثمان الى آل طلال ليقفل ناديهما — بحجة المحذور منهما — من التجمع الذى يجعل لهما شعبية تهدد سلطة الامير — وماكان من عثمان عندما دخل منزلهما ووجده فارغا من مؤونه الغذاء كفراغ — فؤاد ام موسى — الا أن رق قلبه وبكى واستولت على مهجته عاطفة عارمة جعلت ذلك الشجاع الجبار الذى عرف بالمعارك والحرب انه البطل الفذ الذى لا ترف عيناه ولا تهتز له شعرة — جعلته عاطفته ان يسكب الدمع من مقلتيه جاهشا بالبكاء كالطفل[1] — اجل

(١) رويت قصة بكاء عثمان هذا من الشيخ الفقيه عبد الكريم الخياط الذى منزله مجاورا لمنزل آل طلال الجدار ملاصقا للجدار — رويتها عن الخياط في ١٣٩٢/١١/٢٧ و ١٩٧٣/١/٢٠ .

اذا كان عثمان الذى انتخبه المسؤولون وهم واثقون بأنه أعنف وأبطش وأشجع من يقوم بهذه المهمة — ومع ذلك رق فؤاده ونثرت مقلتاه الدمع الغزير[1] — فمالك بالعوني الذى من يدرس حياته بتدبر وعمق يجد أنه يحمل بين جنبيه نفسا كنفوس الكثير من العباقرة الذين تنطوى جبلتهم على سجيتين متناقضتين واحدة مشرقة وأخرى مغربه — وهكذا كان العوني يحمل في خبايا نفسه سجيتين مزدوجتين بل ومتنافرتين . وهما مشاكسة القوى ومصارعة البطاش الجبار . واثارة الفتن في وجهه من ناحية وعاطفة انسانية جمة تجاه المظلوم أو المقهور ومناصرته للمستضعف والاخذ بيده من ناحية ثانية[2] وقد وجد العوني ان آل طلال مظلومون ومهضومة حقوقهما — فراح وانضم الى " خبرتهما " أى الى حضيرتهما فيما اذا كانا فازين بالصحراء — اما اذا استقرا في حائل فان العوني لا يفارق آل الطلال وخاصة اكبرهما سنا أى عبدالله الذى لا يفارقه عندما يغدو كل منهما الى مضجعه ، وكان في كل مناسبة يسمع العوني الفتى عبدالله كلاما مليئا بالتحريض .

" شاهد عيان على تحريض العوني "

من أمثال ذلك ما أنقله عن الاخ علي العبد العزيز العريفي — الذى يقول : انه

---

(١) كان بكاء عثمان هذا شافعا له عند الامير محمد الطلال الذى تولى امارة حائل فيما بعد — وذلك ان الامير محمد أراد أن يقتل عثمان لتنفيذه الاوامر من أرسله ولم ينجه من القتل الا ذلك الدمع الذى سكبه من مقلتيه والذى شهد له به فرج آل طلال — مولى آل طلال الذى كان شاهد عيان عند بكاء عثمان .

(٢) انظر صفحة ٩٨ — ج د — من شيم العرب للمؤلف .

عندما كان ركب الامير سعود يسير في الصحراء عائدا من غزوة الجوف هناك قال الفتى عبد الله آل طلال سائلا كم هي الساعة الآن ؟؟ فقال العوني على الفور مالك ومال السؤال عن الساعة فالساعة لا يسأل عنها الا الرجل الذى يصدر أوامره قائلا : افعلوا ياقوم هكذا في ساعة كذا — اما أمثالك فلايجوز له أن يسأل عن الساعة " .

هذه الرواية التي سمعتها من الاخ علي العريفي كما سبق أن سمعتها من غيره لانها رواية مشهورة ومتواترة ولكنني كنت أظن أنها من نوع الروايات التي يبالغ بها احيانا بحق شخص ما — فظننت ان من يرى ان العوني كان المحرض الاول لعبد الله الطلال على قتله لسعود بن رشيد أراد أن يؤيد قوله بحديث كهذا مختلق على العوني — اما بعد أن سمعتها من الرجل الثقة العريفي ذهبت أتصور كم هي الكلمات السريه التي يحرض فيها العوني الفتى عندما يجلس وهو على انفراد .

أجل مادام ان العوني يحرض القاتل بصورة علانيه وبمسمع من الركب — اذن ماهي الكلمات النارية التي يحرضه فيها عندما يختلي به ؟؟

وهذا الامر الاخير هو المهم جدا في هذا الموضوع وهو ان جل هم العوني وملتهى أمنيته التي تصبو اليها نفسه . والتي يغامر بحياته في سبيل الوصول الى بلوغها — وأبعد مايمض مضجعه — وشغل ذهنه الشاغل محصور على ان يجد الحاكم الضعيف الشخصية والحديث السن الذى يسيره هذا الشاعر الداهيه كيف يشاء ومثل مايريد — على شرط أن لايكون له من الحكم الا الاسم اما السلطة والنفوذ والرأى والحل والعقد كل هذه يريدها العوني ان تكون ملكا له لا يشاركه فيها أى من كان

أما وقد توفرت العوامل بآل طلال — تلك التي منها استضعافهما — والعوني بطبيعته كما أسلفنا بناصر الضعيف المستضعف ومنها نفسية صاحب الترجمة التي فطرت على مشاكسة الجبابرة ومصارعة ذوي السلطة والصولجان . ومنها أو أهمها كما ذكرت . وجود آل طلال الذين من صلب عبدالله بن رشيد ولهما من الحق الشرعي في الامارة نفس الحق الذي يتمتع به الامير الحاكم سعود — وخاصة الاخ الاكبر من آل طلال — وأغرى به عبدالله ذلك الفتى اليافع الذي بات بينه وبين العوني انسجاما روحيا وألفة بعيدة المدى وصلة وطيدة الجذور — جعلت الشاعر يعتقد اعتقادا راسخا ان هذا الفتى اذا تبوأ أريكة الامارة فانه ، أي العوني سوف يحقق عن طريقه جميع الاحلام المعسولة التي كانت تشغل ذهن الشاعر المغامر الطموح .

هذه الأدلة المحسوسة الواقعية ، ولا سيما الهند الاخير منها هو الذي دفع العوني الى ان يحرض عبدالله الطلال على قتل ابن عمه الامير سعود .

* وفاء من العوني لصديقه وغدر منه لأميره *

قلت من قليل ان العوني في كيانه سجايا مزدوجة ومضاد بعضها للبعض كشأن بعض العباقرة ، وخذ دليلا محسوسا يؤيد صحة قولنا هذا وذلك انه عندما أقدم الفتى عبدالله الطلال على قتل الامير سعود نجد العوني انشد قصيدتين يرثي فيهما صديقه عبدالله وفي هاتين القصيدتين وخاصة الرائية معان تعبر ابلغ التعبير عن غدر العوني وتآمره على الامير سعود ولي نعمته والذي كما أشرت سابقا اذا أراد العوني شيئا من

الأمر لايكلفه الا اشارة وجيزه ثم يبهمه الامير ما أشار اليه بدون تأجيل — وهكذا نجد العوني أسرف بالغدر عندما ذهب يتظاهر برثائه للقاتل الغادر — اما المقتول ظلما — فان الشاعر لم ينبس ببنت شفتيه ببيت واحد وهو الذى كان ينشد فيه قصائد طافحة بالمديح وزاخرة بالاطراء — هذه ناحية من نواحي غدر العوني ، واذا نظرنا اليه من ناحية أخرى يتحتم علينا أن نقول ان هذا الشاعر بقدر ما بدا منه غدر شنيع ، بقدر مابدا منه وفاء منقطع النظير لصديقه عبد الله الطلال — لا من اجل انه أنشد فيه هاتين القصيدتين فحسب ، بل لانه عرض عنقه لسيف الجلاد على أساس انه أنشد هاتين القصيدتين في الفترة التي يحكم البلاد الامير عبدالله المتعب ابن أخ القاتل — والوفاء في العرف الادبي والمعنوى لايصح أن يمس وفاء مالم يعرض فاعله للتهلكة[1] ، كما فعل العوني برثائه لعبدالله الطلال بالقصيدتين اللتين احدهما تناقلتها الرواة بعد أن قتل عبدالله آل طلال بأيام قليلة — وفي أول عهد امارة عبدالله المتعب — ويقال ان العوني اقسم بالطلاق انه لم ينشد تلك القصيدة — وقد كان قسمه هذا عندما حقق معه الامير عبدالله المتعب ويقال ايضا ان العوني — حينما أقسم بالطلاق تجدب زوجته ابنة عثمان ابن ليلى — واعتبرها مطلقة على اساس ان طلاقه لم يكن صادقا به — أما القصيدة الرائية التي فيها معاتبة مفجعة للشاعر اكثر وضوحا من الاولى فانها لم تبرز الى عالم الوجود — الا بعد سقوط حائل حيث وجدت في تركة فنيسان بن علي الذى يلتقي هو والعوني على صعيد واحد في ولائهما لآل طلال — كما كان مصيرهما واحد عندما سقطت امارة حائل ، وذهبا العوني وفنيسان للرياض هناك وضع الاثنان في غياهب السجن الى ان لقى كل منهما حتفه .

---

(١) انظر كتاب المؤلف — فهد بن سعد ومعرفه ثلاثين عاما — صفحة ١٩١ .

واليك قصيدة العوني التي أقسم بالطلاق انه لم ينشدها علنا بأنه اعترف بهـــا بعد أن تولى محمد الطلال امارة حائل ـ كما ان الاسلوب الذى ينتهجه العوني ولا يشاركه به أى شاعر من شعرائنا الشعبيين واضح في هذه القصيدة كوضوح الشمس في رابعة النهار خاصة عند من له ادنى الم في دراسة أدب هذا الشاعر .

١ ـ يا صاحب القبر الذى بيسر القـور غرب عن السمراء بريعان حائـــل

٢ ـ مشطر كانك من الناس مجـــدور يما عليك من القلوب العلايـــل

٣ ـ العفو يا مابك من العز مذخـــور لولا انها رزت عليك النصايـــل

٤ ـ والله لولا اللي يرزان ماســـور أرجي به عسى به فما طبوعك خصايل

٥ ـ ماكان نقعد بين دمعان وســـرو ولا شوف ذباحك على الغين زيـــل

٦ ـ ولا شوف سيفك كل يوم مع الكـــور ولا شوف خيلك بركبونه رزايـــل

٧ ـ عندى ذلول فوتها ننسف الكـــور ولي عند صبيان المعرفة دلايـــل

القصيدة أكثر من هذه الابيات وانما هذا ما استطعت الحصول عليه .

والشاعر في البيت الاول يخاطب عبدالله الطلال يخاطبه في قبره الكائن غربا عـــن الجبل الذى يسمى " السمراء " وفي البيت الثاني يقول ان قبرك مبعد عن قبور الامـــوات كأنك مصاب بجدرى ويخشى الناس منك العدوى ـ ثم تجده في عجز البيت يبدى تـــأوه قائلا ماأكثر قلوب المواطنين العليله حزنا عليك . وفي البيت الثالث يقول اما ولله فيـــك من النصر والعز لولا ان الموت عاجلك ثم تجده في البيت الرابع والخامس والسادس يقـــول

انه لولا آماله التي يبنيها على شقيق المقتول أى محمد بن طلال المودع بالسجن في برزان الذى يرجو ويأمل ان يكون فيه من الخصال المشابه لخصال المقتول لولا ذلك لما جلس يوما في حائل وهو يرى "دمرعان" القاتل لعبدالله كما يرى سيف المقتول يحمله مهدى ابو شرين — كما يرى خليل آل طلال يركبها — اناس "رزلا" على حد رأى العولقي — وفي البيت السابع يقول : مخاطبا عبدالله في قبره : لولا أملي باخراج اخيك من السجن لكان لدى راحلة نجيبة وبامكاني ان اضع عليها "الكور" الى أى البلاد واترك حائلا — وسوف اجد في أى بلد أذهب اليها عزا لان لدى كفاءة تجعل ذوى المعرفة يقدرونني .

واليك القصيدة التي بارز فيها علامات الاسى والفاجعة والوجد من العولقي اكثر من هذه :

١ — طيرى اللي مايوصف على طير
من ماكر ماهوب ماكر وكاري

٢ — فرخ فذيته ماغذته الصقاقير
ولا ينذكر مثله ولاله مهاري

٣ — أشقر خفيف الريش واف التمليشابير
بانت وهو بالعش فيه المواري

٤ — يحدحون طيورهم بالتفاديير
يرجونها بالكي تصيد الحباري

٥ — ويكسرون الصيد له قبل تكسير
ويعلمونه بالضحا والغداري

٦ — أوهوطالع طلعه وسوى التناكير
أول مقانيصه هشم راس فاري

٧ — من غير تعلوم ومن غير تسخـــــير

علمه بدأ له ما تسمع لقـــــــاري

٨ — أوى حرلو دعته المقادير

تحق له عقبان نجد وقـــــــاري

٩ — حق هدر وخفى صوات الهداد بل

وتحايدت عنه السباع الهـــــــواري

١٠ — بالعون قلب فارقه فارق الخير

ونفس حيت عقبه حياته عـــــــزاري

١١ — تصبح وتمسى بالعناء والتحاسير

عمال دمعه فوق الوجان جـــــاري

١٢ — عليت باللي ما اخلفوه المشاوير

فيما بدأ له من راى وطـــــــاري

١٣ — يمكن الى قضى بنا بالتياسير

اعتاض به هم وغم أومـــــــزاري

١٤ — ياواحد ما شفت منه تناكـــير

وطبعه لي الطف من نسيم الـــــذ وارى

١٥ — وان غبت عن عينه يجي فيه تكدير

وان جيت كنى له من أغلى المشـــــارى

٦ ١٦ — وهو الضده مثل صلب العناقـــير

يضرب بسيف ماضي مابـــــــداري

١٧ — لعبذل الدنيا يرى فيه تقصير

ولو يندلع الهيجاء يظنه مـــــــداري

---

١ — في هذا البيت يصف الشاعر صديقه عبدالله ابن طلال بانه كالصقر الحر الاصيـــل وانه من أسرة عريقة في اصالتها ومجدها . وكل الابيات التي وردت في البيت الثاني والثالث وما بعدهما الى البيت الخامس تلها ثناء وتمجيد يطرى بها الشاعر صديقـه عبدالله واصفا اياه بانه فلتت زمانه !!! . اما في البيت السادس فانه اورد معنى يبدو من خلال معاني هذه القصيدة بصورة عامة . ومن معاني هذا البيـــت أن العوني راضي عن قتل عبدالله الطلال لابن عمه الامير سعود — بل مؤيـــــدا ومحبذا له . وأكثر من ذلك نجده يعتبر عمله هذا عملا نادرا من نوعه . ولا يقـــدم عليه الا الابطال الافذاذ ((أول مقانيصه هشم راس ضاري)) اى ان اول بطولـــه بدرت من عبدالله الطلال هي تلك الشجاعة التي اطلق فيها راصته وهشم بها راس ابن عمه القاتل عنه والذى أتاه من خلفه . وصوب فوهة بندقيته عليه فخرقت الرصاصـة رأسه .

ما أبعد البون الشاسع بين هذا الشاعر وبين المؤرخ الاديب امين الريحاني — فبينما نرى العوني يعتبر هذا العمل الذى قام به الامير عبدالله بن طلال في قتلـه

لابن عمه الامير سعود شجاعة وبطوله خارقه ـ على الرغم من أنه منافي للاخـــــلاق والدين من شتى النواحي ـ فهو منافي للاخلاق لان القاتل لم يبارز المقتول وجهـــا لوجه وانما جاءه من خلفه وهو يمتطي الثقة بابن عمه القاتل وهو منافي للدي ـــــن لان القاتل اقدم على ازهاق روح بريئة من اخوانه المسلمين بل من ذوي رحمـــــه وذلك طمعا بسلطة الدنيا الفانيه التي لم يمتع القاتل بحياته بعد قتله لابن عمـــــه الا دقائق معدودة ـ ثم لقي المصير نفسه الذي لقيه ابن عمه مع الفرق بين موت ابن عمه الذي توفى غافلا مظلوما ـ وبين موت القاتل الذي نازله قاتله وجها لوجه . ومـات موت قصاص .

أقول ما أبعد البون الشاسع بين رأي العوني بالقاتل وبين رأي امين الريحاني الـذي عندما جاء الى قصة قتل عبدالله الطلال لابن عمه سعود . قال الريحاني في كتابه نجـــــد الحديث ـ صفحة ٢٩٢ قال العبارة التي اوردها بنصها الحرفي الآتي :

" (مات سعود غدرا وكان الغادر اجبن الغادريـــــــــــــــــــــن) "

واذا كان العوني أسرف في ثنائه واستداحه لعبدالله الطلال خاصة في قتله لابن عمه ـ واعتبر عملا كهذا بطولة فذة ـ فان الريحاني وان أصاب في نعته لعبدالله آل طلال بالغدر . فانه أسرف في نعته له بالجبن . لان الرواية التي تلقيتها من عبدالله المتعب الشاهد عيان للحادثة ـ ومن دارعان بطل الحادثة وقاتل القاتل كلاهما يشهدان بان عبدالله الطلال ماكـان جبانا عندما اقدم على قتل ابن عمه والدليل البادي الذي يؤكدان به ثبات القاتل وشجاعتـه هو انه قبل ان يمضي في تنفيذ القتل بضحيته ـ كان قد صوب فوهة بندقيته الى " النيشان "

أبي الهدف وأصابه فيقول الراويان عبدالله ودرعان ان الفتى عبدالله الطلال لا يعرف عنه شجاعة ولا جبنا بحكم حداثة سنه الذى قد لا يتجاوز العشرين سنه . ولكن ثباته ورزانته وهو ينوى ان يقتل امير البلاد بعد ثوان يدلان دلالة واضحة بأن الفتى شجاع بلاشك . والدليل الثاني على شجاعة الفتى هو ماينسبه الرواة عن مهدى — أبي شربين المشهور ببطولته — يقول الرواة عن مهدى : انه رأى عبدالله الطلال عندما صوب بندقيته الى رأس الامير سعود — ولكن المنظر الذى رآه على محيا الفتى جعل ابا شربين تخور قواه ويرجف قلبه — بل يقول ابوشربين الواثق من نفسه وبشجاعته — بانه عندما رأى عبدالله يصوب بندقيته الى رأس الامير ظلت نبضات قلبه تزداد أى قلب ابن شربين .

أما اذا وقع تباين بين ماقاله العوني في ذلك البيت وبين ماكتبه الريحاني ، فان هذا التباين شيء طبيعي وذلك ان الريحاني يكتب التاريخ للتاريخ . والقاتل والمقتول بحكم المنطق التاريخي بالنسبة للريحاني كلاهما بمنزلة واحدة — الا انه وان أصاب في نعته للغادر بالغدر . فانه لم يصب في نعته له بالجبن . كما ان العوني وان أصاب في نعته لعبدالله الطلال بالشجاعة فانه أسرف بنعته هذا — كما انه ارتكب خطأ كبيرا في تحبيذه للغدر ولكنه للمعهد الذى يذم القاتل للمقتول كما هو يذم العوني نفسه للامير سعود .

واخيرا هذا هو العوني قام بوفاء لصديقه يغدر عنه لاميره — واذا وجه الينا احد السؤال الآتي :

كيف التوفيق بين الوفاء والغدر ؟ جاء الجواب : هذا مايقوله الفلاسفة عن سجايا

العباقرة المتضادة .

واذا وجه الينا السؤال الثاني الآتي :

هل أن الفلاسفة يرون ان هذه السجايا المتضادة قاعدة مطردة في جميع العباقرة وان من لم يتصف بها لم يكن عبقريا ؟

الجـــواب :

لا أعلم عما اذا كانت هذه قاعدة مجمع عليها أم أنها موجودة عند الشواذ من العباقرة .

أما لو سئلت عن رأي الخاص لقلت انني أفضل ان أكون بمنتهى الغباوة والبلادة — من أن أكون عبقريا اجمع بين الوفاء الذي اعتبره جزءا لا يتجزأ وبين نكث العهد والغدر بمن له طي يد — بل ولن أحترم الغدر حتى بعدوى اللدود — اذا كان بيني وبينه عهد يجعله يثق ويطمئن مني بان لا آتي به من الخلف .

وينسب الثقات عن العوني في رأيه الذي يراه وفاء ينسب عنه قوله : لو ان المرء يبلغ كل ما يتمناه بهذه الحياة لما تمنيت الا انني كنت بجانب عبد الله آل طلال شاهرا سيفي عندما نفذ القتل بمسعود ابن رشيد " .

عندما سمعت هذه الرواية المتواترة التي ينقلها لنا اكثر من واحد عن العوني ، قلت : اما كان الاجدر بالعوني ان يقول كنت أتمنى ان اكون بجانب عبد الله الطلال حينما أراد أن ينفذ القتل بمسعود الرشيد لأنصحه عن ارتكاب جريمة القتل بالغدر ولأحذره عن سوء عاقبتهما — كما هو الامر الواقع .

" العوني موضع كره من ناحية وموضع احترام من ناحية ثانيـــــة "

من ينظر الى العوني من ناحية طموحه البعيد المدى ذلك الطموح الذى دفعه الى التشرد والى عدم الاستقرار — والى عدم الاعتراف بجميل من يسدى اليه معروفا ومنة في هنقه فيما اذا كان مسدى ذلك المعروف وواضع تلك المنه حاكما لا يجعله الآمر الناهـــي بحكمه فان العوني لا يقف به الامر بأن لا يعترف بمنته فحسب بل يخلق له المتاعب ويحـــوك له المؤامرات ولا يتورع من ان يسلط عليه من يقتله غدرا .

أقول من ينظر الى العوني من هذه الزاوية فانه سيكرهه كرها عميقا — ولكن من ينظـــر اليه من ناحية أدبيه كشاعر شعبي دافق القريحة يغوص على المعاني التي يندر أن تجـــد بعضا منها عند فحول الشعراء القدماء والمحدثين ، أو اذا نظرنا اليه من ناحية سعة أفقه وقوة حجته التي يستطيع أن يهيمن بها على مواطنيه أعظم من تأثير الساحر . واذا نظرنـــا اليه أيضا من ناحية وفائه لمن يصفي قلبه له ، نعم اذا نظر اليه من هذه الزاوية فان المـــرء لا يسعه الا أن يحترمه . فهو اذا أحب وفى وفاء منقطع النظير لمن يحب — ان مات من يحـــب أعلن حبه له ورثاه . ولو كان رثاؤه لمن يحب يقوده الى الموت — وان غضب الحاكم على مـــن يحب وسجنه ، فان العوني سوف يسخر كل قواه الفكريه والادبيه وجميع ما يملك من دهـــاء ومكر وحيلة حتى يتمكن من اخراج صديقه المسجين من سجنه ويشرط ان يختلق الحجج المقنعة التي تجعل سجان صديقه هم انفسهم الذين يحطون الاصفاد عن ساقي صديقه ويجعلونـــه حرا طليقا — .

" العوني ينحني امام العاصفة ثم يخلق عاصفة مضادة لهـــا "

ربما كان أسوأ يوما في حياة العوني وخاصة عندما كان في حائل ـ هو ذلك اليوم الذى قتل فيه صديقه عبدالله الطلالي . وأسوأ من ذلك هو ان خطاة الامير الجديـــد وحاشيته وموالية وشعور الكثير من أهل البلاد كلهم يطالبون برأس محمد الطلال شـــقيق عبدالله ـ الذى نجا من القتل بمعجزة ألاهية ـ كان الفضل بها لموالى آل طلال فـــرج الذى أخذ بيد الصبي وهرب به الى حي اهله من اكبر أحياء حائل ـ وهذا الحي يسمـــى " لبده " الذى رجاله اعتبروا محمد مستجيرا بحماهم . والمستجير في العرف العربـــي لا يسلّم مهما كان الطالب له قويا .

في ذلك اليوم المشؤوم أوشكت البلاد أن تقع في حرب أهلية لا يعلم من نتائجهـــا السيئة الا الله . وذلك أن أهل البلد " انقسموا الى قسمين قسم يرى ألا بد من حماية هذا الفتى مادام انه لاذ بهم واستجار بحماهم .

وأما القسم الثاني فان رجاله يحاولون ان يأخذوا الفتى بدون قيد ولا شرط ليضربوا عنقه ـ وهذا القسم هم موالي الامير المقتول وحاشية قصر الامارة الذين يستمدون قوتهـــم ونفوذهم من قوة ونفوذ امير البلاد الجديد عبدالله المتعب الذى خلف عمه سعود .

ولما كان آل سبهان وعلى رأسهم طلي الحمود قوة في ذلك الوقت يعمل لها حساب . ويرجحون كفة الثقل لاية جهة من الجهتين المتعصب كلاهما في موقفه العنيف على اعتبارانهم خوال الامير المقتول ووزراء المال والرأى من جهة ولهم عند اهالي ـ لبده ـ المستجير بهـــم

الفتى المنزلة التي تشبه منزلة القيادة من جهة أخرى — فقد بذلوا جهودا موفقة باصـــلاح الشأن بين الجانبين — في اتخاذهم الحل الوسط — الذى يجعل كل جانب من الجانبـــين يتنازل عن موقفه الشديد العنيف — وخلاصة هذا الموقف هو ان يسلّم الفتى بشرط ان لا يمس بسوء وان يضمن حياته طي الحمود السمهان الذى كان وقتذاك هو المسؤول الاول بعـــد أمير البلاد .

وهكذا انقشعت تلك الازمة العنيفة في اتخاذ هذا الحل ، وأودع الفتى في فياهب السجن بعد ان وضع في رجليه اصفاد الحديد ، أودع السجن في وسط دار تسمـــــــى " دار حسن " وهي في وسط قصر الاماره — وفي تلك الدار يحيط بها عدة اسوار وخمسة ابواب مقفلة — وهي دار لم ولن يدخلها انسان ويخرج منها حيا .

تلك الدار التي سبق أن دخلها الامير بريده " حسن آل مهنا " وخرج منهـــا ميتا — ودخلها الامير سلطان الحمود الرشيد وكان قبره فيها — ودخلها الامير سعود الحمود الرشيد وكان مصيره كمصير أخيه سلطان أى انه قبره فيها — اما الفتى محمد الطلال فانه وان كان مصيره أوشك ان يكون مصير أسلافه السابقين لولا عناية الله ومشيئته — ثم العوامل المتعددة التي كانت سببا لا في امتداد أجله فحسب — بل كانت عاملا رئيسيا جعلته يدخل تلك الدار سجينا مكبلا بالاصفاد — ويخرج منها حرا طليقا ثم اميرا للبلاد .

" العوني سبب رئيسي في حياة الفتى وتسلمه سلطة الامـــارة "

سوف أجد علامات الاستفهام من القراء كلهم منصبة نحو السؤالين الآتيين :

كيف نجا الفتى من الموت بعد أن نزل في تلك الدار المشؤومة التي من دخلها لم يخرج منها حيا ؟

وكيف أصبح الفتى أميرا للبلاد ـ وهو السجين المكبل بالاصفاد والمهدد بالموت في كل لحظة من اللحظات ؟

قبل أن اجيب على هذين السؤالين يتحتم علي أن أقول المثل الدارج : ـ اذا عرف السبب بطل العجب .

هناك عدة أسباب توفرت في هذا الموضوع وخلاصتها كما يلي :

أولا : ان امير البلاد صغير دون سن الرشـــد ـ واعني الامير عبدالله المتعب . وصـــي كهذا بحاجة ماسة الى وصي شجاع باسل كحمود السبهان ـ خال الامير سعـــود ـ أو زامل السالم السبهان ذلك الرجل الذى وان كان دون ابن عمه حمود شجاعـــة ومـ ومنزلة شعبية الا انه لا يقل عنه صرامة وحنكة وقدرة على حسن ادارة شؤون الامـــارة عندما كان امير البلاد سعود يافعا وعدم وجود وصي يتحمل المسؤولية أفسح المجال لانصار آل طلال الذين في مقدمتهم وعلى رأسهم العوني كما أفسح المجال للانتهازيين الموجودين في كل زمان ومكان ـ أولئك الذين يضعون دائما قدما بالجنة وقدما بالنار .

ثانيا : استفاد الفتى السجين من حيث نجاته من الاغتيال في سجنه — وذلك بسبب العهد الذى تقدم به علي الحمود السبهان لأهالي لبده — ومادام أن الفتى أصبح بحصانة وضمانة من اغتياله عن طريق آل سبهان أنفسهم بصورة قد لا تكون مباشرة « كما حصل على آل العبيد »[1] فانه لا خوف على حياته طالما ان الامير عبدالله المتعب حديث سن كما مر بنا من قليل .

ثالثا : وهذا العامل هو من أهم العوامل السالف ذكرها فيما اذا استثنينا العامل الاول — واعني بعاملنا الثالث هذا هو وجود العوني الذى لعب دورا خطيرا بفضل توفر العاملين السابقين — اللذين أفسحا له المجال أن ينفذ مخططه الرهيب الذى أدى الى ان جعل موالي الامير عبدالله المتعب الذين أودعوا الفتى بالسجن ، والذين كانوا شديدى الحرص على ان يستلموا الفتى من اهالي لبده بدون قيد ولا شرط لينفذوا فيه حكم الاعدام — هؤلاء الاعداء الألداء للفتى استطاع العوني أن يقلب رؤوسهم ويجعلهم يفتحون بايديهم اللابين المغلقين على الفتى السجين . ويخلعون الباب الثالث بالقوة بل ويسيطرون على قصر سيدهم بصورة يبعد بنا شرحها وتفاصيلها ، وانما نختصرها بما استطعنا على الوجه الآتي :

---

(١) أقصد بآل العبيد هم سلالة عبيد العلي ابن رشيد الذين ابيدوا وكان المسؤول الاول عن مجزرتهم زامل السبهان عند ما كان وصيا .

* هكذا جعل العوني أعداء الفتى حراسا لـــــــــه *

انحنى العوني للعاصفة العارمة عندما كان موالي القصر وحاشية الامير المقتـــول والأمير ابن عمه عبدالله كلهم يطالبون برأس محمد الطلال شقيق القاتل .

في ذلك الموقف المشؤوم كان هم العوني ان ينجو بنفسه من ان يسحقـــه الهائجون في أقدامهم ، كما أنه أيضا انحنى للعاصفة خلال الاشهر الاولـــى من تولي الامير عبدالله أريكة الامارة — ولكنه بعد أن رأى العاصفة هدأت وبعد ذلـك ذهب ينفذ ما في رأسه من مخطط يرمي الى اخراج الفتى محمد من السجن ، ولما كـــان العوني يدرك جيدا انه يستحيل ان يخرج الفتى من السجن المحاط بالابواب الخمســـة الا عن طريق اولئك الموالي انفسهم الذين اودعوا شقيق صديقه في غياهب السجن ، فقـــد ذهب يبذل كل مالديه من المكر والدهاء والخداع لتولئك الشجعان البسطاء — او بالاصـــح الاغبياء الذين استولى العوني على مداركهم باسلوب ملؤه بالتمويه ذاهبا أولا يخاطب كـــل واحد منهم على انفراد — ثم ذهب بعد أن أمن على نجاح مخططه ذهب يخاطبهم جماعـــة بالعبارات التي ظاهرها الاخلاص لاسرة آل رشيد جميعا — وباطنها محصور على تفانيـــه باخلاصه ووفائه للفتى شقيق صديقه .

وكان الاسلوب الذى ذهب العوني يخاطب به أولئك الحاشية هو الاتي :

انتم المخلصون الوحيدون لبيت آل رشيد الذين أصبح حكمهم مهددا بالانهيار . وكل يعـرف أن السبب الوحيد لانهيار حكمهم هو تشاحنهم فيما بينهم . وسفك دماء بعضهم للبعض.

وعدم وجود الرجال البعيدي النظر المخلصين الذين يسعون باصلاح الشان بينهم ، واذا استمرت الحال على ما هي عليه فان حكم ابن رشيد سوف ينتهي ، وبالامس القريب قتل من سلالة آل عبدالله اثنان لا يجود الزمان بمثلهما كما أودع بالسجن الثالث لهما الذى سجن مظلوما بدون جريمة يرتكبها ، وهو الان مهدد بالموت بين عشية وضحاها ، ومن يعلم لا يأتي عدو صاحب هوى ويؤثر على عقل أميركم الطفل فيأمر بقتل السجين ويدفن في نفس الدار التي هو مسجون فيها فيموت وتبلى عظامه ، ولا يظن أحد الا انه لا زال سجينا (١) الخ .

وهكذا ظل العوني ينشر ويذيع دعايته هذه المثيرة للعواطف . يذيعها بصورة عامته وسرية الى أن تغلغلت دعايته بين العدد الوافر من الموالي وسرت كالنار في الهشيم في انديتهم وبدأوا يتظاهرون بالعطف والشفقة على السجين الذى تصوروا أنهم فعلوا خطأ بسجنهم له .

---

(١) يقول عبدالله التنجب امير البلاد وقتذاك ان مطلق المهارك الملقب ((أبو فرنية)) الجلاد ـ للامير ـ يؤكد عبدالله أن مطلق هذا قال له والحبل بيده الا تأمرني أن ((اتخص)) محمد الطلال ـ اى اشنقه بالحبل ـ هذا ما سمعته من عبدالله الذى يؤكد انه لم يوافق على طلب أبو فرنية والعجيب في الامر أن ابو فرنية هذا كان في مقدمة الموالي الذين اخرجو محمد من سجنه بتأثير العوني طبعا .

علمنا شعر العوني ان الامر بلغ بهؤلاء الندم على سجنهم لصاحبه حينئذ انتقل من دعايته الاولى الرامية الى العطف على السجين الى دعايته الهادفة الى اخراج السجين من سجنه ، فذهب يشيع ويذيع المعاني القائلة : ان اعظم شيء يقوم به المخلصون لهذا الحكم هو أن يسعوا بتصفية الجو بين هذين الصبيين " اشارة الى أمير البلاد عبدالله المتعب والى الامير السجين محمد الطلال الذى هو الاخر لا يتجاوز السادسة عشر من عمره آنذاك " وهكذا بدعايته هذه أن لا شيء يغسل القلوب ويرفأ الرتق الا أن يخرج السجين من سجنه ـ ليقف صفا واحدا هو وابن عمه الامير عبدالله ـ موقفا أخويا وصلبا ضد الاعداء الخارجيين الذين يتحينون الفرص بالقضاء على حكم آل رشيد !!!

وبالتالي نجحت خطة العوني الملغومة ـ حيث قام هؤلاء الموالي بغلس من الليل واخرجوا السجين من سجنه ، لان اخراجهم له لا يكلفهم اى عناء فمفاتيح الابواب المغلقة كلها بايديهم ـ وهم قوة الحكم الفعالين الذين اودعوا محمدا في غياهب السجن . ووضعوا في ساقيه اصفاد الحديد . وهم ايضا القادرون على أن يفكو هذه الاصفاد .

وقدرة الموالي عندما ينموا ويتوالدوا ـ قدرتهم على من يشأون أن يجعلوه حاكما وان كان محمدا ـ أو يعزلوا الحاكم الشرعي ويضعوا من يشأون هذه القدرة عند الموالي ـ لم تكن حدثا جديدا في التاريخ خاصة عندما يضرب في اسرة الحكم الخلاف والنقاق ـ أو عندما يفقد الحكم هيبته بعدم وجود الحاكم القوى الشخصية ـ فهؤلاء الموالي عبارة عن الجيش في عصرنا الحديث. وهم بالتالي نوع من بني الانسان الذى يعتريه الضعف البشرى حتى يغلب على امره في الحروب او يختلس من أهله وهو طفل . فيكون آلة صماء بيد غالبة أو مختلسة كما يعتر هذا الغالب أو المختلس الضعف ايضا . فيكون سلعة بيد من قلبه او اختلسه بالامس.

ومما لا شك فيه أن العوني قد درس تاريخ العالم بصورة عامة . وتاريخ خلفاء بني العباس في بغداد . وتاريخ المماليك في مصر بصورة خاصة . ومن خلال دراسته هذه ادرك أن التاريخ في كل زمان ومكان يعيد نفسه . ولذلك نجده لم يدله عقله على أية قوة تخرج صاحبه من معتقله الا هؤلاء الموالي الذين نفذ عن طريقهم مخططه الرهيب الذى هو اخراج صديقه السجين من معتقله .

واخيرا لم يشعر الامير الحاكم للبلاد اى عبدالله المتعب الا والخبر يأتيه بواسطة واحد من الموالي فيوقظه من نومه بالصباح الباكر ليأتي بماهد ابن عمه الامير السجين . والرسول الذى بعثه قادة الانقلاب يدعى سعيد المحمد (طواشه [1]) وهو رجل مسالم والبك ما دار بين سعيد والامير الجافع . قال : سعيد

ـ تفضل يا عمي ماهد اخاك محمد الطلال فهو موجود بالقصر .

ـ الامير : ألم يكن محمد مسجونا فمن الذى اخرجه ؟؟

ـ سعيد : اخرجه رجالك .

ـ الامير : من هؤلاء الرجال الذين اخرجوه .

---

(١)

اى مجبوب الا نثيين والقبل

سعيد — رجالك المقربون

الامير — فلان وفلان وفلان خوافقون على اخراجه .

سعيد — نعم موافقون . (١)

الامير — وهل فلان وفلان وفلان ايضا موافقون على هذه الخطة ؟

سعيد — نعم كلهم موافقون بالاجماع كبيرهم وصغيرهم .

الامير — ماذا تريد الان .

سعيد — اريد خيرا ان شاء الله . خير ان شاء الله يكررها سعيد مرارا ثم يقول القضية كلها الغاية منها حسب ما يبدو لي هي غاية حسنة وكل ما في الامر هو ان تتكاتف انت وابن عمك محمد لتكونا صفا واحدا وقوة متماسكة بوجه اعدائكما الذين يتربصون بكما الدوائر .

الامير — لا بأس ((مكره اخوك لا بطل)) .

هذا وقد خرج الامير الصبي من فراش نومه وجاء يضع يده بيد ابن عمه الامير محمد الطلال .

---

(١) —

هذا الحوار الذى دار بين سعيد وعبدالله رويته من نفس الامير عبدالله الذى وقع عليه هذا الانقلاب المتوفي رحمه الله ١٣٦٦هـ ١٩٤٦م لقد أكد لي بأنه لم يسأل رسول الانقلابيين سعيد عن واحد من النفر الذين يعتقد الامير انه اخلص المخلصين له من رجاله مستفسرا منه قائلا هل فلان معهم ، الا وكان الجواب من سعيد بنعم . والذى يبدو لي ان سعيدا كان مأخوذا بدهشة المؤامرة وروعتها لان الحقيقة اسفرت ان الافذاذ المخلصين للامير عبدالله لم يكونوا مشتركين بهذه المؤامرة . ولكنهم قلة بجانب الاكثرية .

وقد نجحت خطة العوني لا من حيث انه استطاع أن يجعل الرجال الذين سجنوا صديقه ووضعوا فوق ساقيه اصفاد الحديد هم الذين يخرجونه من السجن ويحطمون بأيديهم قيود الحديد التي وضعوه لا من أجل ذلك فحسب . بل نجحت نجاحا بعيد المدى . وخلاصة هذا النجاح الملحوظ هو أن هؤلاء الموالي الساجنين لصديقه محمد الطلال بالامس اصبحوا حراسا امنا له بل كان همهم الوحيد حراسه ابن طلال يدفعهم الى ذلك حب البقاء لانفسهم لاحبا بالفتى الحارسين له ، وذلك لانهم باتوا يعتقدون ان حراستهم لمحمد الطلال اصبحت حراسة لانفسهم .

وقد اوركوا بعد فوات الاوان انهم سقطوا في الفخ الذى نصبه لهم العوني الداهية الماكر وفي مقدمة الذين ندموا على ما فعله . مهدى ابو شرين الذى يعتبر أقوى واشجع رجل بين أولئك الموالي .

ولا عجب ان يندم ابو شرين لانه هو القاتل لابراهيم المهوس حرافق الملك عبدالله آل طلال القاتل للامير سعود . وابو شرين هو « الكور » الاسود الذى قصده العوني في أحد الابيات التي رثى بها عبدالله الطلال في القصيدة الاولى سالفة الذكر وابو شرين هو الرجل الذى اشيع عنه في أول يوم من مقتل الامير سعود — اشيع ان ابا شرين هو الذى اصاب عبدالله الطلال بجرح غير قاتل . ولكن رغم هذا العداء المتأصل بين الطلال وابى شرين استطاع العوني أن يجعل هذا العدو الشرس حارسا قويا أميناً لمحمد الطلال .

واذا كان ابو الطيب المتنبي يقول :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد

فماذا يكون وضع مهدى أبي شرين الذى حكمت عليه الظروف لعدوه اللدود ان يكون هو قائد حرسه .

وقد جئت بحادثة ابي شربين لاعطي القارئ مثالا محسوسا على ما يتمتع به العوني لا من قوة قريحته كشاعر لا يبارى ولا من سداد رأيه الذى يفل الحديد ولا من سمو خياله وبعد نظره . بل وعلى ما يتمتع به هذا الرجل من قوة شخصيته التي يهيمن بها على محدثه في بيانه الساحر بصورة يستطيع ان يجعل الحق باطلا ويجعل الباطل حقا .

لولا لحظ الرجمة الذى احكمه العوني لكان مصير صاحبه الموت

في نفس الصباح الباكر الذى أخرج به الموالي الامير محمد الطلال من المعتقل على الصورة التي سلف ذكرها . في تلك الفترة التي بلغ فيها الغليان اوجه من الجانبين . جانب رجال امير البلاد ـ عبد الله وجانب رجال المؤامرة الذين شعروا أن العوني قد فهم بهوة ساحقة ـ في هذه الساعة الحرجة همس العوني باذن محمد مؤكدا له ـ بأن هذه الخطة لم تكن ناجحة نجاحا سليم العاقبة ومضمونا من ردود الفعل المعاكسة التي لا تقف عند اغتيال اى اغتيال الامير محمد فحسب ، بل سوف تقلب سحر الساحر على رأسه اللهم الا اذا أخذ محمد من درعان عبد الله . واوضح العوني لمحمد ما يخشاه من درعان بأن يباشر فورا باغتيال محمد بأول فرصة تسنح له لا لان لدرعانا شريرا ويهوى القتل من أجل القتل . ولا أنه يهوى قتل محمد كرها شخصيا له بل لان درعان يرى أن حياته هو بذاته مهددة ما دام محمد حيا وحرا طليقا على اعتبار انه اى درعان هو القاتل لعبد الله شقيق محمد . والعوني عندما يهمس باذن محمد بأن يضع بينه وبين درعان عبد الله . فأنه يدرك

ان درعان من نوع الرجال الذين يتقيدون بوثائقهم بالعهد . وقد نفذ محمد وصية العوني بحذافيرها ، وذلك انه بعد أن تعاهد هو وامير البلاد عبد الله المتعب رفض محمد أن يقوم من مكانه ما لم يأخذ عهدا من درعان . ويؤكد لي درعان بأنه حاول بأن لا يلزم نفسه بعهد كهذا الذي بقدر ما يجعله متقيدا به فأنه لا يجعله يضمن لنفسه السلامة من الامير محمد كما تتاح له الفرصة التي يظفر به ما دام انه المعترف بقتل شقيقه عبدالله . ويمضي درعان بقوله انه عاهد محمدا تحت ضغط الامير عبدالله وسليمان المعتبر صاحب الرأى النافذ عند عبد الله .

كان رأي العوني حصانه لمحمد قويـــة

كان الرأى الذى همس به العوني بأذن محمد ـ خير حصانة قوية بعد عناية الله حمت محمد من القتل ، كيف كان ذلك ؟ ؟ الجواب كما رويته من درعان نفسه الذى حدثني بما هو آت.

يقول درعان عندما كنا غزوا في الغزوة التي تسمى غزوة (١) « ام غراميل » وبينما كنا واضعين خيامنا في تلك الصحراء وكان الليل الدامس مسدلا ظلامه علينا ـ وكان محمد الطلال مسندا ظهره على طرف الخيمة بصورة يسهل فيها اغتياله سهلا ـ لا يكلف قاتله الا أن

---

(١) : غزوة ام غراميل هي آخر غزوة غزاها ابن رشيد وهي الغزوة الفاشلة كما سيأتي توضيحه عنها .

بهمز زند البندقية ويضعها في مقتل منه . في تلك الساعة جاءني ((الذعيت)) ابراهيم النودلي وقال لي هذه فرصتك التي لا تعوض . فهذا محمد الطلال واضعا ظهره على طرف رواق الخيمة . فأجهز عليه لكي تنام بعد أن تقتله هادئ البال لأن حياتك مهددة في كل لحظة مادام ابن طلال على قيد الحياة . اما نحن انصار عبدالله المتعب ، فأنه قد يكون لنا أمل بالحياة فيما اذا أصبح لابن طلال شأن ونفوذ ـ اما انت فانه سيقتلك لا محالة ويمضي درعان الرجل الصادق الذي ننقل روايته بكل امانة ـ ويقول : ان الذعيت قال له : ثق يا درعان بانك عندما تقتل محمد الطلال . فان الشجاع من رجاله الذي يلوذ بك طالبا منك السلامة ـ لان رجاله بعدما يرونه قتيلا لم يكن لديهم اية قوة يستندون اليها ـ كما انك سوف تكون بامان واطمئنان من المطالبة بدمه لان آل [illegible] طلال اذا قتل محمد انتهوا الى الابد [1] .

ويقول درعان انني اجبت الذعيت بما يلي :

ان محمد الطلال ساعته ما خرج من السجن أكد عليه العوني بان لا يذهب الى منزله حتى يأخذ مني عهد الله بالا امسه بسوء ـ وقد امتنعت في أول الامر لمعاهدته الا أن الامر عبدالله يسهل [illegible] فيه بأن يعهد من طلال . وبالتالي امتثلت

قال الذعيت . وهل ابن طلال عندما يضربك سوف يضرب هنيك أحد بالرصاص فأجاب درعان الذعيت " أفضل ان يقتلني ابن طلال ناكثا لعهده مالم اقتله ناكثا بعهدي ـ وقال درعان انني قلت للذعيت ـ اذا كان الله مقدرا بأن تكون منيتي على يد محمد الطلال .

---

[1] ، كان كلام الذعيت في ذلك العهد اما الان فقد انجب محمد ذكورا ونمت ذريته .

فان ارادة الله لا راد لها وحتى لو صوبت بندقيتي عليه الان فأنني لن اقتله - اما اذا كان اجلي بيد الله فان محمد الطلال وجميع خلق الله لن يقتلوني ما دام الله لم يقتلني .

والجدير بالذكر ان درعان عاش بعد ذلك ثلاثين سنة ثم مات موتا طبيعيا .

واذا كنت لم انقل عن درعان اية كلمة يؤخذ من معناها انه لو لم يكن بينه وبين محمد الطلال عهد الله فأنه سوف يقتله متى سنحت له الفرصة . فأن مجرى الحوار الذى بين درعان والذهيت يشير بوضوح - بأن درعان لم يردعه عن انتهاز تلك الفرصة التي اشار اليها الذهيت الا وفاءه بعهد الله وتقيده فيه ، وهذا مما يعبر لنا عن بعد نظر العوني وتقديره للحوادث قبل وقوعها .

الفصل الثانـــــي عشـــــر

خوف من الخارج ، ورعب في الداخـــــل

مرت امارة حائل في عام ١٣٣٩ بمرحلة من اسوأ المراحل التي اجتازتها منذ عهـــد مؤسسها الاول عبد الله العلي الرشيد .

وقد ظلت معاول الهدم تجتث جذور هذه الامارة والسوس ينخر في كيانها مـــن القاعدة الى القمة ، وذلك منذ سنوات خلت ، ولكنها في تلك الفترة بالذات تضاعفت المعـــاول في هدمها ، وازداد السوس نخرا في كيانها وقد يسهل على أية أمة أو أي حاكم مقاومة العـــدو الخارجي ، فيما اذا كان الوضع بالداخل سليما ورجاله يتكاتفون وقلوبهم صادقة ونواياهم فيمـــا بينهم حسنة وصفوفهم متناسقة ، وانما الخوف كل الخوف والخطر كل الخطر ، فيما اذا كـــانت قلوب الرجال بالداخل متنافرة والصفوف مبعثرة والنوايا سيئة ، كما هي الحال في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها .

أجل لقد اصبح التوفيق بين امير البلاد عبد الله المتعب وبين الامير محمد الطـــلال متعذرا والتعاضد بينهما مستحيلا بل أصبح كل واحد منهم لا يتصور الا أن ابن عمه يدبـــر المؤامرة التي تقضي عليه . يضاف الى ذلك أنه تنافرت قلوب حاشية القصر فيما بينهم من جانب وقلوب آل سبهان وقسم كبير من الموالي الذين أخرجوا محمد الطلال من جانب ثاني تنافـــرا شديدا اما الاسطورة التي اختلقها العويني التي خدع الموالي بها والقائلة : اذا اخـــرج السجين تعاضد مع امير البلاد ابن عمه الخ . كاهذه الاكذوبة انفضحت في اليوم الاول مـــن من الصباح الباكر الذي أخرج به السجين محمد من معتقله وذلك انه عندما سيطر الموالي علـــى

القصر واراد القسم المحسوب على آل طلال أن يقوم بعملية يقضي بها على أمير البلاد ، لـــولا أن القسم الاكثر والاقوى هدد هؤلاء باتخاذ العقاب الصارم الذى يؤدى الى سحقهـــم ، الامر الذى جعل محمد الطلال يطلب اعادته الى معتقله فيما اذا سيؤدى الامر الى تصادم بين الطرفين واثقا انه سيكون الضحية الاولى ، واخيرا هدأت العاصفة بين المتآمرين هـدوا كان مصدره الرغبة بالتكاتف والحرص على حراسة محمد الطلال وحمايته لا رغبة بالتكاتـــف. ولا حبا عندهم جميعا بحماية ابن طلال وانما هو حب لانفسهم لانهم واثقون ان اى خلاف يقع بينهم ، أوأى سبب يؤدى بحياة الامير محمد الطلال ، فان ذلك يعني عقابهم الصارم مـن قبل امير البلاد ابن متعب .

والواقع أن البلاد عانت رعبا رهيبا خلال الفترة التي قضاها محمد الطلال في البلاد بعد خروجه من السجن الى أن غادرها كما سيأتي ذكر مغادرته للبلاد .

ولعل الحادثة التي وقعت في جامع البلاد تعبر لنا اصدق التعبير عما تعانيـــه البلاد من التفكك الداخلي والهلع الذى دب في قلوب بعضهم خوفا من البعض الاخر ، وقـد جاءت تفاصيل تلك الحادثة على الوجه الاتي في الحين الذى يؤدى فيه الصلات الامـــيران امير البلاد عبد الله وابن عمه الامير محمد وحاشيتهما جميعا في تلك اللحظة صرخ معتوه فـي ذلك الجامع ــ وعندئذ انخلع كل قلب كل شخص ينتمي الى فريق من فريقي الاميرين المتضادين ظانا هذا الفريق او ذاك ان خصمه قام في مؤامرة دبرها ضده للقضاء عليه .

هذا بالنسبة للحاشيتين الخاصتين بامير البلاد وابن عمه محمد الطلال .

ويقابل هذا التنافر تنافرا آخر واقع بين آل سبهان ومن ينتمي اليهم وبين الحاشيـة الموالية لابن طلال ولولا أهل " لبده " الذين يعتبرون قاعدة شعبية يستند اليها آل السبهان

لماذا أنتخر خصومهم جهدا من القضاء عليهم .

هذا نموذج يعبر أسوأ التعبير عن وضع البلاد الداخلي الذى كان العوني فيه جهازا محركا ودماغا مفكرا .

غزوة فاشلة ومصدر فشلها التفكك

واذا كانت الاصول المتبعة في كل زمان ومكان تستلزم القوم ان يتكاتفوا ويتكتلوا ليقفوا صفا واحدا في وجه العدو الذى يهدد البلاد بل ويهدد بقاءهم جميعا فقد اجمع رأى رجال الطرفين بأن يعدوا العدة في قيامهم بعمل ينسيهم احقادهم ويشغلهم عن ضغائنهم الداخلية ، وهذا العمل الذى توهموا انه يقضي على عداوتهم المحلية يتلخص بان يغزو جميعا عدوهم المشترك .

فخرجوا جميعا من البلاد بخيلهم وركبهم وقضهم وقضيضهم قاصدين ان يصبوا غارتهم على أقرب بادية موالية للامام عبد العزيز بن سعود .

خرجوا بهذه الهيئة الروح المتفككة وبهذه القلوب المتنافرة . وكانت النتيجة أن ذهبوا فريسة لسرية تافهة لا يؤبه لها مزجنبود الامام عبد العزيز وهذه السرية عبارة عن بادية قليلة العدد من بادية عرب ، وتسمى هذه الغزوة غزوة " أم فرميل " الى انها في موقع يسمى " ام فراميل " .

ومما يعبر أسوأ تعبير عن الروح المنهارة المتفككة عندهؤلاء القوم هو انهم انهزموا قبل ان يلتقي الجمعان . لماذا ؟ ؟ لانهم كل فريق من الفريقين المتناحرين الى فريق امير للبلاد ابن متعب ، وفريق ابن عمه محمد الطلال يظن ان القضية مجرد تمويه ومؤامرة

لكل فريق

يقصد فيها القضاء عليه ، وهكذا هرب أولئك الفرسان الشجعان الذين لم يسبق لتاريخ امارة ابن رشيد ان انهزم رجاله الابطال بدون ان يبدوا منهم قتالا ، لا يفرون به من المعركة الا بعد أن يتبادلوا السلاح الابيض هم وعدوهم ، وبعد قتال شرس عنيف يبلغ احيانا الى درجة ابادة القسم الوافر من احد المتحاربين .

ولاول مرة بتاريخ رجال حائل الشجعان الاشاوس ان ينهزموا هزيمة نكراء من ملاقاة البدو وقد جرح بتلك الغزوة الفاشلة زعيم من ابرز زعماء قبيلة شمر وارسخهم ولاء واخلاصا لامارة آل رشيد وهو الشيخ عقاب بن هجل "(١) الذى ترك البلاد بعد تلك الغزوة وذهب الى العراق ولم يعد قطعيا كما قتل بعد هذه الغزوة في مناسبة أخرى الشيخ فارس ابن طوله وهو قطب لن اقطاب وفرسان قبيلة شمر وهو الذى يرأس عشيرة الاسلم التي هي من أكبر عشائر قبيلة شمر .

كل هذه العوامل من شأنها ان تجعل الامارة تتخلخل من الناحية الخارجية ، ناهيك فيما سبق أن اشرنا اليه من الناحية الداخلية ، وما تعانيه البلاد من التفكك الداخلي وروح العداوة والمناجحة بين امير البلاد عبد الله المتعب وبين ابن عمه الامير محمد الطلال اللذين كل واحد منهما يضع يده فوق رأسه باليوم والليلة اكثر من عشرين مرة يتحسس هل رأسه لا زال في مكانه ام خرقته رصاصة حاقد مغامر غادر .

ماهو السبيل الذى فيه سلامة ونجاة للاميرين لئلا يكون مصيرهما كمصير سلفيهما الادنين سعود وعبد الله ، أو مصير اسلافهما القدماء ابتداء من متعب العبد الله وبندر الطلال واخوته

---

١ ـ انظر صحفة ١٥٦ من شيم العرب ج ع للمؤلف .

" ٢ " صفحة ١٦٠ ـ نفس المصدر

الستة ومرور بابناء عبد العزيز الثلاثة واربعهم ابن عمهم طلال وآل العبيد الذين يزيدون عن عشرة أنفس كل من هؤلاء واولئك كان لسان حالهم يردد قول الشاعر :

الحمد لله حمدا لاعدد لـــه اذ لـم يكن ((قتلنا)) الا بايدينـــا

أصبح وجود عبد الله المتعب ومحمد الطلال في حائل يهدد كل واحد منهما الثاني فلا بد والحالة هذه من مواجهة احد الاميرين اللذين لا مناص من مواجهة واحد منهمـــا وهما الاثنان :

أما أن يقتل احدهما الاخر ، واما ان يبارح احدهما البلاد فينجوا الذاهب من سوء العاقبة ، ويأمن الباقي مما يترقبه من مصير سيء .

وهكذا بعد تلك الهزيمة المخجلة التي لحقت بابن رشيد ، بعد ذلك اقترح المخلصون من ذوي البصيرة خطة تسير على هداهما الامارة . وتضمن ولو الى حد ما سلامة الاميرعبد الله ، وابن عمه الامير محمد . ويشير مضمون تلك الخطة الى ذهاب محمد الطلال الى الجوف ليظل قوة يعمل لها العدو الخارجي حسابا .

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى يأمن كل من الامير وابن عمه على نفسيهما طبعا ، ولقي هذا الاقتراح قبولا طيبا عند الجانبين ووفقا لهذه النظرية ، ذهب محمد الطلال برافقـــه العوني وصفوة الموالي الذين أخرجوه من السجن ولا سيما المخلصين له .

ذهب في بداية الامر الى قبيلة شعر قاصدا أن يلم : م ويوحدهم ليقفوا صفا واحـــدا أمام العدو والمهاجم للبلاد . ولكن القبيلة كما ذكرت كانت متفككة لعدم وجود قيادة توحدهـا ولا أمل في عودتها الى التضامن كما كانت سابقا ، وعندئذ شخص ابن الطلال ورفاقه الى بلـــدة

الجرف التي كانت تحت نفوذ ابن رشيد وذلك .

كاد وان يذهبوا لقمة سائغة لولا رأى العوني السديد

عندما كان ابن طلال ورفاقه ماضين في سبيلهم الى الجوف ، اصطدموا في قوة لا قبل لهم بها يقودها الامير سعود (١) النجل الاكبر للامام عبد العزيز . وذلك عندما كان فاتحا لاطراف بلاد ابن رشيد ، وقد صب غارته على نفر من قبيلة شمر في موقع يسمى (الصحن) شمالا عن حائل . وذلك في سنة ١٣٣٩ هـ .

كان محمد الطلال ورفاقه في موقع قريبا للغاية من (الصحن) الذى صب الامير سعود غارته عليه ويقول شهود للعيان ، لو أن سعودا مضى في سبيله وواصل غارته لامكنه أن يقضي على ابن طلال ومن معه لانه لم يكن لدى ابن طلال أية قوة تستطيع أن تقف امام غارة سعود لحظة واحدة . اللهم الا رأى العوني السديد الذى كان خير سلاح تذرعت به تلك القوة ، ولولا ايضا أن سعود شاء أن يغتنم ابن طلال ورفاقه بطريقة سليمة ، لولا هذان السببان بعد ارادة الله لما سلم ابن طلال والعوني ورفاقهما القلة من الجيش السعودى العرمرم ، وقد جاءت اسهاب السلامة على الشكل الاتي :

بعث قائد الغزاة الامير سعود مندوبا يحمل رسالة تتضمن دعوة الامير محمد بن طلال للاستسلام وله عهد الله بأن يكون موضع معاوة واكرام كعزيز قوم محترم عند سيد قوم ، وقد

---

(١) أى الملك سعود السابق .

حدد الامير سعود القبول أو الرفض بساعات معدودة تبتدئ من حين وصول مندوبه الذى يحمل الرسالة ، فان قبل الاستسلام ابن طلال فيها ، وان لم يقبل فانه سيصب غارته عليه .

وعلينا أن نعلم أن قائد الغزاة حتى تلك اللحظة لم تفته الفرصة التي يصب بها غارته على ابن طلال في الحين الذى يرفض قبول الاستسلام ، وذلك لان قوم الامير سعود كانوا قريبين من الموقع الذى فيه ابن طلال بصورة كما أكد بها الراوى (١) قائلا انهم كانوا يرون غبار غزاة الامير سعود رواية العين . وهذا مما يجعلني اكرر القول مؤكدا بأنه باستطاعة الامير سعود ان يجهز على ابن طلال ورفاقه ويبددهم من بكرة ابيه فيما اذا عاد مندوبه بعدم قبول الاستسلام .

لم يكن لدى ابن طلال الا واحدة من امرين ، اما الموافقة على هذا الطلب ، اى الاستسلام او الرفض واذا رفض فمعناه انه عرض نفسه لخطر هذا الغازى الذى سوف يقضي عليه بقوة لا يوجد لابن طلال قوة تستطيع مقاومتها او الوقوف امامها لحظة واحدة ، كما انه لم يكن لديه من الوقت ما يجعله يلوذ باذيال الفرار او الهزيمة .

ما هو الوجه الأمثل الرأى ، وما الحيلة ؟ لم يكن بين رجال ابن طلال رجل بامكانه ان يحل المشاكل العويصة كشاعرنا العوني الذى جرى بينه وبين محمد الطلال الحوار الاتي :

محمد بن طلال : وافنا برأيك يا أبا عبد العزيز (كنية للعوني) .

العونـــــي : الامر بسيط جدا ولا يحتاج الى كثير من التفكير .

ابـن طلال : افدنا الآن لان ابن سعود حدد الوقت لرسوله ، وهذا الرسول يطالبنا بالاجابة سواء بالنفي او بالموافقة قبل ان يمضي ساعة عندنا .

---

(١) الراوى لهذه الحادثة هو ذعار النافع الذى كان من ضمن قوم محمد بن طلال ويتحدث حديث شاهد عيان .

العونـــــي : علينا الا نرفض هذا الطلب بصورة محسوسة . بل نرحب به ونقبله ونقنع سعودا بصورة شكلية بأن هذا الطلب هو اقصى امانينا حتى يطمئن هذا الغـــازى ويثق بأننا صادقون اى نود أن نتظاهر له بالاستسلام ، وحتى ما وثق واعرض عن مفاجأته لنا بغارة يصبها علينا . ونحن بهذه الفرصة التي يكون العـــدو غافلا عنا بها نسرى ليلا ونهارا حتى نكون قد ضمنا لانفسنا السلامة مـــن هجومه المفاجئ .

ابن طـــلال : اصبت من حيث الاصل ، ولكن دلنا على الرأى الذى تشير اليه به لنتخـذه قبل ان تنتهي المدة المعينة .

العونـــــي : علينا أن نحرر رسالة تتضمن مايلي :

(نحن لا نريد الا السلامة ولا مطمع لنا الا بها ولا نذكر ورائنا بحائل الا الموت الذى كان يهددنا كل لحظة . ذكرني العوني في حيلته الطيبـــة بالمكر والكذب قول الرصافي وأقبح الكذب عندى مايمازجه شيء من الصـــدق تمويها على الفكر وقد مضى العوني في حيلته هذه الى ان قال : ونرحب بهذا الطلب ونوافق عليه كل الموافقة شريطة أن يكون هذا الاقتراح مصدقا عليه مـــن قبل والدكم الكريم مع ثقتنا الكبيرة انكم تنوبون عنه . ولكن ليكون اطمئناننا علـى سلامتنا ومستقبلنا اكثر . وذلك متى ما جاءتنا رسالة من حضرتكم مشفوعـــة بختم الاب الاكبر والد الجميع الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن .

ابن طلال : لا فض فوك ، هذا هو الرأى الذى يمكن أن نلجو به .

العونـــــي : هذه الرسالة يجب ان يذهب بها رسل من قبلك من الرجال الذين نثـــق

بهم ومن الآن عليك أن تختار هؤلاء الرجال وتسرّ لهم بالحقيقة ليعودوا الينا بالموقع الذي سوف نعينه لهم ومن ثم يكتب كاتبك مسودة هذه الرسالة وتسلمها لرسل ابن سعود . وعند ذلك تنحرف وتناجي الرسل الذين تثق بهم وتتحدث معهم بصورة علنية امام رسل ابن سعود قائلا لهم: اذهبوا الى اخي سعود برفقة رسله واني بانتظاركم بهذا الموقع حتى يأتيني رد رسالتي هذه من اخي سعود .

ذهب رسل سعود الذين يحملون تلك الرسالة التي اشرنا اليها او قل يحملون معناها لا لفظها كما ذهب رسل ابن طلال مرافقين لهم.

وحالما ذهب هؤلاء الرسل نفذ ابن طلال خطة العوني التي تقضي بأن ينهزم من مكانه هذا فورا ويدلج ليله كله ولا يستريح وقومه الا بقدر الحاجة الماسة حتى يصلوا بلدة الجوف ، ويتحصنوا بها . اما رسل ابن طلال فقد اخبرهم الامير ابن طلال حسب ارشادات العوني بأن يظلوا متأخرين ما استطاعوا عن الغازي سعود .

وقد كان الموعد النهائي لهم هو بلاد الجوف . وهكذا نجا ابن طلال بفضل دهاء العوني وحنكته .

خلاف بين من يعقل وبين من لا يعقـــــــــل :

عند ما استقر محمد الطلال بالجوف ، وأخذ مدة قليلة هناك وقع خلاف بالرأى بين العوني ، وبين حاشية محمد الطلال الذين رافقوا بسفرته هذه ، وهم انفسهم الذيـــن اخرجوه من السجن ، وكان البون شاسعا الى ما نهاية له بين العوني وبين اولئك الموالـي بين من يعقل وبين من لا يعقل ، ولا يفهم ، ولا يدرى بأنه لا يعقل ولا يفهم .

كان الخلاف بالرأى يدور بين هؤلاء الحاشية الذين يرون ان لا بد من العودة الـى حائل ليرفلوا عند اهلهم ، وبالتالي ليتولى صاحبهم محمد الطلال الامارة ، لان الرسائـــل بدأت تتوافد على صاحبهم من بعض أهل البلاد وكلها تفيض بطلبه العجيب المهم ومن المعلوم ان عودة محمد الى حائل يعني تولية الامارة بأى شكل من الاشكال وهذا منتهى مايتمناه وتصبوا اليه الحاشية وهو أن يروا صاحبهم الذى منوا عليه باخراجه من السجن أميرا ، وهذا معنـــاه ان كل فرد من هؤلاء سوف يكون بمنزلة الوزير ، اوليس هم الذين غامروا بحياتهم وأخرجـــوه من السجن وحطموا سلاسل الحديد عن رجليه ؟ اذن لا بد من العودة الى حائل بأســـرع وقت ممكن .

كان هذا رأى اولئك الموالي ، بينما كان العوني يرى خلاف هذا الرأى ـ بل يـــرى ان العودة الى حائل تعني الانتحار ـ وهكذا بدأ الخلاف بين شجعان السواعد والقلوب ـ وبين شجاع العقل والرأى . وكان محمد الطلال في تلك الايام آلة صماء بيد اولئك الموالي (١)

---

(١) كان ذلك قبل أن يتولى محمد الامارة ـ أما بعد ان تولى الامارة فقد اوقفهم عند حدهم حتى أنه أراد أن يقتل عبد الرحمن الحوطي الذى هو من اشجعهم قلبا وافرغهم عقلا . عند ما تجاوز الحد .

واليك الحوار الذى دار بين العوني وبين المعارضين له ـ على الوجه الاتي :

العوني ـ ايها الاخوان لا أرى لنا أية فائدة مجدية من ذهابنا الى حائل ـ بل الذى أراه ان ذهابنا الى حائل في الوقت الحاضر يعني الانتحار وذلك من الوجهتين الداخلية والخارجية ، فمن حيث الداخل فهذا شيء لا يحتاج الى دليل . فكلكم يعلم بأن لوقام اى واحد من حاشية عبدالله المتعب بمغامرة قتل بها محمد الطلال ـ لكانت علينا جميعنا كارثة سوداء لان محمدا كما تعلمون وحيدا ليس له من يأخذ بثأره لا ابنا ولا اخوان من بيت آل طلال ـ بينما عبدالله المتعب لو قدر أن نظفر بقتله فان ابناء عمه خمسة [1] وليس من السهل ابادتهم جميعا ـ هذه الحالة من حيث الوضع الداخلي اما من حيث الوضع الخارجي فان حائل عما قريب جدا سوف يغزوها عبد العزيز بن سعود ، وسوف يشدد الحصار عليها ونحن اذا ذهبنا الى حائل في هذا الظرف الحرج فهذا يعني اننا جئنا من الفضاء الى الضيق ـ ومن الحرية والانطلاق الى السجن فكأننا قلنا لابن سعود هلم الينا بقدر ما يمكنك من السرعة ـ تعال وشدد الحصار علينا وطوقنا ما دمنا مجتمعين ـ طوقنا قبل أن يفر واحد من اسرة آل الرشيد الى الخارج ويأتي لك بالمشاكل فيما بعد .

لقد اصغى الموالي المعارضون الى رأى العوني بأذانهم فقط ـ اما عقولهم فانها فراغة من فهم المعاني التي يرمي اليها العوني كفراغ فؤاد ام موسى ـ ولكن هذا لا يمنعهم من أن يسألوا العوني عماذا يقصد من وراء حديثه هذا وكان غايتهم من سؤالهم التحدى لا الاسترشاد والاهتدى الى افضل السبل . ولذلك قال هؤلاء المعارضون :

ـ وما هو السبيل الذى ترى ان نسير عليه .

العوني ـ الرأى الصائب والضمن لنا النصر طول المدى ، او على الاقل السلامة لنا من المصير السيء هو ان نختار واحد الامرين . اما ان نظل هنا في الجوف كقوة خارجية ولو من الناحية

الرمزية بصورة تجعل شعبيتنا من أهل البلاد ومن رجال قبيلة شمر كلما لها بازدياد فتكون كسبنا تأييد الاكثرية من حيث الداخل ، واما من حيث الخارج فان وجودنا خارج البلاد سوف يجعل ابن سعود لا يستعجل بمحاصرة البلاد كاستعجاله ونحن مجتمعين فيها . هذا الرأى الاول واما الرأى الثاني فهو أن نذهب الى جزيرة الفرات ونستنجد برجال قبيلتنا شمر القاطنين هناك . فاذا جاء العدو غازيا لبلادنا ومحاصرا لها عندئذ نهاجمه من الخلف أو نذهب الى حاكم الحجاز الشريف حسين ونطلب منه أن يمدنا بقوة من عنده — حينما تحاصر بلادنا . لتفك الحصار عنها عندما نأتي مهاجمين من الخلف او على الاقل نخفف وطأة الحصار عن البلاد عندما نشغل العدو من الخارج ، ورفاقنا يشغلونه في البلاد من الداخل .

المعارضون — واذا قدرنا وافقنا على رأيك هذا ومن ثم ذهبنا شمالا الى شمر في جزيرة الفرات — او ذهبنا الى الشريف حسين في الحجاز ، ومن هناك طلبنا النجدة منهما ، ولم يلب واحد منهما النجدة — ثم جاء ابن سعود وحاصر البلاد واستولى عليها . فما هي الفائدة من بقائنا في البلاد الغربية سواء في الحجاز او في جزيرة الفرات ، أوليس من الافضل لنا ان نذهب الى بلادنا وليقاتل الواحد منا الى آخر نقطة من دمه دون وطننا ودون محارمنا وأطفالنا بدلا من أن نهرب عن بلادنا وهي في أشد الحاجة الينا في محنتها الراهنة .

العوني — دعوني اجيبكم واحدة واحدة على كل جملة من حديثكم هذا .

---

(١) كان ابن عم عبد الله المتعب خمسة كما حدد عددهم العوني وهم مشعل وعبد العزيز ومحمد ومتعب وسعود الذى كان حملا عندما قتل والده فسمي باسم والده .

أولا : اعتقد جازما ان ابن سعود عندما يعلم ان محمدا الذى هو ابرز اقطاب اسرة آل الرشيد خارج البلاد . فانه لا يكون عنده ذلك الحافز الشديد في محاصرته للبلاد كالحافز الذى يجده عندما يعلم ان جميع رجال اسرة الحكم مجتمعون في البلاد — فهناك سوف لا يدخر وسعا من المبادرة الى العجيء ليجتث الدوحة من جذورها .

ثانيا : لو قدرنا ان ابن سعود — اخلف نظريتي هذه وجاء للبلاد وحاصرها ثم استولى عليها بعد ذلك . فهل ترون انه من الافضل لنا أن نكون خارج البلاد ونشكل امارة باسم امرنا فيظل اسم ابن رشيد باقيا . ونظل نحن أحرارا نتربص الدوائر بالعدو ، ونكون على اهبة الاستعداد للانقضاض عليه عند أ (فرصة تسنح لنا . ادنى

ومثل العوني بحديثه الذى يريد ان يقنع به هؤلاء المعارضين الى أن قال : أريد أن اضرب لكم مثلا قريبا لاذهاننا جميعا . فماذا تظنون لو أن محمد بن رشيد عندما استولى على الرياض وتمت له السيادة في نجد ، لو قدر له أن يجتث اسرة آل سعود بكاملها . ولم يلجأ من افراد اسرة الحكم الى الخارج اى واحد منهم كما التجأ الامام عبد الرحمن الفيصل بذهابه الى الكويت — ترى لو شاء القدر أن يوفق محمد الرشيد الى نجاح هذه الخطة ايمكن أن يجد آل رشيد من يهددهم في عقر دارهم أو من ينازعهم السيادة في نجد ؟ .

ثالثا : انتم تحتجون بأنكم تودون أن تعودوا الى البلاد لتقاتلوا دون محارمكم وأطفالكم ،، وهذا واجب لا بد منه ، ولكن مصلحة البلاد ومصلحة اطفالكم في الوقت الحاضر والمستقبل ، كل ذلك تقضي أن يكون محمد خارج البلاد اما الان فيكم من يرى ان الواجب

الوطني يفرض عليه ان يذهب ويقاتل دون وطنه حتى النصر او الشهادة فمن يرى هـــذا الرأى فليتوكل على الله ويذهب ، او فلنذهب جميعا الى البلاد اللهم الا الامير محمد ، فاننا لا نريد قطعيا ان يذهب ولا تقتضي المصلحة أن يذهب ، بل الافضل ان يبقى خارج البلاد كرمز للامارة يعول عليه الامل عندما يدعو الامر الى ذلك على النهج الذى اوضحتـه في حديثي هذا .

المعارضون — من المعروف عند اهل نجد كلهم بأنك يا العوني رجل قضيت حياتك كلها (مدفع ملفح) وتريد ان تشتت شملنا وتبعدنا عن اهلنا كما شتت الله شملك في حياتك التـي قضيتها تارة عند ابن صباح — وأحيانا عند ابن سعود . وطورا عند آل خليفة وأحيانا عنـد آل سعدون — وما من بيرق الا ورقصت تحته من جميع هذه البيارق . وأخيرا جئت الينـا تريد أن تبعدنا عن بلادنا لنعيش أغرابا عن وطننا ولا يهمك ذلك لانك قضيت حياتـك يجب أن يكون اديبا . لا يدخل نفسه بشؤون اهل البلاد فما عليك الا أن تقف عند حدك كضيف كريم . وان تماديت في تطفلك هذا فسوف يكون لنا معك شأن قد لا تحمد عقباه . وسوف تكون أنت المسؤول عما ينالك بأسباب تدخل بشؤوننا .

عندما رأى العوني لهجة هؤلاء الموالي انتقلت الى التهديد — هناك شعر أن حياته يخطر فيما اذا ابدى أية كلمة تشير الى رأيه الاسبق ولذلك نجده استسلم للامر الواقع حينمـا رأى ان لا سامع له (٢) ولا مجيب ، وقد اكد الرواة ان العوني اظهر علنا التراجع عن رأيـــه

---

(١) نقل لي بعض الرواة شهود العيان بأن العبيد قرروا ان يقتلوا العوني فيما اذا استمر مصرا على رأيه . اما انهم تعمدوا اهانته بمعاملتهم له الغير لائقة فهذا شيء معروف ولا يحتاج الى دليل .

(٢) يصح أن ينطبق على العوني ورفاقه كالمعنى اللذى قال عنه الشاعر :

واشقى الورى عقلا واقلقهم نهـــى ... لهيك بـداوى في نهاه رعاهـــا

وابداء الرأي

وذهب يحبذ رأى اولئك المعارضين باسلوب يشبه الى حد بعيد الاسلوب الذى مثله ، داهية العرب المغيرة بن شعبه عندما أشار على علي ابن ابي طالب عندما تولي الخلافة بأن لا يستعجل بعزله معاوية عن ولاية الشام مؤكدا لعلي بأنه ان فعل ذلك فان معاوية سوف يرفض الاذعان لعزله . وان لا يعترف بخلافته . وان يذهب بالتالي يطالب عليا بدم ابن عمه عثمان . ولكن عليا رفض قبول رأى المغيرة وأصر على عزله لمعاوية . وعندما رأى المغيرة اصرار علي خشي أن يتهمه بعدم ولائه له : لذلك تراجع حالا عن رأيه الاسبق وأظهر لعلي انه مخطيء في رأيه الاول وقال أن الرأى السديد هو ما يراه امين المؤمنين علي الذى ينظر بنور الله !.!

ويفيد المؤرخون انه عندما خرج المغيرة من علي دخل على علي بصورة مباشرة ابن عمه عبد الله بن العباس فأخبره علي المغيرة الاول ـ كما أخبره بتراجعه وتحبيذه للرأى الثاني المعاكس لرأيه الاسبق فقال ابن العباس : نصحك المغيرة في رأيه الاول وغشك في موافقته لك برأيه الثاني .

وهكذا نجد العوني لا يكفي منه انه تراجع عن رأيه الاسبق او انه وقف من رأى معارضيه موقفا سلبيا ـ بل ذهب يؤيد اولئك الموالي الرأى في ذهابهم الى حائل وراح يحبذ فكرتهم سائرا لهم الى أبعد مدى لا بالكلام الصامت بل راح ينشد القصيدة تلو القصيدة معلنا لهؤلاء الموالي تأييده لهم في رأيهم لئلا يقصفوا أجله

واليك احد قصائده بهذا المعنى :

١ ـ دار لا تحسبين ان البطأ منا ... غفلة عنك باطماع نبديها

٢ ـ لو تردد رحلنا ما تردد نا ... نضرب الكود والدبره نعفيها

٣ ـ العدو لادنا منا تهينا ... بالعمار الغوالي ماننقيها

٤ — يوم جينا نبي شعر تعاونـــا مثل جارى عوايدها وماضيهـــا

٥ — يوم جينا الرفاقة جنبوا عنـــا خلو الشيمة العليا لراعيـــها

٦ — والبعض قام يرمينا ويطعنـــا مع اعدانا علينا قـــام يوسيهـــا

٧ — يوم كل غذا دقنه او فاتنـــا او علومه على العـــدوان مبديها

٨ — يوم مطني وغضبان اجزلوعنـــا وياو سدوح حـــرب راح يتليها

٩ — يحسبونه قفت واسوا بنا الظنا مادرو الجبال سيالها فيهـــا

١٠ — حيف هتب الهدير وقولهم حنا حولت مع مقافيها نخاويهـــا

١١ — ليت عين الضارى ما خفت عنا يوم سقنا المعادى عن مغاليها

الشـــرح :

١ — عندما يقول الشاعر "يا دار" فهو بمعنى البلد او الوطن — فالعوني هنا يقـول أيها الوطن يعني حائلا وأهلها — لا يخيل اليك اننا في اقامتنا هذه التي طال مداها — غافلون عن نجدتك بحافز الاطماع المادية .

٢ — اذا شاء الجبان الوعديد ان يتردد عن المغامرة في سبيل انقاذ البلاد من صولـة العدو فانه ليس من شيمتنا ان نتردد بل سوف نغامر ونقتحم العقبات الكادا حتـــى نحمي وطننا من سيطرة العدو .

٣ — فاذا دنا العدو بجيشه هاجما على وطننا فاننا سوف نجعل حياتنا الغالية فـــداء لوطننا ولن نتوارى قطعيا عن التضحية في نفوسنا دون تربة الوطن .

٤ — عندما جئنا نريد من رجال قبيلتنا شعر أن يعاضدونا في محنتنا — كما جرت بـــه العادة .

تخلوا

٥ — حينما أردنا من رفاقنا المعونة من شمتهم وتركوا الشيمة لاهلها — يعني أهل حائل الذين ثابروا على مكافحة العدو.

٦ — ولا يكفي من رجال قبيلتنا ان لا يعاضدونا بل ذهبوا يرموننا بسهامهم ويطعنوننا من الخلف واقفين بجانب اعدائنا يضرمون النار علينا.

٧ — وقد ذهب كل فرد منهم يرضي لحميته ويقاتلنا (١) والبعض الاخر ذهب يقدم نساءه بزواج شرعي يقترب بهن الى اعدائنا (٢).

٨ — وهذا الفارس (مطني بن شيم) وعقيد القوم الشجاع (غضيان بن رمال) كلاهما نأيا بجانبهما عنا — وها هو (ابو ممدوح) يقصد عدوان ابن رمال. فهذا أيضا ذهب يتلوى تحت لواء قبيلة حرب — تاركا قبيلته شمر.

٩ — لقد ظن هؤلاء اننا استسلمنا نهائيا وان المقاومة ماتت في نفوسنا — اما علموا ان اباة الضيم احياء وسلما — لا زالوا شامخين بانوفهم غير مستكينين.

---

(١) يشير المؤلف بصدر البيت السابع الى بعض من رجال قبيلة شمر الذين امنوا بعقيدة الاخوان المتدينين الذين ارخوا لحاهم. وراحوا يقاتلون ابن رشيد معتقدين كفرة كما مرينا ذلك.

(٢) يشير بذلك الى بعض رجال شمر الذين شملتهم عقيدة الاخوان. وذهب بعض منهم ينكح فتياته من بعض رجال القبائل الاخرى اعتقادا منهم بأن من الخير ان تتم المصاهرة بين المتدينين من كل قبيلة حتى تتوثق عرى الاخوة من شتى الروابط الرحمية والعصبية.

الامير الذى جاءته الامارة بدون سفك دم ..

أجدني مصيبا فيما اذا قلت أنه ما من أمير من امراء بيت آل رشيد الاثنى عشر الذين تبوأوا اريكة الامارة بدون اراقة دم اللهم الامراء الاربعة وهم طلال الذى تولى الامارة بعد والده ومتعب الذى توالها بعد أخيه طلال وعبد العزيز الذى تولاها بعد عمه محمد وهذا الامير الاخير محمد الطلال وما عدا هؤلاء فان كل واحد من الثمانية جاء بعد نثر الدم الساخن فالمؤسس الاول الذى هو عبد الله العلي بن رشيد الذى تولى الامارة في سنة ١٢٥٠ فهذا وان يكن جاء الى الحكم عن طريق الامام فيصل بن تركي آل سعود .

ولكنه عند ما وصل الى حائل وجد آل علي اصحاب الحق القديم في الامارة فوقع قتال بينهم وبين عبيد شقيق عبد الله كانت الغلبة لعبيد فقتل من استولى عليه . ونجى بنفسه هاربا من سلم من آل علي من القتل .

ثم جاء من بعد عبد الله ابنه طلال فلقي حتفه منتحرا في سنة ١٢٨٣ — وتولى الامارة شقيقه متعب فمات قتيلا من يد ابن اخيه بندر بن طلال في سنة ١٢٨٥ وهذا ايضا مات قتيلا من يد عمه محمد بن عبد الله سنة ١٢٨٩ ومات محمد موتا طبيعيا بعد مرض ألم به وذلك في سنة ١٣١٥ . وتولى الامارة بعده الامير عبد العزيز بن متعب . فيكون هذا هو اول امير من حكام آل رشيد ما عدا طلال تولى الامارة بدون اراقة دم . وقد مات عبد العزيز قتيل معركة بليل داس — وقعت بينه وبين الامام عبد العزيز بن سعود في سنة ١٣٢٤ . فتولى الحكم من بعده ابنه متعب . وفي سنة ١٣٢٥ قتل متعب وأخويه مشعل وسعد وابن عمهم طلال والد محمد قتلوا جميعا بيد ابناء عمهم واخوالهم سلطان وسعود وفيصل . وقد تولى الحكم سلطان وهذا قتل أيضا بيد

١٠- الا وا أسفاه على فرسان شمر الذين يرون بأنفسهم أنهم كالاسود الغاشمة ، كيف نزلت الى الحضيض تلك النخوة وذلك الشمم نزولا بدأ يتدرج رويدا من اعلى الرأس الى أسفل السافلين .

١١- ألا ليت الفارس (ضارى) [1] ليرى موقفنا الضارمة الصالمة عندما صددنا هجوم العدو عن الفلاة من حدودنا .

هذه القصيدة واحدة من القصائد التي انشدها العوني في تلك المناسبة التي اشرنا اليها ، وله قصائد أخرى بعد أن عاد الامير محمد الطلال الى حائل وتهيأ أريكة الحكم كما سنوضح ذلك عما قريب .

---

(١) يقصد ضارى ابن طوله . فهذا هو الفارس الوحيد الذى ظلت تخوته القبيلة كما كانت فلا هو الذى انقاد الى مذهب الاخوان كما لم يذهب الى جزيرة الفرات بل جاء الى حائل يقاتل حتى قتل .

انظر ص (١٦١) ج ٤ من شيم العرب للمؤلف .

شقيقه سعود في سنة ١٣٢٦ وسعود قتل صبرا في العام نفسه الذي قتل به أخاه . وتولى الامارة سعود بن عبد العزيز بن متعب. وهذا ايضا قتل سنة ١٣٣٨ قتله ابن عمه عبد الله بن طلال على الوجه الذي مرينا شرحه . فتولى الامارة من بعده ابن اخيه عبد الله بن متعب بن عبد العزيز بن متعب ، وعبد الله هذا عندما وجد أن اهل البلاد خرجوا لمقابلة محمد بن طلال بصورة تكاد أن تكون اجماعية . وذلك عندما جاء محمد قادما من الجوف الى حائل . فكانت مقابلة أهل البلاد له مشاة وركبانا التقوا به على مسافة عدة أميال من مدينة حائل . فكان محمد في مجيئه هذا فاتحا . وعندئذ لم يسع عبد الله وقلة من حاشيته الا أن ترك البلاد . وشخص نحو الامير سعود نجل الامام عبد العزيز ، الذي كان معسكرا في موقع قريب من مدينة حائل وهي قرية تسمى « بقعا »[1]. وبعد ذهاب عبد الله المتعب من حائل — بعد ذلك جاء محمد الطلال وحكم البلاد . وعلى هذا الاساس يكون محمد الامير الرابع الذي تولى الحكم بدون اراقة دم . كما كان هو آخر امير انتهت امارة الرشيد على يده علما بأنه لم يكن مسؤولا عن نهايتها لانه جاء على انقاض حكم متداعي .

---

(١) الرواية المتواترة والمشاعة بصورة اجماعية تفيد ان ذهاب عبد الله المتعب الى ابن سعود ، انما هو بتأثير رأي سليمان العنبر ، وان سليمان اراد ان يضع له يدا عند ابن سعود عندما جاء له بأكبر البلاد عبد الله المتعب ، ويزيد الناقدون او المبغضون لسليمان العنبر بأن سليمان بصفته هو الدماغ المفكر في حاشية الامير عبد الله المتعب. كان بامكانه ان يشير على عبد الله المتعب الصبي الحديث السن بأن يذهب للعراق أو أن يذهب الى الحجاز نحو شريف مكة الحسين بن علي بدلا من أن يذهب به الى الخصم القوي المحاصر للبلاد ، هكذا يقول هؤلاء . ولكن الرواية التي انقلها من

المرحوم عبدالله المتعب ، تفند هذه الرواية من حيث الحقيقة ، فيقول عبدالله انني عندما وجدت نفسي وحيدا ماعدا قلة لا يوابه لها من حاشيتي عند ذلك عقدت اجتماعا كان اكبر الحاضرين به واعمقهم فهما وادراكا سليمان العنبر ، فتبادلنا الرأى فيما بيننا ووجه سليمان الي كلمة قال فيها ما هو رأيك فأجبت سليمان فيرا قائلا أرى ان نذهب الى ابن سعود فأجاب سليمان بالموافقة والتأييد دون أن يبدى أية معارضة .

هذه الرواية أنقلها للقارئ من لسان عبدالله المتعب ولا بد ان هناك من الاخوان الذين لهم صلة بعبد الله سمعوا منه هذه الرواية لانه عندما تأتي المناسبة يتحدث بها وما اكثر المناسبات في ذلك المجتمع الذى لم يتطور او يبتعد عن ماضيه الاسبق كما ابتعد الان بفضل شيوع الراديو والصحافة والعلم الحديث .

هدوء يسبق العاصفة

بعد الفترة التي تخلى بها الامير ابن متعب عن امارة البلاد ، وفي بداية تولية ابن طلال الامارة – في هذه الفترة المحدودة القصيرة الاجل حصل هدوء واطمئنان في الداخل والخارج . وقد جاء الاطمئنان الذى في الداخل من عدم وجود الشخص المنافس للأمير الحالي – الذى خلا له الجو بعد ذهاب ابن متعب – واما الهدوء الخارجي فقد جاء نتيجة لعدم وجود قوة تحيط بالبلاد كما كانت سابقا – عندما غزا أطراف البلاد الامير محمد بن عبد الرحمن اخو الامام عبد العزيز – كما غزاها الامير سعود . في تلك الغزوة التي سلف ذكرها – وقد عاد هذا الاخير مصطحبا معه أمير البلاد ابن متعب .

وفي هذه الفترة الوجيزة – خرج الامير الجديد من البلاد ليصفي حسابه مع بعض رجال القرى المتاخمة لمدينة حائل – الذين كانوا عرضة للعقاب والتنكيل من كلا الجانبين ؛ جانب ابن سعود وجانب ابن رشيد فالاولون عندما استولوا عليهم نالوا منهم أشد العقاب بحجة أنهم اتباع لابن رشيد . والآخرين عندما رحل عنهم قوم ابن سعود عاقبهم الامير الجديد ابن طلال عقابا ضرب به أعناق عدد من اهالي قرية " موقق " التي تبعد عن حائل مقدار مائة كيلو متر . ومن موقف ايضا شخص الامير ابن طلال الى قرية الروضة التي يقيم فيها رجال اعلنوا عداءهم لابن رشيد . وعلى رأس هؤلاء الاعداء رجل يقال له الشيخ ناصر السعد الملقب – بالهواوى – وهو من رجال الدين الذين افتوا بتكفير ابن رشيد . كما ان هناك رجلين يحذران حذو الشيخ الهواوى في تكفيرهما لابن رشيد لانهما اشد خطرا عليه من الناحية العسكرية وهما رجل يقال له هذال والآخر يقال له مغيث . والجدير بالملاحظة ان كلا من هذال ومغيث وشيخهما الهواوى الجميع من قبيلة شمر اى قبيلة ابن رشيد .

وقد هب أمير البلاد ابن طلال غارته على قرية الرودة وظفر بضرب عنق الشيخ الهواوى ، وهذال . فالاول قتل صبرا والثاني قتل في المعركة .

وفي اثناء ذلك الهدوء الذى كنا قلنا بأنه سبق العاصفة . ذهب العوني ينشد قصيدة حربية جاء منها قوله :

دار ماهي سواليف المـــروى	اهجي جاك شمال الجنابيـــا
جاك نجم من النمرود داوى	ميز الموت زيـزوم الطنـابيـــا
صارم حازم ومـــره سمـــاوى	يفضخ الـراس بوساع الهـوابيـا

ـ يخاطب العوني اهل البلاد اى اهالي حائل قائلا لهم اياكم ان تظنوا ان الامور كما كنتم تعرفون من الحكام السابقين المترددين في اقتحام الشدائد ـ لا ليست الحال كما كانت عليه بالامس ـ بل كونوا يا أهل البلاد في اطمئنان لان ازمة الامور تولاها فتى شديد المراس قوى البأس لا يبالي في اقتحام الشدائد والصبر والمثابرة على المحن والنكبات مهما عظم هولهما . وفي البيت الثاني يؤكد ماجاء في البيت الاول من المعاني التي وان اختلف لفظها فان معناها لم يختلف كما ان المعاني التي بالبيت الثالث لا تعدو من أن تكون طبق الاصل للمعاني التي بالبيتين السابقين .

واذا كانت فترة الهدوء هذه انخدع فيها العوني الذكي البعيد الغور أوانه أراد ان ـ يخدع نفسه ويخدع مواطنيه فما بالك بالنفر البسطاء شجعان الساعد والقلوب فارغي العقـــل والفكر ـ الذين لا ينظرون للامور الا بقدر مايضع احدهم به قدمه في الارض ، واهني بذلك الذين خالفوا رأى العوني سالف الذكر ومنهم على شاكلتهم من اولئك الرجال يرحمهم الله ، الذيـــن قاتلوا قتال الاشاوس الابطال دون تربة بلادهم وماتوا ميتة النضال والشرف . وذلك عندما هبت العاصفة ومزقت ذلك الهدوء شر ممزق كما سيأتي شرح ذلك .

طما بأن لو قدر الله بأن يأخذوا برؤى العوني كما عندما كانوا بالجوف لربما نجو من ذلك المصير السيء ، ولكن أين يذهبون من ارادة الله والخير كله فيما بعد .

زرع العوني زرعا حصده غيره

من الامور الصعبة التي يلاقيها الانسان في هذه الحياة الفانية ـ تلك التي يبذل فيها المرء كل مالديه من الجد والجهد ويتفانى في سبيل نموها وازدهارها وتوطيدها حتى اذا رسخت ونمت جاء قوم لا بالعير ولا بالنفير . ومن ثم استولوا عليها وقطفوا ثمرتها وادعوا ملكيتها . هذا ما حصل للعوني أو هذا مايزعم أنه واجه مع صديقه الامير محمد الطلال وصديق أخيه مشكلة من هذا النوع .

كيف كان ذلك الجواب ، كما يلي :

عندما غزا الامير محمد الطلال قرية الروضة السالف ذكرها ـ وحينما كللت غزوته بالنصر ، كان يوجد في تلك القرية شخص يدعى " فهيد السحلي " من نفس اهالي حائل ومن سلك ذلك السبيل الذى سلكه الانتهازيون والصادقون في عقيدتهم ـ واعني بأولئك الذين يعتقدون كفر ابن رشيد والمعروف عن فهيد بأنه وان كان شطا الى ابعد حد ولكنه بعيد كل البعد عن الدين اى انه انتهازى بلا شك . وكان فهيد يقرب لمحمد بن شديد خادم العوني الخاص ، فراح العوني يطلب من الامير محمد الطلال أن يعفو عن فهيد بن سحلي في حالة وقوعه بالاسر . قاصدا أن يأخذ من الامير وعدا مقدما بالعفو لابن سحلي . فلم يصغ الامير محمد الى شفاعة العوني ـ بل يقال : ان الامير عندما رأى العوني يلح بطلبه العفو لابن سحلي الذى يعتبره الامير مجرما لايمكن أن يعفو عنه فيما اذا ظفر به[1] ـ يقال ان الامير اجاب العوني

---

(١) لم يظفر الامير بابن سحلي بل فر هاربا على جواده ، حالما شعر أنه ملحوق وان لا سلامة له فيما لو ظفر به . وهو يعيش الى وقت قريب . رأيته شيخا هرما في الرياض سنة ١٩٦٣ .

بجملة تحمل المعنى نفسه الذى قاله له اولئك الموالي في الجوف (انت غريب والغريب ينبغي ان يكون اديبا) ويؤكد الرواة أن العوني عندما اجابه الامير بهذه الجملة قفز من مجلس الاميز من فوره — وقال : (صدقت) .

وسواء اكان جواب الامير للعوني — بحمل الجملة نفسها او لم يكن شيء من ذلك المهم ان القصيدة التي جاء بها العوني تعبر أصدق التعبير عن العوني لم يحظ بالمنزلة التي كان يحلم بها عند محمد الطلال شقيق صديقه ، والذى فعل العوني المستحيل حتى أخرجه من السجن بفضل دهاءه وبعد نظره وسعة حيلته كما اوضح العوني ذلك في قصيدته الآتية :

ادركتها بالحزم والعزم والباس واطفيتها يوم انها كالسعيرة

١) يقول : انا الذى ادركت لك هذه الامارة ووطدت لك اركانها وذلك بفضل ماهذلته من الحزم ، وقوة العزيمة والمثابرة والصبر الشديد . ولقد أخمدت النار المتأججة التي أوشكت أن تحرقك بلهيبها . يشير الى الفترة التي كان بها ابن طلال مهددا بها بالموت عندما كان معتقلا .

جعلت عدوانك يصيرون حراس براى وتدبير وفتل او بصيرة

٢) ان هذا البيت هو ابلغ مافي القصيدة بنظرى . ذلك أنه جاء بالحقيقة كما هي عارية عن كل تمويه والتباس . كما جاء بالادلة القاطعة التي قام بها الرجل من جهوده الفعالة نحو اميره محمد الطلال الرشيد ولهذا تجده يقول :

انا الرجل الذى استطعت أن أجعل اعداءك الذين حاولوا قتلك من قبل والذين زجوك بالسجن بالامس جعلتهم لك جنودا مخلصين وحراسا اوفياء لشخصك هذا كله بفضل ماهذلته من التدابير المبرمة وما اوتيت به من رأى سديد وبصيرة نافذة .

٣- يوم انها قامت من النعاس للسراس واصبح سنى ناره بنجد كبيره

٤- ابعدت عنها يا حمى دن الافراس انا البعيد وصار غيرى ذخيره

يقول الشاعر : يالله العجب ياحضرة الامير ؟ أبعد ماسعيت لك السعي الحثيث وجاهدت جهادا مريرا من اجلك حتى اصبح لكوصوت داو عند ساكني نجد .

٤) أبعد ذلك يكون نصيبي منك الفشل وخيبة الامل ؟ .. ومن ثم يأتي من هو بعيد من قبل ويصير هو القريب وأصبح انا البعيد :

صارت ال ناسي ماهيتناه ياقياس وانا لي الفشلات صار بسريره

٥) يقول : أصبحت امارتك ياحضرة الامير من حظ اناس لم نحسب لهم اى حساب من قبل . اما انا الذى استحق منك التقدير والاعجاب بفضل مغامراتي وموامراتي الانقلابية من اجلك اصبح نصيبي الفشل منك والخسران .

أنا رفيقك يوم يجفونك الناس وانا وديع سدودكم والسريره

٦) أنا لا أستحق هذا الجفاء منك لاني صديقك الوفي في الحين الذى جفاك فيه الناس . كما اني كنت الوحيد المؤتمن على أسراركم آل طلال .

٧) أحسب الى من نلت عز وتوماس يصير كلة جاهه او فخره وخيره

كنت أعتقد ياحضرة الامير انك حينما وصلت الى هذه القمة ونلت كرسي الامارة بفضل جهودى كنت أعتقد أنه سيصير لي من ذلك السهم الوافر من هذا المجد والفخر والخير .

٨) أحسب لو ذنوبي يعدل بالاطماس يكون عندك خف حبة شعيرة

وكنت أظن ايضا اني لو ارتكبت ذنوبا تعادل التلال والرمال ان تكون ذنوبي هذه عندك اخف من حبة الشعير .

٩) دنياك تمضي بين غفلة وهوجاس وصبور ماهي يا بنو بندر قصيره

بهذا البيت تشاءم الشاعر من الحياة كلها فيقول الحقيقة ان هذه الحياة الفانية سوف تمضي كومض البرق بين هم وغم وغفلة وتغافل ونهايتها الفناء . واليك القصيدة باكملها :

١- ادركتها بالحزم والعـــزم والبـاس وأطفيتها يوم انها كالسعـــيّره

٢- وجعلت عدوانـك يصـــيرون حرّاس يراى وتدبـير وفتـــل او بصيره

٣- ومنها نامت مـن الناس للـــراس واصبح سنى ناره بنجد ككبـــيره

٤- ابعدت عنها ياحمى دن الافـــراس انا البعيد وصار غيرى ذخيره

٥- صارت الناس ماهيتناه بقيـــاس وانا لي العشرات صارت بريسره

٦- انا رفيقك يوم يجفونك النـــاس وانا ودبـع سدودكم والسـيره

٧- احسب الي من ثلث عـز ونـومـاس يصير لحيّ جاهه وفخـره وخـيره

٨- واحسب لو ذنبي يعدل بالاطماس يصير عندك خسف حبة شعـيرة

٩- دنياك تمضي بين غفلـة وهـوجـاس صبـور ماهي يابو بندر قصـيره

يقال ان الامير محمد الطلال ، بعد هذه القصيدة وهب العوني أرض مزرعة خاصة لآل الطلال وتسمى المزرعة بـ(الجمرشة) وهذه المزرعة عرفت فعلا بأنها هبة من محمد الطلال — للعوني ولست ادرى هل ان الامير محمد الطلال ، وهب هذه المزرعة للعوني بعد أن أنشد هذه القصيدة كارضاء له ، كما يقال : أم أنه وهبه المزرعة من قبل ، المهم أن العوني كما اشرت لايعبأ بالامور المادية بقدر مايعبأ بالامور المعنوية ، فأحب ما على العوني أن تقبل وجاهته ، ويكون له رأى مسموع اكثر من أن يعطى قناطير الذهب ويحرم من هذه وتلك .

كان العوني يعتقد جازما أنه سيكون الآمر الناهي وذلك مجرد مايستلي محمد الطلال أريكة الحكم ، هكذا كان اعتقاد العوني الذى تفتت على صخرة الواقع عندما اصطدم بالاحداث وجها

لوجه هناك أدرك صحة المثل القائل : بأن الثورات والانقلابات يرسم سبيلهما المفكرون ، وينفذ مفعولها المغامرون ، ويقطف ثمرتها الانتهازيون .

ماهو موقف العوني من ابن طلال لوطال حكمه

يتوقع الكثير من الرجال الذين يعرفون أخلاق كل من الفتى الامير محمد الطلال ، وأخلاق الشاعر المفكر الداهية العوني . ومن ينظرون ببصيرة نافذة الى مجرى الاحداث والعوامل اللتين تحيطان بالامير الشاب من ناحية والشاعر الماكر المقامر طى من لم يمش طوع بنانه من ناحية ثانية ، يتوقع هؤلاء الرجال بأنه لو طال عهد حكم الامير محمد الطلال ، فان الاصطدام بينه وبين العوني سوف يقع على نطاق واسع بصورة تكون النهاية لواحد منهما فاما ان حياة العوني سوف تنتهي طى يد الفتى البطاش الحاد المزاج — واما ان مصير الامير الذى لم يتجاوز سن المراهقة بعد سوف يحوك له الشاعر الناضج السن والعقل ، — والواسع الحيلة — مؤامرة رهيبة تطيح برأسه ، من وزن مؤامرته التي أطاحت بضحيته الاولى الامير مسعود — واما ان يدبر مؤامرة يرغم بها الامير محمد طى الفرار لينجو برأسه ، كما دبر المؤامرة على ضحيته الثاني الامير عبد الله المتعب — الذى ترك البلاد ومن عليها نتيجة لمؤامرة العوني الناجحة في خدعته للموالي الذين اخرجوا السجين محمد من معتقله واصبح بعدها من اسير مهدد بالموت الى أمير يحكم بالموت لمن يشأ ولا راد لامره ومشيئته الا الله ..

اجل .. ان من ينظر الى قوة شكيمة الفتى وصلابته وسرعة انفعاله ، يحكم الحكم القاطع بان هذا الفتى الذى لم يتجاوز سن التمييز باعوام قليلة ، لم يكن من النوع الذى يتخيل العوني بأنه سيضعه في جيبه ويجعله آلة صماء — كما من ينظر الى هذا الامير الفتي

من حيث سرعة تنفيذه لما يدور في ذهنه . وحكمه بالموت فورا وبدون تأني أو تأمل أو قبول شفاعة الشافعين - بأي شخص يرتكب ادنى زلل - ويقع بقبضته . أقول : من ينظر الى أمير البلاد من هذه الناحية فانه يجزم بأنه سيتغدى العوني قبل أن يجعل للشاعر متسعا من الوقت يمكنه من أن يتعشاه . كما تعشى سلفيه الاميرين سعود وعبد الله بالاسلوب الذى مر بنا .

اما من ينظر الى قدرة العوني على انحنائه للعاصفة وعلى الاسلوب الذى يتخذه في تكييف نفسه وصبغة اخلاقه بأي نوع يريده من الاصباغ فانه لا يعتريه ادنى شك بانه لو طال مدى الامير محمد الطلال بالحكم فانه سيكون ضحية العوني الثالث ، وذلك لوجود العوامل المتوفرة التي يستخدمها الشاعر سلاحا يقضي بها على الامير الذى جعل عدوان الاميريكونون حراسا له ، وبعد ذلك لم يجده مطية يضع الرسن في رأسه يسيره كيف يشاء وكما يريد . وخلاصة هذه العوامل التي بيد العوني تأتي كما يلي :

اولا) وجود ابناء الامير السابق سعود وهم خمسة مشعل وعبد العزيز والركاكب ومحمد ومتعب وسعود - فهؤلاء سوف يجد فيهم العوني المجال الرحب الذى يجعل منهم مخلب قط . على نفس الصورة التي جعل منها آل طلال قوة مناوئة للامير سعود ومن بعده ابن اخيه الامير عبد الله .

ثانيا) سيتخذ من الموالي السلاح الذى يشهره بوجه ابن طلال - ليجعلهم يقفون بصف ابناء سعود الخمسة عند اول فرصة سانحة - واذا كان العوني وجد الحيلة التي خدع فيها اولئك الموالي البسطاء - عندما اوهمهم بأن يخرجو محمد الطلال من السجن ليتعاضد مع ابن عمه عبد الله المتعب . فانه سيجد المجال في خديعة اولئك الموالي أفسح وأقرب

للمنطق وأحرى بالصواب - عندما يوصي اليهم بصورة مباشرة او غير مباشرة - مدعما صادقا او كاذبا بانه ثبت لديه ان الامير محمد سوف يعد العدة ليقضي على ابناء سعود الخمسة وسوف لا يعدم العوني الحيلة المنطقية التي يقنع فيها هؤلاء الموالي عندما يؤكد لهم بالعبارة التي يقول فيها - انه وان كان صديقا لال الطلال ، فان اخلاصه لاسرة آل رشيد والمصلحة البلاد العامة تفرض عليه ان يضحي بالفرد الذى هو محمد في سبيل بقاء ابناء سعود الخمسة .

انها حجة لا يمكن ان يفندها العقل - او كما يقال (حجة بطل مصيبة) .

ثالثا) باستطاعة العوني ان يوصي لآل سبهان بأن يهربوا بواحد أو اكثر من ابناء سعود بصفتهم خوال لوالدهم كما انهم الخوال المباشرين لاحد ابناء الامير سعود وهو عبد العزيز - ومن ثم يعيد التاريخ نفسه أى كما ان آل سبهان هربوا بابن اختهم سعود . وقاموا بانقلاب على ابناء حمود العبيد وتولى سعود الامارة بعد قتل آل عبيد كما ذكرنا من قبل - فان الفرصة ستكون مواتية لهم أكثر عندما يتمكنون من أن يهربوا بابناء سعود - أقول ان الفرصة مواتية أكثر لال سبهان من الاولى لان الاولى كان آل عبيد يبلغون ثلاثة عشر نفس - بينما لم يكن امامهم في امارة حائل الا محمد الطلال الشاب الوحيد - هذا من ناحية ومن ناحية ثانية - بينما كان حمود آل سبهان عندما قام بانقلابه على آل عبيد كان معتمدا على ابن اخته الطفل الوحيد بينما اصبح ابناء سعود خمسة - مضاف اليهم ابن عمهم عبدالله المتعب الامير السابق الذى ذهب للامام عبد العزيز - وهكذا نجد الفرصة مواتيه ومتوفرة لال سبهان بصورة تربو عن المناسبة التي قاموا بها في الانقلاب السالف الذكر - كما أن الفرصة مواتيه للعوني ليحوك مؤامرته ضد امير البلاد محمد الطلال - أكثر واوفر من مؤامرته التي اطاحت برأس الامير سعود - وارغمت الامير عبدالله على الفرار .

اما اذا قال قائل : ان الامير محمد الذى كما نعتناه من قليل بانه سريع التنفيذ والبطش بل والقتل فورا لاى انسان يشم منه ادنى رائحة يجدها تهدد امارته بصورة عامة او تهدد حياته بمفهوم أخص - وانه يصفي حسابه مع العوني حالما يخامره ادنى شك في نواياه ضده يجدها تهدد امارته - اذا قال احد ذلك - جاء الجواب من العوني نفسه الذى سوف يطمئن للامير الشاب بالاسلوب وبالطريقة التي تجعل الفتى يتخدع بالعوني ظانا انه لا زال على ولائه واخلاصه له - واليك جواب العوني الذى سينخدع به الامير ابن طلال وهو جواب صريح من العوني من اساليبه الملتوية ومن قدراته على أن يكيف اخلاقه كما يريد - فتجده في قصيدته هذه يقول :

انا لي هرجه مع طول حبس	وانا لي هرجة رمس خفية
وانا لي مشية فوق الرفاع	وانا لي مشية وای الثنية
وانا ان رافقت هقرب صرت عقرب	وانا ان رافقت حية صرت حية
وانا ان رافقت طيب صرت طيب	وانا ان رافقتذل صرت زيه
وانا اهذل مالي دون مرضي	وانا لزم الخوى دون خويه
وانا لي هرجة من دون ابعي	تعيش بها الرفاقة والبقية (١)

---

(١) هذه القصيدة نقلتها من المواطن الاحسائي محمد الدرازى الذى سجن مع العونسي في معتقله مقدار ثلاثة أشهر وستة أيام . واعتقد ان هذه القصيدة من قصائد العونسي التي تعبر اصدق التعبير عن ازدواجية شخصيته ولا اعتقد ان العوني حريص على أن تعرف عنه هذه القصيدة لولا انه في حالة سجنه بالاحساء ويريد أن يروح عن نفسه . في هذه القصيدة التي نقلتها عن الراوى المذكور اسمه اعلاه ونقلتها منه وذلك عندما شدت الرحال من الرياض الى الاحساء في ١٣٨٦/١١/٢٢ - وكان هدفي الوحيد محصورا بأن انقل عن الدرازى مالديه من القصص والقصائد التي للعوني - وقد وجدت الرجل قريبا لما ذكر لي عنه حيث نقلت عنه الكثير مما سوف اورده في المكان المناسب .

وهكذا نجد العيني شاهدا من نفسه على نفسه بأن لديه القدرة على أن يتكون بصورة يستطيع بها ان اراد ان يتحدث بصراحة وباعلى صوته . وان اراد ان يتحدث همسا – ويقول في البيت الثاني ان له القدرة ان يمشي فوق اعلى مكان مرتفع – كما له القدرة ان يسير في مكان ضيق لا تراه الاعين ، ويقول في البيت الثالث انه قادر اذا رافق انسان خلقه كالخلق العقرب فانه بامكانه ان يكون هو ايضا عقربا – واذا رافق رجلا خلقة كخلق الحية فانه سينقلب حية رقطاء وفي البيت الرابع يقول انه اذا رافق رجلا طيبا كيف نفسه حتى يكون طيبا مثله كما انه اذا رافق انسانا نذلا فانه سيكون مثله – ويقول في البيت الخامس انه سوف يبذل ماله دون شرفه وعرضه . كما انه سوف يفي مع صديقه . ويختم قصيدته بالبيت السادس فيقول ان له رأيا سديدا يختص به ويعرف عنه دون غيره وأن رأيه هذا سوف يعيش من ورائه رفاقه ما داموا على قيد الحياة ويعيش به من تبقى منهم الى النهاية .

فالرجل الذى يشهد على نفسه بانه قادر على هذه الازدواجية الخطيرة . فانه بامكانه ان يخدع الامير الشاب ويجعله ثالث ضحية له من بيت آل الرشيد فيما لو طال اجل تلك الامارة – اما وقد كان أجل امارة محمد الطلال لم يتجاوز ستة اشهر كلها مشحونه بالمعارك والحصار العسكرى والاقتصادى – فيما اذا استثنينا فترة الهدوء التي لا تتجاوز شهرين على ابعد حد – ثم جاءت تلك الحرب التي سوف نشرح تفاصيلها واسبابها بقدر ما نستطيع من الاختصار والايجاز وذلك في الفصل القادم .

كيف انتقض الصلح بين ابن سعود وابن رشيد

سؤال يستوعي الانتباه - لقد سبق أن اشرت الى فترة جاء عنوانها (فترة التعبئة الخ) وهي الفترة التي وان كان الامام عبد العزيز قام بتعبئة عسكرية واجتماعية وروحية - في سبيله للهادية . فان الصلح بينه وبين ابن رشيد كان قائماً ولا زالت بنود الصلح معمولا بها خلال تلك الفترة الى ان قتل الامير سعود بن رشيد - عندئذ استدعي الامر عقد صلح من جديد وفقا للاصول المرعية التي تقضي بأن تكون معاهدات الصلح والسلم سارية المفعول مالم يتوفى أحد الحاكمين اللذين ابرمت بينهما المعاهدة ، ووفقا لهذا المبدأ المتفق عليه يكون الامر طبيعيا ان يبطل مفعول المعاهدة التي كانت ابرمت بين الامام عبد العزيز وبين الامير المتوفي سعود بن رشيد . وعلى هذا الاساس اتفق الجانبان على وضع معاهدة من جديد ، مع العلم بأن الامير الراحل سعود بن رشيد بعد أن عاد منتصرا من غزوته للجوف - بعث من قبله الى الامام عبد العزيز بن سعود رسولا يدعى (فالح الحيص) (١) وكان هذا الرسول يحمل رسالة مفهومها يطلب الامير سعود بن رشيد من الامام عبد العزيز بن سعود بأن لا يقبل اى بدوى من قبيلة شمر يهاجر اليه . وان يسلم شخصين من قبيلة شمر اللذين لم يقف بهما الامر الى أن هاجرا من بلاد أميرهما ابن رشيد وذهبا الى ابن سعود معتقدين بان ابن رشيد الكفر . لا لم يقف بهما الامر الى هذا الحد بل ، ظل يغريان وينبهان ويقتلان ، كل من يقع بأيديهما من قبيلتهما شمر ، اعتقادا منهما ان قبيلتهما وأميرهما كفرة - وقد اصبح جهادهم شرعا ، ودمهم مباحا - واموالهم حلالا وكان هذان الشمريان اللذان يطالب ابن رشيد بن سعود بتسليمهما ، يدعى احدهما (عذال) ، ويدعى الثاني (مغيلث) . وقد سبق ذكرهما .

---

(١) فالح الحيص من قبيلة عتيبة .

الحيص

وفي الحيص الذي كان رسول ابن رشيد بالي الحيص - قد وصل هذا الزمان ، منتظرا الجواب من ابن سعود ، وقبل ان يبت ابن سعود بالجواب المنتظر ورد اليه نبأ الاتفاق ، المفيد بمضمون الامر سعود الرشيد الى يد ابن عمه عبدالله ذا مرهنا شرحه :

وعلى هذا الاساس اصبحت المعاهدات القديمة بالغة المفعول بطبيعة الحال ولقد قتل الشعبي النجدي القاتل (شيخ مات - وهو قاتل[1]) بعد فالح الحيص بخمس عشرة سنة علما بأن سعود يرد فيرا يجابي لان الامام عبد العزيز يستحيل ان يسلم الثوريين اللذين التجأ اليه .

وقد تولى امرة الرشيد عبدالله بعد تغلبه اخيرا على الامر الفتيل - وكان الامر الجد - كما سبق ذكره ، فيما لم يبلغ سن الرشد بعد .

بعث الامام عبد العزيز رسولا يدعى الهيمس من قبيلة حرب بعثه برسالة الى ابن رشيد يطلب فيها ابن سعود عقد معاهدة او تجديد بدلا من المعاهدة الاولى التي بطل مفعولها بموت الامر السابق - وكان خلاصة هذه المعاهدة المطلوبة الشرط على أن يكون لابن رشيد من قرية الكهلة[2] - وشلالا الى الحدود العراقية وفيها الى الجوف - وان يكون لابن رشيد من الكمية مثلها وجلبها من المواقع الداخلة لنجد بكاملها - بما في ذلك الاحساء ... الخ .

طلب ابن سعود من ابن رشيد ان تكون المعاهدة الجديدة مبنية على الشرطين الاتيين :

أولا : ان لا يكون لابن رشيد ان نفوذ خارج بلاده . أي لا يغزو اية قبيلة في الجزيرة .

ثانيا : أن لا يكون له ادنى صلة باية دولة في الخارج .

وقد نقل الي المرحوم الشيخ عبد العزيز ابن زيد سفير المملكة العربية السعودية في سورية ولبنان الذي كان في ذلك العهد من الرجال اصحاب الحل والعقد في امارة الرشيد ،

---

(١) كذا في مات الحاكم والتقى العهد .

نقل الى الرواية الاتية : كنت (وخدام الغائز)[1] ممن يرى أن لا مصلحة لنا في الوقت الحاضر من قبول الشرطين اللذين يطلبهما ابن سعود . وذلك اننا قدرنا وطأة ما تعانيه امارتنا من تفكك وضعف من شتى النواحي الداخلية والخارجية . فمن حيث الوضع الداخلي فقد وجدنا انفسنا بحالة سيئة فأميرنا صبي دون سن الرشد . وقبيلتنا شمر - انقسمت قسمين القسم الاول تبنى عقيدة الاخوان وهجرنا معتقدا كفرنا - وموالاة بأن قتالنا شرعا ينال به ثوابا من الله - كما ينال غضب الله وعقابه اذا لم يجاهدنا . واما القسم الثاني فانه عندما وجد نفسه مهددا بلهيب ثورة الاخوان العارمة حمى على نفسه من أن تلتهمه نيران تلك الثورة المتأججة . فذهب هاربا الى جزيرة الفرات في العراق واسما يعلمنا وبينه (نهر الفرات) . والشيء الذي اسوأ من هذا وذاك هو أن صفاء القلوب بين ساكني حائل انفسهم - لم يكن كما كان عليه قبل مقتل سعود ابن رشيد ، هذا ما كانت عليه الامارة من حيث وضعها الداخلي . اما من حيث سياستها الخارجية فهي أيضا بحالة لا تحسد عليها ، فالدولة العثمانية التي كانت حليفة لها هزمت في الحرب العالمية الاولى . ولم يكن لنا أية صلة بدولة أخرى - ويمضي ابن زيد في حديثه فيقول : ونظرا لحراجة وضع امارتنا الداخلي والخارجي فقد رأينا خدام الغائز وأنا - بأن نذعن لطلب ابن سعود الى أن تتاح لنا الفرصة المناسبة - وعندها نستطيع أن نرسل لابن سعود رسولا يبلغه بطلب معاهدة أفضل - وذلك عندما نشعر بقوتنا . ويسترسل ابن زيد بروايته قائلا : لما كان الامير وقتها صغيرا . ولا مجال للبحث معه في هذا الشأن ، فقد حاولنا أن نقنع بصحة رأينا هذا المحيطين بالامير . وقد استطعنا اقناع بعضهم - ولكن البعض الاخر لم نستطع اقناعه وكان اللذان يتبنان معارضتنا - الشيخ عقاب ابن عجل - وكاتب الامير الخاص حمد أبو عرف . وقد أجمل لي زيد بقوله : (اننا جلسنا في قهوة)[2]

(١) خدام من أبرز رجال اهالي حائل في ذلك العهد .

آل سبهان خدام الغائب ، وانا من ناحية ـ وحمد ابوعرف من ناحية ثانية ـ وقد امتدت جلستنا من أول النهار حتى آخره محاولين أن نقنع ابا عرف بالتالي تظاهر لنا بأنه تابع ـ بصواب رأينا ـ بينما هو في الحقيقة لم يقتنع ، بل ذهب الى ابن عجل شريكه في الرأى المعارض لرأينا وأليه طبعنا ـ وكنت وخدام على غير علم بما يجرى بالخفي بين ابي عرف ـ وعقاب ابن عجل .

لقد هيئت ووضعت مسودة المعاهدة التي يشترطون أن تكون بيننا وبين ابن سعود وفيها قبول الشرطين اللذين طلب ابن سعود ان لا يتم السلم لا بموجبهما . وقدمت تلك المسودة الى مقام الامارة وكانت النتيجة انه مجرد ما رآى عقاب ابن عجل تلك المسودة المشيرة الى قبول شرطي ابن سعود ـ صاح وهاج وقال : يجب على الامير ان يقطع يد من كتب هذه المسودة .

هذا وقد انتهت رواية ابن زيد عند هذا الحد . والشيء الذى يهمنا الاشارة اليه هو أن ابن رشيد او بالاصح عقاب بن عجل (أو حمد ابو عرف) رفضا قبول السلم وفق الشرطين اللذين طلبهما ابن سعود ، وهذا يعني قيام الحرب بين السعود وابن رشيد ، كأن امارة آل رشيد بعدم موافقتها على الشرطين السالفي الذكر اللذين طلبهما ابن سعود ، كانها بعملها هذا حفرت قبرها بيدها .

قد يقال ، بل قد قيل أن ابن سعود لم يطلب هذين الشرطين الا بعد أن أدرك ان الامارة على جرف هار ، وانه انتهز هذا الضعف وأملى شرطيه .

ربما يقال . ولكن الدليل المادى المحسوس الذى تثبته الاحداث ـ هو انه وان يكن ان قائد عسكرى ـ عندما يشعر ان عدوه ضعيفا . فان العقل وبعد النظر يقتضيان القضاء على العدو مادام ضعيفا قبل ان ينمو ويستفحل امره ـ ولكن الامام عبد العزيز لو شاء ان يطبق هذه القاعدة على علاتها العسكرية (١) فانه باستطاعته ان يفعل ذلك عندما كان سعود بن رشيد معاصرا في

(١)

(الجوف) من قبل ابن شدلان كما سلف ذكره .

وبعد .. فاننا لا نستطيع أن نحكم حكما مطلقا بأن السبب الرئيسي الذى أسرع بانتهاء اجل امارة آل رشيد هو عدم قبول المسؤولين للشرطين اللذين طلبهما ابن سعود ، لا .. بل هناك اسباب اكثر من أن تعد فمنها ما سبق أن ذكرته بايجاز ، ومنها اسباب لا يسعني ذكرهـــا وشرحها .

فلندع الاسباب والمسببات التي اطاحت بامارة آل رشيد ، ولنكتفي بذكر العبارة الشهيرة التي رددها الشعبيون بمختلف تكهناتهم (طق حنكهم)[1] ، ولنعد الى الامير محمد الطلال الذى تولى الامارة وهي تتلفظ بنفسها الاخير ، ولنعد ايضا الى العهد الذى حاول ما استطاع ان يبعث الروح من جديد في كيان تلك الامارة المحتضرة ، ولكن الروح من أمر الله ، ولا راد لقضائه وقدره ولكل اجل كتاب .

لم يكن بين فتح البلاد وبين المدة التي قضاها محمد الطلال اميرا عدا ستة أشهر ولكن هذه الاشهر كانت مشحونة بالحروب والمعارك الدامية كما سنوضح ذلك في البحث الاتي :

---

(١) هذه الجملة (طق وبات) تقال عندما يضرب شخصا ما — ضربا يؤدى بحياته من قبل ولاة الامور ويكون المضروب بسبب تهمة سياسية ، ولا يريد احدان يعرف شيئا عن هذه التهمة — ومن ثم يأتي من يسأل عن الاسباب التي ضرب من أجلها هذا الشخص هناك يأتي الجواب (طق وبات) الى ضرب وتوفي — ولا تسألني لماذا ضرب ، لان المسؤول يخشى اذا قال الحقيقة التي ضرب من اجلها ان يكون متهما .

يقفـــز على النعرة في أيام محنتـــه

بعد معركة الروضة التي انتصر بها الامير محمد بن طلال كما سبق ذكره الذين ~~هـــم من أصل قبيلة شمر التي هي قبيلة ابن رشيد بالذات~~. بعد ذلك بأيام قصيرة جاءت قوة رجـــال الامام عبد العزيز من قبيلة مطير بقيادة فيصل الدويش. وقد انضم الى هذه القوة نفر من قبيلـــة شمر بقيادة ملهس ابن جبريل. وكان الشمريون لا يقلون ايمانا عن قبيلة مطير في ماله علاقة في تكفيـــر ابن رشيد، واباحة دم رجاله وماله - اذا لم يفوقوا اولئك ايمانا بذلك، وطمعا بالحور العين !!! وحرصا شديدا على لقاء الكفرة !!!

جاء هؤلاء وعسكروا بقرية قريبة جدا من مدينة حائل يقال لها (الجثامة)، لا يزيـــد بعدها عن حائل اكثر من اميال معدودة.

وبدلا من أن يقف الامير محمد الطلال موقف المدافع الذي يفرضه عليه الوضع العسكـــري في موقف كهذا الذي وقفت منه شبه الجزيرة العربية وما فيها من رجال بما في ذلك رجال قبيلته شمر، كل من هؤلاء اولئك وقفوا من رجال حائل واميرهم موقف المهاجم بل موقف المجاهد الذي يعتقـــد انه يتقرب الى الله بقتاله لابن رشيد وقومه اعداء الله ورسوله !!!

بدلا من ذلك راح ابن طلال يدافع شجاعة الشباب يقف موقف المهاجم. وكان عدد رجال حائل من حملة السلاح المقاتلين الف ونيف (١) أن لا تجاوز عددهم بالتعبير العسكري لواء - اذا لم يقل.

---

(١) هذا العدد نقلته من الشيخ ابراهيم السالم النعيمان اثناء زيارته للبنان لمتعالـــج وذلك في سنة ١٣٨٥ - ١٩٦٥ ويؤكد ابراهيم ان معرفته لاحصاء هذا العدد جاء عن طريق السجل الذي احصي فيه الرجال الذين فرقت عليهم الذخيرة وقتها.

خرج الامير محمد الطلال من حائل يقود اولئك الرجال الذين وان كانوا فقدوا شيئا من حماسهم المعهود ، في القتال بعد هزيمتهم في غزوة (ام غراميل) السالف ذكرها ولكنهم استعادوا شجاعتهم وحماستهم بعد معركتين انتصروا بهما - الاولى قتلتهم لفهد بن مجمر امير العرية التي قادها غازيا اطراف حائل - والثانية - قتلتهم للهواوي وعذال . في المعركة التي تحدثت عنها من قبل ، كما انهم تكاتفوا اكثر مما كانوا عليه في العام الماضي ومصدر تكاتفهم يعود الى عاملين العامل الاول وجود العدو الخارجي الذي ضيق عليهم الخناق والثاني عدم وجود قوة تنافس الامير محمد خلافا لما كانت عليه الحال بعهد الامير السابق عبد الله بن متعب عندما كانت القوتان موجودتين كما اوضحت ذلك آنفا .

وهكذا خرج الامير ابن طلال برجاله من أهالي حائل وهم دافقوا الحماس ، وعسكر في قرية تسمى (النصيه) وهي مجاورة لقرية الجثامية - التي عسكر فيها العدو المهاجم - والمسافة بين القريتين قريبة جدا . وفي اليوم الثاني خرج ابن رشيد برجاله من النصيه مسافة قريبة منها ونشر بمارته الثلاثة - وقام رجاله بعرضة حماسية بتلك الارض الصلبة الخالية من الجبال والاشجار والصالحة لمن يريد ان يتحدى خصمه بأرض كتلك الارض. وفعلا كانت غاية ابن طلال ورجاله بتلك العرضه ان يستفزوا الغزاة لمخرجوهم من قرية الجثامية ، التي تحصنوا فيها . ولكن الغزاة وعلى رأسهم فيصل الدويش ملكوا اعصابهم في الحين الذي كان الحماس برجال حائل بالغا أشده .

كان هناك جبل يدعى (حمران) وكان هذا الجبل ملاصقا لقرية الجثامية الى حد ما ، وهناك رسم الامير محمد الطلال خطة حربية كادت ان ينتصر بها على الدويش الغازي فيما لو نفذت الخطة على الوجه الاكمل الذي رسمت به من حيث التكتيك العسكري المحكم ، كانت الخطة تتلخص بما يلي :

١ - يختار الامير من فتيان رجاله قادة يكونون من صفوة الصفوة ، وهؤلاء الخلاصة ، هم بدورهم ايضا لكل واحد منهم الحق ان يختار من يثق بشجاعته من جميع قوة ابن رشيد . ومهمة هؤلاء تقضي أن يذهبوا ليلا (١) الى جبل (حمدان) الملاصقة للجنائن ، وعند بزوغ الفجر تماما يتولى هؤلاء الهجوم من عندهم على الدويش وقومه ، وفي الحين الذى يهجم به هؤلاء ، في تلك اللحظة يأتي الامير محمد في الهجمة من رجاله ويهجم من عنده فيكونوا وضعوا الدويش تحت الكماشة وطوقوه من الجانبين .

وعلى اساس هذه الخطة عمل اولئك النخبة المختارون واحتلوا الجبل ، وفي فجر الغد نفذوا الخطة التي امروا بها .

المعركتان الفاصلتان

وهكذا اطلق هؤلاء النخبة رصاصهم على قوم الدويش ، وانتظروا ان يكون التجاوب من رفاقهم حسب الخطة الحربية المتفق عليها من الجانبين تلك الخطة التي تشير على انه مجرد ما يطلق هؤلاء رصاصهم يكون القوة التي عند الامير وبقيادته هجمت هي الاخرى - من تحتها على العدو ومن ثم يتم التطويق .

---

(١) طرشي عبد العزيز العمير ى قائلا : كنت أحد الرجال القادة الذين وكل اليهم ان يختاروا من يشاؤون . وكنت اشق صفوف المقاتلين من فتيان اهالي حائل واختار من شئت من اولئك الفتيان كما يختار تاجر الخيل الحصان الذى يظن انه يفوز بالسباق من بين عشرات او مئات الحصن . وهكذا كان لكل فرد منا نحن القادة لنا حرية الاختيار في ذهابنا الى تلك المغامرة لاننا نعرف ان الذين امامنا يريدون الجنة بدمائنا .

ويروى لي شاهد عيان من قوم الدويش من قبيلة مطير - بدعيج ابن بليهيس وهو ايضا رواية من حاشية امير حائل عبد العزيز بن مساعد يقول ابن بليهيس عندما شعر قومنا بالهجوم عليهم من قبل الجبل أصيب جمعنا بذهول افقدنا به السيطرة على اعصابنا وكثير منا فر هاربا مذعورا ليلجوا بنفسه . لاننا اعتقدنا ان هؤلاء الذين هاجمونا بوابل من رصاص من الجبل ، لا يمكن ان يقدموا على هجومهم هذا الا وهناك قوة سوف تطوقنا من الخلف ، ولكن الذي حصل هو اننا استردنا شجاعتنا وثبتنا عندما أضاء النهار وبزغت الشمس. وعندئذ وجدنا انه لم يكن هناك اية قوة اخرى عدا هؤلاء القوم المتمركزين على الجبل .

كان الواقع كما رواه ابن بليهيس وهو ان قوم الدويش تهيأوا للهروب بل هرب بعض منهم . وقد يهربون جميعهم فيما لو كانت رواحلهم موجودة عندهم . ولكن رواحلهم كانت في الغلاة الامر الذي اضطرهم للثبات لانهم لو هربوا مشاة لماتوا من الظمأ بحكم أن الفصل كان في آخر الصيف ،والامر الثاني المهم في عدم فرارهم هو انه لم يأت قوة اخرى لتطوقهم كتنفيذ للخطة الحربية المتفق عليها . اما لماذا لم تنفذ الخطة فهذا امر يجهلني تفاصيله على الوجه الاكمل لكن الذي يبدو هو أن الخطة وان كانت ناجحة فيما لو نفذت . ولكن الخطأ محيط بها من الوجوه الاتية :

١ - اولا ان قضية الهجوم لقائد محاصرا عسكريا واقتصاديا والجندي الذي يقتل من المحاصر تفوق خسارته عشرين جنديا او اكثر من جنود المهاجم .

٢ - ثانيا قل نسلم جدلا ان حماس الشباب وطيش الفتوة طغيا على الامير الفتى الشجاع وابت نفسه ان يقف موقف المدافع. وان لابد له من أن يقف موقف المهاجم. اذا كان ولابد من ذلك فما عليه والحالة هذه الا ان ينفذ الخطة . اي كان المفروض ان يهجم من عنده حسب الوعد الذي وعده اولئك الفتيان المهاجمين . ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو

ان مزان التكافؤ انفقد بين الفتية الذين اختيروا للهجوم . وبين القوم الاخرين الذين بقيوا ليهاجموا العدو فيما بعد ، وهذا شيء طبيعي ان يكون التكافؤ مفقودا بين الجانبين . ما دام ان المهاجمين الذين احتلوا الجبل انتخبوا هم وقادتهم على الاسلوب الذي ذكره لي الصعيدي فهذا يعني ان خلاصة الخلاصة من فتيان اهالي حائل ـ الذين ذهبوا للجبل ، ومعناه ايضا ان البقية دون اولئك بالتكافؤ ولو من حيث حداثة السن الذي له مفعوله باندفاع الشباب الذي يفوق الشيوخ حماسا . وقوة جسدية . والمعروف أن اولئك النخبة كانوا احدث سنا من الرجال الذين ظلوا عند الامير ، وفقدان التكافؤ بين الطرفين جعل المهاجمين يذهبون ضحية لتقاعس البقية التي احجم رجالها عن القيام بتنفيذ الخطة التي نفذها الاولون على الوجه الاكمل . وكانت النتيجة هي ان الاخوان عندما اسفر الصباح . وزفت الشمس . ووجدوا انه لم يكن امامهم الا هؤلاء الفتيان الذين يراس ذلك الجبل ، عند ذلك بعثوا طلائعهم لتكشف الارض وتمشطها من جميع الجهات ليتأكدوا انه لم يكن في الميدان غير هؤلاء القلة ـ وعندما ذهب فرسانهم وعادوا اليهم يؤكدون لهم انه لم يكن في الميدان غير هؤلاء هجم القوم عليهم وكانت مجزرة عنيفة قتل منهم ما يزيد عن مائة وثمانين نفس من هؤلاء الفتيان البواسل [1] الذين هم صفوة الصفوة من أهالي حائل ، وتسمى هذه المعركة التي خسر فيها ابن رشيد صفوة النخبة من شبان بلاده (الصفيح) . وكان المفروض بعد هذه المعركة التي خسر فيها ابن رشيد صفوة النخبة من شبان بلاده ان ينسحب ابن رشيد الى البلاد

---

(١) وقد انشد المرحوم الشاعر محمد بن بليهد قصيدة في هذه المعركة وهي مطبوعة في ديوانه (ابتسامات الايام) في انتصارات الامام) جاء في مقدمة القصيدة تمهيدا لها بقلم الشاعر ما يلي : « وقتلت ايضا لما قضى الله على اهل ـ الجبل ـ بارض الوقيد على يد الامام عبد العزيز ابن عبد الرحمن الفيصل ، وحصرهم في بلادهم ، وضاقت عليهم جوانبها وقد رأى الشاعر (يعني نفسه) القتلى . وكان مقدمة على الامام بعد تلك الوقعة بيوم في سنة ١٣٤٠ الخ .

واود ان آتي بالشواهد التاريخية من قصيدة ابن بليهد تأكيدا لما ذكرته اعلاه بأن اولئك الفتيان هم صفوة شبان أهل حائل فخذ ماقاله ابن بليهد يتقلى تلك المعركة :

لا في وصف لقتلى

لمتمركز هناك ، ويقوم بدور المدافع ، ولكنه لم يفعل وزاد الامر تدهورا بالنسبة لابن رشيد ، وهو أن الامام عبد العزيز ابن سعود جاء بنفسه قائدا جيشا عرمرما ، شاملا لجميع الاغلبية الساحقة من اهالي نجد بدوا وحضرا .

وعلى الرغم من تواتر الرواية التي تفيد ان الامير محمد الطلال بلغة الخبر ان الامام ابن سعود وصل الى الجنادرية بقوته الضاربة على الفور من ذلك لم ينسحب الامير محمد بل ظل في مكانه معسكرا في قرية النعصة ومعه بعضا من رجاله في مقدمة قرية (النعصة) كقوة دفاع امامية - متمركزين في مواقع تحمي (صحراء) [1] .

يا مرام كلما اشتهك الوغى ينال ضحى الهيجا مقاما ومشهدا

يخوض حمام الموت طعما وهل ترى (جبانا على مر اللعالي مخلدا) (*)

وارجو القلاص العيس من كل وجهة ونال بحمد الله مجدا وسؤددا

مطل عليها المجلبز عشية فاهلك اطفالا واهلك خردا

واهلك شبانا وكأن وجوههم قناديل قادت من البيت مصعدا

والشاهد هذا البيت الاخير الذى وصف الشاعر به الفتيان القتلى .

(*) مع الملاحظة أن عجز البيت الثاني

[illegible]

[illegible]

[illegible]

العيره - تعني المشتهين - وتعريفها الكامل شلاء من الرمز بحمر الحدق محمرة بها كما يحدثون بالخنادق .

وفي طلوع الفجر من الليلة التي قدم بها الامام عبد العزيز بن سعود هجمت قوة عبد العزيز بقيادته هو نفسه ودارت المعركة في قرية النصبه بصورة قد لا يكون التكافؤ مفقودا من حيث شجاعة الطرفين . بقدر ما كان مفقودا من حيث اليون الشاسع بنسبة العدد . فبينما المهاجمون يقدر عددهم باحد عشر الف — بينما المهاجمون ينقصون عن الالف وخاصة بعد معركة الصلح — وبينما الاولون ذاقوا طعم النصر . بينما هؤلاء ضعفت معنوياتهم بعد مصرع خيرة فتيانهم ، وبالتالي هناك يون شاسع الى ما نهاية له بين القيادة التي يمثل النصر في الحروب في كل زمان ومكان .

هناك يون شاسع بين قيادة المهاجمون الذين يتولى ازمة امرهم رجل كهل كعبد العزيز بن سعود الذي عركه الدهر وسهرته التجارب حتى اصبح معظم حياته أو كلها (في ذلك الوقت) حروبا وفتوحات ومن نصر الى نصر مستمر فان لقي شيء من الفشل فان ذلك الفشل دون المستقبل زاهر ، يضاف الى ذلك هذا القائد وتجاربه وسعة افقه . ذلك الجيش الذي هاهو على يده وفرس في افئدة رجاله عقيدة راسخة لا يرون سبيلا في قتالهم لخصومهم الا احد السبيلين . اما النصر على العدو واما الموت ليلاقي ربه شهيدا محطيا بالحور العين ، ولعمرنا بجنة الفردوس !!! أجل هناك فرق عظيما بين قائد بهذه الصفة وبين قائد الجبهة الثانية الامير محمد الطلال ، الذي وان كان فتى لا تنقصه الشجاعة ولا ينقصه الاقدام والجلد والمثابرة ولكنه شاب ، لا يقاس بتجارب ودهاء ومقدرة عبد العزيز بن سعود .

وهكذا كان اليون شاسعا بين الجبهتين الكريمتين من شتى النواحي السالف ذكرها اللهم الا بالشجاعة والاقدام — وذلك انه وان كان المهاجمون يدفعهم في قتالهم عقيدة روحية بصفتهم ان القتيل منهم في الجنة فان هؤلاء يدفعهم ايضا عقيدة مزدوجة . الاولى روحية بصفتهم يقاتلون دون نفوسهم (١) . والثانية وطنية بصفتهم يقاتلون ايضا دون معارفهم وأطفالهم (٢) وهكذا هجم الاخوان على قوم ابن رشيد في قرية النصبة وانتهت المعركة بالنصر الحاسم للقوة

(١) الحديث النبوي صريح بهذا المعنى بقوله عليه السلام :

من قاتل دون شراك نعله وقتل فهو شهيد .

الامام عبد العزيز وبقتل بقية ما تبقى من صفوة رجال ابن رشيد ، ومعنى ذلك ان خميرة الابطال ، وصفوة الشجعان من فتيان حائل الذين لم يقتلوا في المعركة الاولى لكنهم قتلوا بل أبعدوا عن بكرة ابيهم في تلك المعركة الاخيرة السماة بـ (النصيه) وما يؤكد ان صفوة المقاتلين من اهالي حائل قتلوا في المعركتين ـ السلح ـ والنصيه . ما يؤكد ذلك هو ما سمعته من احد الرواة الذي رأى امرأة تمشي في احدى شوارع حائل وكانت هذه المرأة لم تكن متحجبة بحجاب معروف كما جـــرت به العادة فذهبها قائلا : ألا تستحين يا حرمة ، فأجابته قائلة ـ هل بقي رجال بعد النصيـــه والسلح يستحقون من يستحي منهم[1] .

أجل لقد قتل خلاصة الشجعان الابطال رجال حائل في المعركتين السالف ذكرهمـــا

---

(٢) لعل الرواية التي انقلها عن مطلق السعيد الذي لا زال على قيد الحياة تؤكد صحـــة ما اشرت اليه بهذا الشأن . يقول مطلق . عندما هجم علينا العدو في قرية النصية كنت ساهتها بجانب مهدي ابن شرين ودعيج ـ فقلت : انه من العيب ان نتخلى عن مواقفنا هذا لانه لم يكن خلفنا الا النساء والاطفال ـ ويؤكد مطلق ان الجواب منهما كالاتـــي (اهبل مثلنا تقال له كلمة كهذه . لقد كنا نقسم على انفسنا ان لا نتخلى عن مواقفنا ونحن المهاجمون للعدو في ارضه وفي عقر داره فكيف بنا ونحن المهجوم علينا والمدافعـــون دون نسائنا وأطفالنا .

وقد قتل الاثنان في تلك المعركة اما مطلق فقد نجا باعجوبة بطول شرحها .

(١) هذه الحادثة حقيقة وقعت على النحو الذي رويته اعلاه .

جميع الاصوات خمدت الا دوى الرصاص وصوت العوني

ذكرت سابقا ان العوني لا تنمو موهبته ولا تتفتق قريحته ويصدح كالهلبل في الحدائق الغناء المدلهمة اشجارها والمانعة ثمارها — الا عندما يسمع اصوات المدافع ولعلعة الرصاص لهما دون كدوى الصواعق واذا كانت السمكة لا تستطيع ان تحيا الا في الماء فان العوني لا تكمل سعادته — الا عندما — يصم اذنيه اصوات البوارد . وصليل انصله السيوف — ولا يزداد نشوة الا حينما يرى الدماء سائلة بين المتقاتلين كالسيل المتدفق من جبل عال ، وعندما يرى الارض والجو كانهما ليل حالك السواد من دخان البارود ، في ظرف كهذا الظرف ومناسبة كهذه المناسبة تتفجر قريحة هذا الشاعر كالبحر الزاخر ، بصرف النظر عما اذا كان النصر مضمونا لدى من يحارب العوني بجانبه — اما ان خسارة الحرب محققة لا محالة كما هو الامر الواقع بالنسبة لامير حائل . لكل من هذا وذاك لا يهم العوني — وانما يهمه ان يرى الرطيس حاميا والمعركة مستعل لهيبها ودخان الهيجا بالغا عنان السماء — فان كان النصر بجانب القائد الذى يحارب معه — جاء بوصف المعركة التي ربح فيها قائده الحرب بصورة يندر ان نجد شاعرا يروى تفاصيل المعركة كما يرويها العوني بزهو واعتزاز ، اما اذا حلت الهزيمة بالقوم او القائد الذى يحارب العوني بجانبهما فانه سوف ينتفض صارخا منشدا قصيدة حماسية يلحنها هو بنفسه متوجها بقصيدته هذه للمقاتلين — بأن هذه الهزيمة مجرد مناورة عسكرية لا هزيمة فاصلة — ياعثمان في نفس كل مقاتل صلبا رنخوة وشعورا بالاعتزاز تجعل أن جندى من رفاقه يحمل روعا بطولية يتصور انه لم يكن بينه وبين النصر على عدوه الا أن تقع معركة أخرى يكر بها هو وقومه لياخذوا ثأرهم من عدوهم الذى هزمهم بالامس . وهكذا كان الصوت الذى يتجاوب مع اصوات بوارد المقاتلين بعد معركتي الصفح والنصيه — هو صوت العوني — فقط .

واذا كان نابليون يقول في وصفه في تأثير الكلمة على نفوس المقاتلين (أفضل ان يقف بجانبي ستة كتاب على ان يحارب معي ستة فيالق) واذا كان نابليون يتحدث عن تأثير الكلمة ،اذا كانت نثرا - فما بالك اذا كانت شعرا ، لان الشعر بطبيعته يهز العواطف ويذكي الحماس ويشحذ الهمم أكثر من الكتابة والخطابه ،.

وقد أدرك القائد البطل الامام عبد العزيز ما لشعر العوني من اهمية في ايقاظ همم المقاتلين ، ومن أوضح الادلة على ادارك الامام الاهمية صوت العوني هو اننا نجده حذر الوفد الذى بعثه الامير محمد الطلال اثناء حصاره لحائل ليفاوض الامام حذره قائلا :- اياكم أن تشحذ عوا تنة نعرا بتحريضات العوني الخ .

هذا وقد سبق ان اوردت الشهادتين اللتين نقلت احدهما عن الشيخ عبد العزيز ابن زيد . والاخرى نقلتها عن الاخ ذعار النافع - وكلاهما يشهد ان شهادة من رأى لا من سمع أن العامل الرئيسي الذى جدد روح القتال في نفوس رجال حائل ، وايقظ فيهم الهمة والشجاعة من جديد - بعد أن قتل صفوتهم في المعركتين الانفتي الذكر - لمس الا تحريض العوني ، وقصائده الحماسية التي كل بيت منها اذا لحن على نغمات العرضة الحربية - وعزفت الطبول المقرونة على وتر التلحين - قامت معاني ذلك البيت الواحد مقام الجحافل العسكرية - واليك ما قدر لي ان اظفر به من قصائد الشاعر الحربيه - واعني بالقصائد التي انشدها في مناسبة حصار حائل تلك المناسبة التي كانت من أجلك الظروف القاسية التي لم تمر امارة حائل بمثلها .

(١) يقول : الراوى الشيخ عبد الكريم الخياط ان العوني عندما نقلت له كلمة عبد العزيز هذه - انتضى سيفه مزهوا ونشوانا ثم اتبع نشوته هذه نكتة من نكته التي يستسيغها احيانا قائلا والسيف بيده - دعوني على ابن سعود الذى يظن بي هذه الظنون .

بل تلك المناسبة التي بلغت فيها الروح الحلقوم – واصبح الامل بالنصر بل بفك الحصار متعذرا – وبات قسم من اعيان اهل البلاد يفاوضون الامام سرا . وعلى رأس هذا القسم ابراهيم السالم السهبان صهر الامير وشقيق الوصي زامل سالف الذكر – والسيد الجعفري القح – وقسم آخر ، وان لم يفاوض الامام بالخفاء ، فانه يؤيد هذا المفاوض بقلبه سرا . ولم يسبق الا خلاصة النخبة من ابطال البلاد الذين ظلت اصوات رصاصهم له لعلعة ودوي – متجاوبا مع صوت العنوسي الذي ذهب يحرضهم ويشجعهم ويزجرهم عن عدم الاستسلام بقصائده النارية التي كما اسلفت لم اظفر منها الا بما هو آت:

١ – يا نديبي فوق موجا في ... تقطع الديمان بهذا الـه

٢ – وسر مهين اللافي ... وانت يا لمنكوب مرسالـه

٣ – قل لبو تركي بلا خافي ... لو بجيب طويق وارجالـه

٤ – دون حائل نهث الخافي ... قبل كسره موحش جالـه

٥ – ما نقلنا حدب السافي ... كود دون السلف وجبالـه

٦ – يا عنود قرنها ضافي ... حظ منعور تهبالـه

٧ – حرمت حظام الاشرافي ... كود ابو نندرلي جالـه

الشرح :

١ – ايها الرسول المنتدب من قبلي – اذهب على قلوص نجيبة تطوى الفيافي بجريها .

٢ – اذهب الى البطل الذي يجير ويحمي من يلوذ به من المضطهدين – يقصد عبد العزيز بن سعود . ولا حاجة بأن احملك رسالة خطية . فانت رسولي المعبر عن لساني .

٣ – قل لابن تركي (يقصد الامام عبد العزيز) قل له لو انه يأتي برجال (طويق) جميعا فلا يمكن ان نستسلم له او تلين لنا قناة . وطويق : اكبر جبل يحيط بالرياض.

٤ – سوف نقاتل دون وطننا حائل قتالا نكشف به الغطاء عن شجاعتنا التي لم تكن وليدة عهد قريب ، بل انها الشجاعة التي ورثها الاحفاد عن الاجداد ، فتلك حقيقة تاريخية تدل على ان رجال جبلي طي – مرهوبي الجانب من قبل عهد كسرى انوشروان .

٥ – ترى لماذا نتوشح بالسيوف البواتر الا لكي نقاتل قتال المستميت دون (السلف) (١) وجبال اجاء وسلمى .

٦ – لله در فتاة جميلة وافرة الشعر – بيضاء خديها كالبدر في تمام نموه (يقصد مدينة حائل) .

٧ – فهذه الفتاة رفضت ان تمد يدها لاي بعل من الحكام الا فاضل الاشراف اللهم الا (بندر) يقصد الامير محمد الطلال . والشاعر يصف مدينة حائل كأنها عروس فتية لم تقبل اي بعل الا محمد الطلال .

والبك القصيدة الثانية الحربية التي انشدها الغنوي في عنفوان وشدة حصار حائل .

---

(١) : السلف – موقع في قلب اجاء – يكون غربا عن مدينة حائل .

١ — يا قد يبسي سر طي كير مذعـــورة حرة من نسل ذرواح بن ثاني

٢ — سر كفاك الله من السوء وشـــروره لين تاصل بالحجر مزهن الماني

٣ — قل لهو تركي ترى الوقت لـــه دوره لا يغره حرب او سهول ومطراني

٤ — لا تحسبن ان الطغايا بهم بسوره هم هل العدات ابطال الكواني

٥ — كان ما تدري ولا تفهم العـــورة انشد العقال وفلان ولـــــلان

٦ — اسأل الضرغام هي تركل ظفـــوره دام تدري بالطمع ضياين بانسي

٢ — انزحوا عن ماه وحماه وسيـــوره والوعد بعد الجهل راس بيـــان

الشرح :

١ — أيها الرسول سر طي ظهر مطية سريعة الجري (مذعورة) أن كأنها هاربة بسيرها هذا من شيء خائفة منه وهي حرة أصيلة من سلالة نجائب ابن ثاني أسير قطر الذي عرف عند العرب آنذاك باحتفاظه بالنجائب الاصيلة . مع العلم أنه عندما يطلق كلمة حرة للدلول فان المقصود بها نجائب الذلك التي تكون في شمال نجد — أما الابل النجائب التي عند ابن ثاني فلا يقال لها باصطلاح الشعبي حرر وانما يقال لها " بواطن " وأعتقد أن الشاعـــر قال ذلك لاجل وزن القافية — كما أن نجائب ابن ثاني قد تكون أسرع جريا من الحرة ، الا أن الحرة أكثر صبرا وجلدا من تلك .

٢ — سر حفظك الله من كل سوء حتى تصل بخبري هذا من يقصده المحتاجون — يعني الملـــك عبد العزيز ابن سعود .

٣ — بلغ ايها الرسول ايا تركي وأخبره ان الزمان يوم لك ويوم عليك .

٤ – ولايظن برجالنا " الشايا " الاباة ان قواهم خارت فهم ذو العادات وابطال الهيجا .
وفرسان الوغا .

٥ – ولك ان كنت تسأل عن تاريخهم بنهوك العقلاء عنهم .

٦ – واسأل هل يستطيع أحد ان يطمع بلحم الاسد ويجعل اظفاره قوتا .

٧ – تخلوا عن حصارنا ، ولكم علينا وعدا ان نحاصركم ونغزوكم في عقر داركم – هذا البيت من باب الاسراف بالوعد الذى يزفه به العوني من نفوس المقاتلين المحاصرين .

العودة الى طلب الشرطين السابقين من جديد

بعد تهنئة المعركتين رجل الامام ابن سعود من الجثامية ، ونزل في مكان يقع بين (جبل اجاء وبين مدينة حائل من الناحية الغربية) وقد اشتد الحصار على حائل بصورة اعنف من ذى قبل – وكان الحصار الاقتصادى اشد وطأة من الحصار العسكرى والسياسي وذلك ان صاع – التمن العراقي (١) – وصلت قيمته جنيها ذهبا انكليزيا (٢). ومع ذلك لم يوجد ، وكان بعض من اهل البلاد يتسلل ليلا نحو البادية المتاخمة لحائل من البدو والتابعين للامام ابن سعود ويختطفون منهم ما يقع بأيديهم من غنم وابل .

---

(١) التمن : هو الارز .

(٢) : الصاع مقدار كيلين .

رأى الامير ابن طلال واهل الرأى من رجاله ان يبعثوا الى القائد المحاصر الامام عبد العزيز بن سعود وفدا يحمل رسالة تتضمن طلب ابن رشيد الموافقة على الشرطين الاسبقين اللذين طلبهما ابن سعود من الامير السابق عبدالله المتعب . ورفض عبدالله قبولهما . وخلاصة الشرطين كما ذكرت وهو أن لا يتصل ابن رشيد بأية دولة اجنبية . ثانيا ان لا يكون له سلطة على اية قبيلة من قبائل نجد كما كان سابقا يغزو من لا يذعن لطاعته من قبائل نجد .

كان رئيس الوفد الذى يحمل رسالة ابن طلال الشيخ عبد العزيز بن زيد ، وكان ابن زيد هذا هو خدام الفائز اللذان تبنيا قبول هذين الشرطين وذلك في العام الماضي وفي عهد امارة عبدالله المتعب كما سبق أن ذكرت ذلك في البحث السابق .

وصل ابن زيد الى الامام عبد العزيز وقدم له رسالة ابن طلال التي تتضمن الموافقة على الشرطين السابقين وكان في الرسالة تنصيص على حد ما رواه لي ابن زيد الى المعنى الاتي :

(ان بقية الحديث يخبرك به رسولنا عبد العزيز ابن زيد) .

عندما قرأ الامام الرسالة اتجه نحو ابن زيد قائلا : ما هو الكلام الذى اشار اليه ابن طلال بانه عندك .

يقول ابن زيد انني قلت للامام ليس عندى كلام يخالف معناه ما جاء بالرسالة التي اوصلتك اياها) .

فما كان من الامام الا ان غضب على ابن زيد . واسمعه كلاما قاسيا — ولكن ابن زيد طل على صلابته وأخيرا عاد ابن زيد من الامام لابن سعود بخفي حنين — اى ان ابن سعود رفض قبول اى شرط دون استسلام امارة الرشيد نهائيا . وكان جواب ابن زيد صارما في هذا الشأن .

عندما خرج ابن زيد من الامام بن سعود قاصدا الذهاب الى حائل بعث اليه ابن سعود رسولا يسأله اذا كان لديه حديث خلاف الحديث الذى قاله في المجلس العام فكان الجواب من ابن زيد (ليس عندى سريره تخالف ما صارحت الامام به الخ).

يقول ابن زيد انني عندما وصلت ابن طلال واخبرته بكل الذى دار ما بيني وبين الامام من حديث ، هناك غضب بعض من جلساء الامير محمد الطلال . وقال كان المفروض ان لا تقف من الامام هذا الموقف الصلب) .

فما كان من ابن زيد الا ان اجاب هذا الناقد قائلا : ما دمت مرسلا من قبل الامير محمد بكلام يتضمن الوقوف عند الشرطين اللذين طلبهما ابن سعود في العام الماضي ، وما دام ان ابن سعود رفض اى شرط ماعدا الاستسلام فانه لا يسعني الا ان اقف الموقف الصلب الذى يتجاوب مع موقفنا كمحاربين — اما اذا كان الامير محمد يريد ان يستسلم للامام ابن سعود فينبغي اذن والحالة هذه ان تبعثوا جارية سوداء تحمل رسالة للامام ابن سعود تتضمن طلب الامير الاستسلام واني الاوكد لكم في غالة قبول الامير الاستسلام فان ابن سعود سوف يرحب بهذا الطلب ولا يهمه الرسول الذى يحمل الرسالة بقدر ما يهمه استسلامنا بواسطة اى رسول كان .

وفي البحث الاتي سوف اوضح الاسلوب الذى تم فيه فتح حائل كما رويت ذلك من اوثق المصادر اطلاقا وهو الشيخ ابراهيم السالم السهيان . الذى تم فتح البلاد على يده .

الفصل الثالث عشر

قصة فتوح حائل كما رويتها من مدبر فتوحها

هناك روايات مضطربة عن الصورة التي تم فيها فتوح حائل ، وهذا الاضطراب لم يكن محصورا على المؤرخين الذين كتبوا في هذا المجال ـ بل نجد الاضطراب موجودا عند بعض الرواة الشعبيين الذين غالبا ما تكون رواياتهم اشبه من الكتاب ، لان هؤلاء ينقلون الاحداث ببراءة تشبه براءة الطفل أن بعيدة رواياتهم عن التكلف ، والرواية التي أنقلها عن قسم من الشعبيين نقول : ان جنود الامام عبد العزيز فلوا الشاهرة وطول المدى بالمرابطة بصفتهم بدوا ـ وانهم ارادوا الرحيل فيما لو لم يستجب ابراهيم السالم السبهان بالمفاوضة مع الامام بالاستسلام ، اما القسم الثاني من الشعبيين فانه يقول ان الامام عبد العزيز مقر بأن لا يبارح المكان الذي عسكر فيه وشدد منه الحصار على البلاد واهلها حتى يتم فتح البلاد ـ وفي رأيي ان هذا القول الاخير هو الارجح .

اما المعاصرون في حائل . فانهم ـ وان كانت معركتي النصية والصفيح كان لهما الاثر الفعال في كسر شوكة المقاتلين على اعتبار ان تينك المعركتين أبيد فيهما نخبة النخبة من شجعان اهل البلاد وهزت معنوية بقية الشجعان فترة وجيزة ـ الا انه سرعان ما استرد المقاتلون في البلاد شجاعتهم . وعادت معنويتهم من الناحية العسكرية مرتفعة كأن لم يقتل واحد منهم ، فظلوا يتصدون لهجوم (الاخوان) جنود الامام بصلابة وعنف ـ واوضح دليل على ذلك ـ البطولة التي قام بها عدد ضئيل من المقاتلين الذين صدوا امام جحافل الاخوان الذين هجموا ليلا على مزرعة محاذية لحائل من الناحية الشمالية لا تتجاوز ميلين فقط ـ لقد هجم

جنود الامام بقوتهم الشاربة من تلك المزرعة التي يقال لها « خب الطريفي » ولم يكن فيهـــا سوى احد عشر رجلا من أهل البلاد بقيادة مرسال الحمد[1] وقد استمرت المعركة اول الليـــل كله وطوق المهاجمون — جدران المزرعة التي لا تتجاوز مترين طولا ان بامكان المرء أن يقفـــز من فوقها — ولكن المهاجمين صلتهم نار المدافعين حتى تراجعوا بعد ان خسروا عددا كثيـــرا من القتلى والجرحى

واما الدليل الثاني الذي يعبر عن ارتفاع معنوية الشبان المقاتلين من اهل البلد هـــو ما انتقله من فلاح الحمر المطيري الذي لا زال على قيد الحياة والذي وقتها كان بجانب جنـــود الامام ، يقول فلاح — انه بعد ان عاد الوفد الذي اوفد للامام عبد العزيز من اجل الصلح وفـــي عود فالوفد مر بقلعة متحصن فيها رجل يقال له فرج المطيري — وتحت قيادته عدد من أهـــل البلاد وقد سأل فرج الوفد عما اذا تم الاتفاق بالصلح ام لم يتم ؟ ؟ وعندما اجابه الوفد ان الاتفاق لم يتم عند ذلك اطلق فرج رصاصا من بندقيته بالهواء وذهب يزفرد باعلى صوته معبرا عن سروره وغبطته بعدم الاتفاق على الصلح . وسرورا باستمرار الحرب .

هذه صورة واقعية موجزة تعبر اصدق التعبير عن ارتفاع معنوية المقاتلين من الناحيـــة العسكرية ، اما من الناحية الاقتصادية . فان الحصار الاقتصادي كان له الاثر الخطر الـــذي يفوق الحصار العسكري . وذلك ان بلدا كحائل لم يكن فيها من الانتاج الغذائي ما يكفي حاجـــة اهل البلاد — وكما سبق ان ذكرت بان صاع التمن ارز العراق وعلت قيمته جنيها ذهبيا انكليزيـــا ومع ذلك لا يوجد تاجر يتظاهر بهبعه لا علنا ولا خفية .

---

(١) مرسال قتله العجان في الليلة التي قتل فيها الامير فهدا بن عبدالله بن جلوى في المعركة التي وقعت بين العجان وفهد بن جلوى .

والاسوى من ذلك وجود عامل ثالث أخطر من هذا وذاك . وهذا العامل هو الذى اثر تاثيرا عظيما في سلوكه الذى وهن به عزيمة الشيخ ابراهيم السالم السبهان[1] الذى قام بدور عظيم في تسليم البلاد - على النهج الذى نقلته عنه شفاهيا على الوجه الاتي : يقول الشيخ ابراهيم انني قبل ان أقوم بممارسة الاتصال بالامام عبد العزيز جمعت اعيان البلاد - وقلت لهم ما هو رايكم بالحل ؟ فهل نوافق على طلب الامام بالاستسلام ام اننا نقاوم ؟ ؟ فتولى الجواب مبارك الحماد العميم وقال بل سوف نستمر بالحرب الى المدى البعيد . فرد عليه ابراهيم وكيف نستطيع الاستمرار بالحرب ونحن في حالة سيئة من المجاعة التي حلت بالبلاد - فأجيب مبارك " نحن حتى الان لم نصل من المجاعة ولا عشر الحالة التي وصل اليها سبهان العلي[2] في حصار ابن شعلان له بالجوف - ولا الحالة الثانية التي وصل اليها عبد الرحمن بن ضبعان في حصار ابن سعود له في بريدة - والجميع حوصروا وبلغوا من المجاعة ما يجعلهم يباتون الطوى ليال متتالية بدون ان يجدوا ما يسد رمقهم - اما نحن فان المجاعة الى الان لم تبلغ بنا عشر ما بلغت برفاقنا اولئك - فكيف نستسلم لا لم نستسلم قطعيا - فقال الشيخ ابراهيم كل ما قلته عن ابن سبهان وعن ابن ضبعان صحيح لا خلاف فيه - ولكن هناك فرق بعيد المدى بيننا وبين سبهان وابن ضبعان - فالاول . وان كان محاصرا . فانه يعيش بامل يتوقع به اميره سعود بن رشيد ان يأتي ليفك الحصار عنه - كما ان ابن ضبعا هو الاخر يامل بان ياتي اليه الامير عبد العزيز ابن رشيد ليفك الحصار عنه اما نحن اذا سلمنا بقولك ومن ثم استسرينا بالقتال وبلغت المجاعة بنا درجة قد يتحملها مقاتلونا بنفس الروح التي تحملها مقاتلوا رجالنا من قوم ابن ضبعا وقوم سبهان .

---

(١) سوف اذكر هذا العامل في اخر هذا البحث .

(٢) انظر كتاب المؤلف من شيم العرب الجزء الثالث صفحة /٧٥/

ولكن اني لا طفالنا ونسائنا ان يتحملوا ذلك هذا من ناحية - ومن ناحية اخرى - ما هو الامل الذى نعلل به انفسنا في فك الحصار عنا كما كان سبهان وابن ضهمان يمني كل واحد منهما أملا على أن يأتي امير لفك الحصار عنه .

يقول الشيخ ابراهيم ان ذلك الاجتماع انتهى بدون ان يتم الاتفاق على شيء بسبب تصلب الشيخ مبارك الحماد - وانما يعود ابراهيم قائلا : ان مبارك يتناقض في ارائه .

حينما يسمع المرء قصة فتح حائل من مدبرها يقتنع بصواب عملك

ما من مرة جلست بها مع الشيخ ابراهيم السالم السبهان الا واجده يخلق الدراسة التي قام بها في سعيه بفتح حائل الذى تم على يده .

ولست اعلم هل ان الاسلوب الذى يتخذه معي يقوم به مع كل من يجلس معه ويطمئن اليه - ام انه يتوقع انني في يوم من الايام سوف انقل حديثه هذا للتاريخ - وفي رأيي ان كلا الامرين واردين - فهو على ما يبدو الي يتحدث في هذا الموضوع لكل من يطمئن اليه ليعرض له الصورة الواضحة التي قام بها في تسليم البلاد ساردا كل ما لديه من الحجج المبررة لعمله هذا - ومن ناحية اخرى لا يخفاه ان لدى ميلا في الكتابة والتأليف فيريد ان انقل عنه حديثه هذا للتاريخ .

والواقع ان المرء عندما يسمع من الشيخ ابراهيم تفاصيل الصورة التي دبرها في فتح حائل . فانه اى انسان عاقل منصف يدرك ان الشيخ ابراهيم لا يقال انه انقاد الامام عبد العزيز في عمله هذا الذى فتح له البلاد - بل انه انقاد البلاد لها - هذا اذا كانت الرواية التي

نقلتها عنه كلها حقيقة لا زلل فيها ولا اخال الشيخ ابراهيم الا انه صادق في روايته ولا سيما وقد نقلت الرواية عنه وهو مقعدا يناهز المائة سنة — وكم الحت عليه بان آتي بمسجل يسجل منه الحديث الذي رويته عنه . وقد اراد أن يوافق على طلبي — ولكن هناك قوم اثروا عليه فتراجع . وما اسرع ما يتأثر شيخ مسن كسنه بآراء المقربين اليه — وعندما وجدته متراجعا قلت له قاصدا ان أثير في نفسه احساسا واثقا وانه يعاني من ذلك الاحساس وخز الضمير الذي يجعله — يحرص على تكرار الحديث من قبيله بتسليم البلاد — قلت يا ايها العبد الكريم عليك ان تفهم بانني عندما اطلب منك تسجيل حديثك هذا فانني اقصد ان اثبت لك وللتاريخ بانك قمت بعمل كل السبل مغلقة امام اهل بلادك وان لا حل لها الا الحل الذي قمت به — وعليك ان تفهم ايضا انني اذا سجلت لك حديثك هذا فانه لم يكن مجال قط لمن يتهمك بالخيانة — بعد ما نسجل لك الادلة الدامغة المقنعة — اما اذا لم يتوفر للقارئ الادلة المحسوسة التي اسمعتني اياها فان التاريخ سوف يعتبرك خائنا » .

الى

عندما اسمعت الشيخ ابراهيم كلامي هذا انصرف القوم الذين يخالفونني في رأيي هذا — وتأنه بانحرافه هذا — كالطفل الذي ينظر ماذا يقول له والده — فكان الجواب من اولئك القوم الرئيس : فأخذ الشيخ الطاعن بالسن والمقعد برأي اولئك الذين لا شك عندي بانهم مخلصون له ولكن هذا اقصى ما يبلغه وعيهم وادراكهم سامحهم الله — فلو قدر لي ان اسجل حديثه لكان باستطاعتي ان اورد ادلة مقنعة اكثر من ذلك .

هكذا تم فتح حائل

اذا استثنينا الشباب المتحمسين من أهل البلاد ، وحامية القصر وقسم ايضا من اعيان البلاد فهؤلاء لديهم استعداد بأن يقاتلوا الى اخر نقطة من دم الواحد منهم .

ولكن اذا سمع الاسنان كلام الشيخ ابراهيم السالم الذي يزعم ان اغلبية اعيان اهل البلاد وخاصة أهل لبده موافقون على الخطة التي قام بها — ولكن الحقيقة انه قد يكون هناك من لا يكره ان يقوم شخص كابراهيم السالم بمثل هذا العمل ويرتاحون من الحصار وما ينتج عنه في نهاية الامر. ولكن اذا حققنا بالامر بعمق وتدقيق فاننا لا نستطيع ان نحكم بان هناك شخصا واحدا من اعيان البلاد يحاول ان يقوم بالعمل الذي قام به ابن سبهان ، قد يكون هناك دهماء نفوس يقومون بعمل خيانة قذرة — ثم يكون في يدهم مركزا عسكريا حساسا فيسعون بتسليمه لجنود الامام كما يشير (راشد) فتكون النتيجة وقتذاك سيئة على المهاجم والمدافع [1] — اما الذين يستطيعون القيام بمثل التسليم على النهج الذي قام به الشيخ ابراهيم بصورة لا ضرر فيها ولا اخطار — هما اثنان من آل سبهان — اما على الحمود السبهان — واما ابراهيم السالم والسبب ان هذين الشخصين بايديهما مراكز عسكرية حساسة — بخلاف ان الاول له اتباع كثيرون من اهالي لبده — وقد تكلمت عن علي الحمود السبهان الرجل الرزين والذي لا زال حيا يرزق نقلت عنه حديثا يقول فيه : انه جرت محاولة من الامام عبد العزيز معه بواسطة رجل يدعى عايد النويصر من رجال آل سبهان اسوة قوم الامام عبد العزيز في ايام تلك الحرب ثم عفا عنه وبعث معه رسالة شفوية لعلي السبهان راغبا منه ان يقوم بعمل من نوع العمل الذي قام به ابن عمه ابراهيم .

ولكن علي يؤكد أنه رفض ذلك فتكون [illegible] .

واخيرا — يحدث محمد الشويعر مخطوطا من قبل امير البلاد محمد الطلال يتفاوض مع الامام عبد العزيز على موضوع الصلح — على ان تمثل امارة آل رشيد مستقلة استقلالا داخليا ويجدر بنا أن انقل عن عبد العزيز ابن زيد قوله : انه اختلى بمحمد الشويعر عندما اراد ان يذهب لابن سعود وقال له اياك ان تأتي الينا الا بالطريقة التي تخلصنا بها .

---

(١) من الحجج المقنعة التي يدلي بها الشيخ ابراهيم في سعيه بفتوح حائل قوله : انني

وقد قلت لابن زيد ـ ولماذا لم تقم انت بالطريقة التي تشير اليها . وذلك عندما ذهبت موفودا من قبل الامير ابن طلال أي من قبل أن يذهب الشويعر ؟؟ فكان جواب ابن زيد قوله : انني لا اريد ان اتحمل المسؤولية التاريخية » ـ والحقيقة كما قال . فابن زيد رجل تكتنفه الشكوك ذو رأي سديد ولكنه ضعيف الارادة في تحمل مسؤولية تاريخية كهذه . يضاف الى ذلك ان ولاءه المعروف للامير ابن طلال الذي جاء عن طريق العوني يجعله يتورع بان يقوم بعمل كهذا .

هذا وقد ذهب الوفد برئاسة حمد الشويعر الذي معه من الشيخ ابراهيم السهمان صلة رحم من قبل النساء ـ ويحمل من ابراهيم رسالة شفوية تتضمن الاستسلام بعهد من الامام بأن لا يمس أحد بسوء لا من اسرة آل رشيد ولا من المستعربين بهم وخاصة امثال فهد بالخيل وآلهيا ـ الاول من زعماء بريد . والثانين من زعماء عنزة والعوني وغيرهم مما يقال لهم في العصر الحديث لاجئين سياسيين ، ومقابيل ذلك يسلم ابراهيم السهمان المراكز العسكرية الحساسة التي اذا استلمها جنود الامام سيطروا على البلاد ولم يكن اي مجال للقتال .

وكان اهم شيء بالنسبة للشويعر هو ان يختلي بالامام عبد العزيز على انفراد . بدون ان يشعر شك رفاقه الموفودين معه ـ وكانت الطريقة التي قام بها حمد الشويعر التي تضمن له الانفراد بعبد العزيز دون اثارة الشك تتلخص بما يلي : عندما صافح الشويعر عبد العزيز همز اصبعه الوسطى علامة يشير بها الى ما لديه من حديث فما كان من الامام الفطن الذكي الا أن اختلى بالموفودين واحدا واحدا على انفراد حتى يضيع الشويعر بينهم ـ وهناك وصل كل من

بادرت بهذا العمل حتمية ان يقوم به انسان لا ضمير له فيسلم البلاد بدون قيد ولا شرط فتكون بذلك الكارثة الكبرى .

الامام عبد العزيز والشويعر الى هدفهما المنشود . اى الوفاق على الإستسلام طبقا للشروط السالف ذكرها .

وفي ليلة ظلماء من ليالي ٢٩ رجب ١٣٤ جاء قوم من رجال الامام عبد العزيز الى موقع قيادة الشيخ ابراهيم السبهان وهو في مزرعة تسمى (الزبارة) محاذية لسفح الهلاد من الناحية الجنوبية - وكان اهم مركز في المناطق التي يعد ابن سبهان جبل يسمى - أعرف - هذا الجبل اذا استولى عليه الاخوان جنود الامام - لم يعد اية فائدة لمقاومة اهل الهلاد ، لانه مسيطر سيطرة كاملة على الهلاد ولا يستطيع من في الهلاد ان يرفع راسه .

وهناك مواقع جنوبية اخرى يعد ابن سبهان ولكنها اقل اهمية من جبل - اعرف - وكانت الخطة التي استطاع ابن سبهان ان يخدع بها اولئك المقاتلين الذين تحت قيادته في تلك المراكز هي الاتية :

بعث رجالا ممن يثق بهم الى اولئك الذين بالمراكز قائلين لهم أن لدى الشيخ ابراهيم شيء يدعوكم لتناوله سريعا لتعودوا حالا . وان لا يبعث الا شخص او شخصين في المركز واذا جاء هؤلاء - اتى من خلفهم جنود الامام عبد العزيز واحتلوا مركزهم وهكذا يعد الى ان استولى جنود الامام على جميع المراكز الجنوبية التي يعد ابن سبهان التي لها أهمية كبرى من الناحية العسكرية - اما المدعون للوليمة الوهمية فانهم عندما يعد ون من الشيخ ابراهيم يجدون رجالا يامرونهم بالتخلي عن اسلحتهم ومن بين المقاتلين الذين تكتموا على ابراهيم سبهان كلاما جارحا نالما اياه بالخيانة - فهد العيسى المشاري - الذى لا زال على قيد الحياة - لقد تكلم المشاري على ابراهيم عندما وثق بالمؤامرة - ولكن الكلام يظل مفعوله بعد ان صمت صوت الرصاص وصمت معه صوت شاعرنا العوني - الذى ظل يعد ذلك في برزان قصر الامارة ملازما لامير البلاد

وقد قلت لابن زيد ـ ولماذا لم تقم انت بالطريقة التي تشير اليها . وذلك عندما ذهبت موفودا من قبل الامير ابن طلال أي من قبل أن يذهب الشويعر ؟؟ فكان جواب ابن زيد قوله : انني لا اريد ان اتحمل المسؤولية التاريخية)) ـ والحقيقة كما قال . فابن زيد رجل [illegible] ذو رأي سديد ولكنه ضعيف الارادة في تحمل مسؤولية تاريخية كهذه . يضاف الى ذلك ان ولاءه المعروف للامير ابن طلال الذي جاءه عن طريق العوني يجعله يتورع بان يقوم بعمل كهذا .

هذا وقد ذهب الوفد برئاسة حمد الشويعر الذي بينه وبين الشيخ ابراهيم السهمان صلة رحم من قبل النساء ـ ويحمل من ابراهيم رسالة شفوية تتضمن الاستسلام بعهد من الامام بأن لا يمس أحد بسوء لا من اسرة آل رشيد ولا من المستعربين بهم وخاصة امثال فهد بالخيل والحيحا ـ الاول من زعماء بريدة . والثانين من زعماء عنيزة والعوني وغيرهم مما يقال لهم في العصر الحديث لاجئون سياسيين ، ومقابيل ذلك يسلم ابراهيم السهمان المراكز العسكرية الحساسة التي اذا استلمها جنود الامام سيطروا على البلاد ولم يكن اي مجال للقتال .

وكان اهم شيء بالنسبة للشويعر هو ان يختلي بالامام عبد العزيز على انفراد . بدون ان يشعر شك رفاقه الموفودين معه ـ وكانت الطريقة التي قام بها حمد الشويعر التي تضمن له الانفراد بعبد العزيز دون اثارة الشك تتلخص بما يلي : عندما صافح الشويعر عبد العزيز همز اصبعه الوسطى علامة يشير بها الى ما لديه من حديث فما كان من الامام الفطن الذكي الا أن اختلى بالموفودين واحدا واحدا على انفراد حتى يضيع الشويعر بينهم ـ وهناك وصل كل من

بادرت بهذا العمل خشية ان يقوم به انسان لا ضمير له فيسلم البلاد بدون قيد ولا شرط فتكون بذلك الكارثة الكبرى .

الامام عبد العزيز والشروع الى هدفهما المنشود . اى الوفاق على الإستسلام طبقا للشروط السالف ذكرها .

وفي ليلة ظلماء من ليالي ٢٩ رجب ١٣٤ جاء قوم من رجال الامام عبد العزيز الى موقع قيادة الشيخ ابراهيم السبهان وهو في مزرعة تسمى (الزبارة) محاذية لسير البلاد من الناحية الجنوبية - وكان اهم مركز في المناطق التي يعد ابن سبهان جبل يحمى - أعرف - هذا الجبل اذا استولى عليه الاخوان جنود الامام - لم يعد اية فائدة لمقاومة اهل البلاد ، لانه مسيطر سيطرة كاملة على البلاد ولا يستطيع من في البلاد ان يرفع راسه .

وهناك مواقع جنوبية اخرى يعد ابن سبهان ولكنها اقل اهمية من جبل - اعرف - وكانت الخطة التي استطاع ابن سبهان ان يخدع بها اولئك المقاتلين الذين تحت قيادته في تلك المراكز هي الاتية :

بعث رجالا ممن يثق بهم الى اولئك الذين بالمراكز قائلين لهم أن لدى الشيخ ابراهيم هناء يدعوكم لتناوله سريعا لتعودوا حالا . وان لا يبعث الا شخص او شخصين في المركز واذا جاء هؤلاء - اتى من خلفهم جنود الامام عبد العزيز واحتلوا مركزهم وهكذا حتى ان استولى جنود الامام على جميع المراكز الجنوبية التي يعد ابن سبهان التي لها أهمية كبرى من الناحية العسكرية - اما المدعون للوليمة الوهمية فانهم ما ان يدنون من الشيخ ابراهيم يجدون رجالا يامرونهم بالتخلي عن اسلحتهم ومن بين المقاتلين الذين تكلموا على ابراهيم سبهان كلاما جارحا نابيا اياه بالخيانة - فهد العيسى المشاري - الذى لا زال على قيد الحياة - لقد تكلم المشاري على ابراهيم عندما وثق بالمؤامرة - ولكن الكلام يبطل مفعوله بعد ان صمت صوت الرصاص وصمت معه صوت شاعرنا العوني - الذى ظل بعد ذلك في برزان قصر الامارة ملازما لامير البلاد

ولم يتخل عنه في تلك الساعة الحرجة التي لا يعلم امير البلاد ولا العوني عن الصورة التي علم فيها ابراهيم بن سبهان تلك المراكز العسكرية - التي يخال بعد تسليمها اى معنى من معاني القتال - وكانت اربط الطريقة التي لجأ اليها الامير ابن طلال هي ان تحصن بقصر الامارة هو وقسم من حاشيته الاوفياء الذين قرروا ان تكون نهاية حياتهم مربوطة بحياة اميرهم. وكان العوني في مقدمة اولئك النجعان الاوفياء. وآثروا بعنها لجنب مع صديقه وامره محمد الطلال - علما ان الكثير من اعيان اهالي البلاد بعد ان وثقوا من نجاح عملية ابن سبهان. ذهبوا على الفور يعلنون على الناس الناتج وكما ذكرت اعلاه لم يبق في القصر بجانب الامير الا قلة من الحاشية. وفهد ابا الخليل وشاعرنا العوني - كانوا جميعا على اتم الاستعداد ان يقاتلوا الى آخر نقطة من دم كل واحد منهم فيما اذا لم يكن في عملية ابن سبهان شرط يضمن لهم الحياة الكريمة.

ظل الامير بن طلال في قصره الى أن جاء الوفد الامير عبد العزيز بن مساعد موفدا من قبل الامام الفاتح يؤمنه على حياته وكرامته هو وجميع اهل البلاد - وضيوف الامير والمستجيرين به.

وكان لابد من لابد منه. ان لابد من ان يذهب الامير محمد الطلال بصحبة الامير عبد العزيز ابن مساعد وكان العوني في طليعة الرجال الافذاذ الذين لم يستسلموا حتى استسلم امير البلاد.

وهكذا انتهت امارة حائل وانتهى معها صوت الرصاص وصوت العوني معا - ولم ولن يصدر من العوني اى بيت من ابياته الحماسية التي كان يصدح بها قبل فتوح حائل واثناء الحصار - بل ولم ينشد العوني اى بيت بعد ذلك اللهم الا القصائد التي انشد منها اثنتين او اكثر بالامير

عبدالله بن جلوي . وقصيدتين كلتيهما رجوع الى الله بعد ان يئس من نجدة المخلوق الفاني — فعندئذ توجه الى خالقه — وكل من قصائده هذه اشتدها وهو في السجن ، الذي انتهت حياته فيه — كما سنوافي القارئ بتوضيح عن ذلك الفصل الخاص بنهاية حياة العوني .

ما دمت قد وصلت الان في كتابي هذا الى نهاية امارة آل رشيد ولم يبق امامي الا فصلان اختم فيهما هذا الكتاب — احدهما يتضمن نهاية حياة العوني والثاني يحتوي على اراء المواطنين في هذا الشاعر السياسي الطموح — كما يحتوي على حكمة وامثاله أقول مادام الامر كذلك فانه لايطيب لي قبل ان اورد هذين الفصلين ، بان اختم هذا الفصل في الحديث عن موضوعين لم يسبق لمؤرخ ان كتب عنهما بصورة مفصلة — وهذان الموضوعان احدهما يختص بالحديث عن السببين اللذين اطاح بامارة آل رشيد السبب الاول الرئيسي البعيد المدى والاهم وسبب آخر وان لم يكن ذا اهمية كالاول — الا انه من ضمن الاسباب المباشرة التي اسرعت في فتح حائل .

واما الموضوع الثاني . والذي ينبغي ان يكون الاول لاهميته لولا تسلسل الاحداث من الناحية التاريخية هذا الموضوع هو عظمة الامام عبد العزيز التي تتجلى في مواهبه الفذة كقائد ملهم لا يعبأ بانتصاره العسكري والمادي على اعدائه بقدر ما يهمه بالدرجة الاولى انتصاره المعنوي الذي يستولي به على افئدة اعدائه .

وعندما اختم هذا الفصل في هذين الموضوعين فان غايتي منهما ان لا تكون كتابتي محصورة على سرد الاحداث وانما اردت ان يأخذ القارئ الدرس والعبرة مما هو حسن من هذه الاحداث — كما يأخذ الحذر عن الوقوع بالاخطاء التي حدثت من السابقين .

لا يهتم الملك عبد العزيز بالنصر المادى بقدر ما يهمه النصر المعنوى

لما كانت الغاية من كتابه تاريخ الامم والعباقرة الافذاذ تستهدف أخذ العبـــره والدرس. فانني بعد أن اوردت الاحداث والحروب التي قامت بين الامام ابن سعود وامـراء آل رشيد والتي كان صاحب الترجمه اى العوني محور الحركة في كثير منها سواء عندما كـان بجانب ابن سعود او بجانب ابن رشيد ـ تلك الحروب الطاحنه التي انتهت بفتوح الامام لحائل واستيلائه عسكريا على امارة آل رشيد . فانني ارى بعد ذلك ان المسؤولية التاريخية تفرض علي أن أكتب بوضوح عن موضوعين اغفلهما الكثير من المؤرخين الذين تصدوا لكتابة تاريـــخ بلادنا في تلك الحقبه التاريخية .

وهذا الموضوعان وان كان متصلا بعضهما بالبعض . فان أحدهما هام جدا والاخـــر مهم ـ او كلاهما مهمان ، فالموضوع الاهم هو الحديث عما يتمتع به الملك عبد العزيز من مواهب بلغت القمة بالسمو ـ مواهب قل ان تتوفر الا بالعباقرة الافذاذ الذين اختارهم الله واصطفاهم ويستحيل ان يأتي الى العالم البشرى من امثالهم الا بعد احقاب من السنين ـ هذا هـــو الموضوع الاهم.

واما ما اعنيه بالموضوع الثاني المهم فهو فتوح حائل ـ الذى عن طريقه نصل الـــى الحديث عن شخصية الامام عبد العزيز. والواقع ان فتوح حائل حدث تاريخي لا يعرف أهميتـــه القصوى الا الرجال الذين عاشوا تلك الحقبه التاريخية.

واذا كانت حياة الملك عبد العزيز كلها نصر وفتوحات فان اهم انتصاراته فتح حائل .

واذا كنا لم نجد زعيما من زعماء مدن نجد والحجاز وعسير واليمن ، الا وتصدى لمحاربة عبد العزيز اللهم الا ماندر ، فاننا نجد اشرس واعنف واشد اولئك الزعماء ضراوة وصلابة هم زعماء حائل واهلها وقبيلتها .

وقد يبدو للقارئ الجاهل في معرفة تاريخ بلادنا أن كلامي هذا صادر عن حافز اقليمي ليس الا . وللقارئ الجاهل او المتجاهل الحق كل الحق بأن يتهمني هذا الاتهام ولكنه عندما يعيد النظر بدراسة تاريخ بلادنا . وسيستعرض جميع الزعماء الذين تصدوا لمحاربة عبد العزيز من حضر وبدو وابتداء من آل سهنا زعماء بريدة عاصمة القصيم . ومرورا بآل عايض زعماء عسير ونظرة الى الادارسة زعماء تهامه ووقوفا عند شريف مكه الذي يملك القناطير من الذهب والفضة ، وتأملا بالامام يحيى حميد الدين — هذا بالنسبة للقادة الحضر ، ناهيك بالبدو — الذين مامن قبيلة من قبائل المملكة الا وتصدت لحرب عبد العزيز اللهم الا النادر القليل الذي لا يؤبه له .

كل من أولئك الحضر وهؤلاء البدو عندما تقع معركة بينهم وبين الامام عبد العزيز فانها تبتدئ وتنتهي بحرب ساعات محدودة ولا ولم يتبادل فيها المتحاربون السلاح الابيض — ثم تنتهي بالنصر للبطل عبد العزيز .

اما عندما تامت الحرب بين زعماء حائل واهلها وقبيلتهم . فانها ظلت واحدا وعشرين سنة ووطيس الوغاء قائم بين الفريقين والحرب بينهما سجال . وما من معركة التقا فيها الجمعان الا وكان السلاح الابيض بينهما هو الحكم الفاصل — الى أن تمت الغلبة والنصر النهائي للامام عبد العزيز .

ويطيب لي ان يعلم القارئ أنني حينما أوضح هذه الحقيقة التاريخية التي اغفلها المؤرخون ، فانني أود ان اوضح حقيقة متصلة بهذه اتصالا لا ينفصل ولها من الاهمية القدر الذي لا يقل عن الاولى اذ لم يربو عليها الا وهي الاتية .

عندما استطردت في تذكري لقوة الخصم وشراسته وصلابته وجلده — واستماتته في القتال وتفانيه في سبيل مجد بلده وقبيلته ، أقول حينما ذكرت ذلك اردت اولا أن يدرك الانسان المبتدئ والمنتهي معنى القاعدة العسكرية القائلة « الاهمية لانتصار القائد الغالب الا اذا كان خصمه مسرفا بالشجاعة والبطولة » واردت ثانيا ان ينظر القارئ للامام عبد العزيز بعين طوها الاعجاب والتقدير لا من أجل انه ثابر الى أن استطاع ان يسيطر على ذلك الخصم التناهي بالعنف . وينتصر عليه انتصارا عسكريا وسياسيا وماديا فحسب — بل لان الفاتح عبد العزيز استطاع ان يفتح قلوب هؤلاء وينتصر عليهم انتصارا معنويا وادبيا وعلميا يفوق فتحه لبلادهم عسكريا . وانتصاره عليهم سياسيا .

وكل من درس تاريخ حياة عبد العزيز بتدبر وعمق يدرك للوهلة الاولى ان ذلك الرجل العظيم لا يعبأ قطعيا بانتصاره العسكري الذي يزول بزوال ظروفه الملحة ، وانما يعتمد على انتصاره المعنوي الذي يهيمن به على افئدة خصومه لا أن ينسيهم احقادهم المزمنة واحقادهم الغابرة فقط — بل يستولي على قلوب احفادهما لاصحتى يجعل منهم رجالا تبلغ محبة احدهم له درجة تجعلة على اتم الاستعداد أن يود لو أن الاجال تمنح لما تأخر من ان يمنح قسطا من أجله لعبد العزيز كما سمع كاتب هذه الاسطر لجملة التي تحدث فيها عبدالله المتعب الرشيد في احدى المناسبات عندما قال « لو ان الاجل يمنح كما يمنح المال لمنحت من اجلي قسطا لعبد العزيز بن سعود[1] » .

---

(١) راجع كتابي المؤلف التطور الفكري في جزيرة العرب صفحة ٣٣٠ ١٩٧١ — وفهد بن سعد و مغرمة ثلاثين عاما صفحة ١٣٢ .

وللتاريخ ان يعلم بأن عبدالله هذا لم يكن فقط أمير حائل الذي تولى امارتها بصورة مباشرة بعد مصرع عمه الامير سعود - ولا لانه حفيد الامير عبد العزيز الذي تشرب بشجاعته الاوصاف ، بل لانه من عرفه عبدالله جيدا يحكم بلاشك ان شخصية القيادة والزعامة متوفرة في ذاته توفرا اصيلا - وعندما أقول اصيلا لا أقصد اصالة الحسب والتي وان كان لها اهميتها - الا انها تأتي من طريق الوراثة وما أكثر الوارثين الذين لو جردوا من وراثتهم هذه لاصبح احدهم انسانا عاديا أو اقل من العادي - وانما اقصد ان عبدالله المتعصب من نوع الرجال الذين لو القيت احدهم بالشارع لبرز قائد وزعيما لان الله خلق في شخصه صفات القيادة والزعامة ، ومع ذلك نجد الملك عبدالعزيز انتصر على فؤاده ادبيا ومعنويا أكثر من انتصاره العسكري .

أجل ان من يدرس حياة وتاريخ ذلك العبقري بحكم الحكم العادل القاطع - بانه لا يحبأ قطعيا بالنظر العادي كما يحبأ ويهتم بالنصر المعنوي على خصومه - هذه الحقيقة طاب لي ان لا اغفلها كما أغفلها الكثير من المؤرخين - الذين مروا على فتوح حائل مرورا رمزيا دون أن يقفوا عندها طويلا ، ودون أن يعودوا الى مراجعة التاريخ بعمق لينظروا ان اعظم نصر حققه الامام عبدالعزيز من الناحية العالمية - هو فتح مكة - ولكنه لا قيمة له من الناحية العسكرية عندما يقاس بفتح حائل . وهل تريد دليلا اعظم من أن فتح مكة وقبلها الطائف تم على يد عدد قليل من بادية عتيبة بقيادة الشيخ خالد بن لؤي وسلطان بن حميد - بينما فتح حائل لم يتم ولن يتم الابعد أن جاء الامام عبدالعزيز نفسه - بعد أن تعذر فتحها على جميع قادة عبدالرحمن بمعيته الجاحافل الذين بعثهم الامام بقيادة شقيقه الملك السابق وبقيادة ولدي الامير سعود والامير فيصل الملك الحالي .

من هنا تعرف اهمية هذه البلاد ومن هنا يعجب القارىء اعجابا لا مزيد عليه بما يتمتع به عبد العزيز من بطولة عسكرية خارقة . وحنكة سياسية فذة ، وقدرة ادارية لا يبارى فيها ـ اما وقد انتهيت من ذكر هذه الناحية ذات الاهمية البالغة في تاريخ بلادنا . فانه يطيب لي بعد ذلك ان وافي القارىء بما وعدته به الا وهي الاسباب التي كانت طـــــلا ايجابيا في نهاية امارة آل رشيد .

جعل الله لكل شيء بداية ونهاية واسباب لهما

كما ان لبداية الحكم اسباب تسرع في نموه ـ كذلك اذا ادبر توفرت اسباب تقوض صرحه . والاسباب التي توفرت في نمو امارة الرشيد منذ أن ولدت ـ اسباب جدير بها ان يخصص لها بحث او كتاب مستقل ـ فان امد الله باجلي اصدرت كتابة في هذا الموضوع .

اما وقد كتبت في هذا الفصل الصورة التي انتهت عليها امارة آل رشيد . فلا بـــد لي والحالة هذه ان اورد موجزا عن السبب الرئيسي الذي اودى بحياة هذه الامارة .

اقول موجزا لان الشرح الكامل يبعد بنا عن صلب الموضوع الذي نحن بصدد الكتابة فيه ولذلك أود أن اختصر الكتابة على ذكر ثلاثة اسباب الاول اصابة تلك الامارة بالحســـم وهي لا زالة فتية وذلك قبل سقوطها بثمان وخمسين سنة . واود ان اباشر في ذكر هذا السبب الاول وبعد ذلك اعود الى ذكر السبب الثاني والثالث .

كثيرا ما نجد الاراء في ذكر اسباب نهاية هذه الامارة متباينة ومتعددة ـ فمثلا هناك من يقول ان السوس بدأ يدخر في امارة آل رشيد منذ أن توفي محمد العبدالله الرشيد في عام ١٣١٥ هـ على اعتبار انه الامير الوحيد الذي بلغت امارة حائل في عهده منزلة من السمو لم تبلغه لا من قبله ولا من بعده.

وقسم آخر يرى أن هذه الامارة بدأت تتدحرج من الاعلى حتى وصلت الهوة وسقطت وذلك منذ مصرع اميرها الفارس عبدالعزيز بن متعب في عام ١٣٢٤ ـ وهناك من ينظر الى اسباب نهاية امارة آل رشيد نظرة قريبة المدى فيظن أن النهاية باتت واضحة للاعيان منذ مصرع الامير سعود بن رشيد على يد ابن عمه عبدالله بن طلال في عام ١٣٣٨.

هذا ما يقوله هؤلاء واولئك ، ولكننا لم نسمع قطعيا عن ذكرى سبب من الاسباب الثلاثة التي سنوردها ـ وحتى السبب الرئيسي لم نسمع عن ذكره واغني به تلك الرواية التي نقلها لنا الشيخ عبدالعزيز بن زيد التي يقول انه نقلها هو بدوره عن والده. ووالده حمود الزيد نقلها لابنه عن الامير محمد العبدالله. واليك خلاصة هذه الرواية المتسلسلة عن مصادر كلها ثابتات لا يرقى الشك الى صحة روايتهم الاتية.

يقول عبدالعزيز الزيد ان والده كان مرافقا لمحمد العبدالله بن رشيد في احدى سفراته التي سافر فيها للرياض لزيارة الامام الحاكم لنجد وقتها عبدالله الفيصل ـ وفي أحد الايام التي كان جالسا فيها محمد عند الامام عبدالله ـ أخبره الامام بوفاة اخيه الامير متعب الذي لقي حتفه قتيلا على يد ابن اخيه بندر في عام ١٢٨٢ هـ وبعض الراوي عن والده قائلا : ان الامير محمد عندما توجه بالخبر الى حائل وصرا [illegible]

ووصل دار الضيافة التي اعدها له مضيفه الامام عند ذلك انفجر باكيا كالطفل - وعندما قال له معزوه عليك ان توكل امرك لله وتتحمل مصيبتك باخيك بايمان وصبر وجلد » اجاب محمد لائمة هؤلاء قائلا : انني لست باكيا على متعب وان كان اخي فانني لم ابكيه لانه استأنسني الامرين بسبب عنفه وشراسته . وانما ابكي على حكمنا الذي لقتير معاول الهدم بدأت من الان تقضه من اساسه وأبكي على عائلتنا التي سوف يبيد رجالها السيف ويموت بعضهم من بعد البعض لامحالة - لان العائلة اذا عبث فيها السيف الاول مرة في افرادها ، فان هذا السيف لن يدخل جفيره قطعيا حتى يبيد العائلة عن بكرة ابيها ».

وعلى اساس هذا المنطق المعقول الذي قاله الامير محمد نستطيع ان نؤكد ما سلف ذكره في أول هذه الصفحات ان السوس بدأ ينخر في كيان هذه الامارة. وهي لا زالت في عنفوان بدايتها اي منذ عام ١٢٨٢ هـ.

والجدير بالذكر ان الامر الذي توخاه الامير محمد وتنبأ بوقوعه - حقق هو بنفسه قسما كبيرا منه حيث قتل الامير بندرا القاتل للامير متعب كما قتل محمد أخوه بندر الخمسة وهم بدر وسلطان وسلط ونهار وآخرهم نايف .

وهكذا ظل السيف يعبث في اسرة آل رشيد حتى قضى على العدد الوافر من رجالها الشجعان ومهدوا من انفسهم لانفسهم السبيل للعدو وهم وقالوا له بعبارة صامته هلما اجهز على امارتنا فانها تلفظ انفاسها .

اذا كان السبب الاول اصاب الامارة في بداية فتوتها - فان السبب الثاني اصابها في سواد قلبها وهي في عنفوان مجدها اصابها هذه المرة من طريق العالم الجليل والرجل الداهية العظيم - الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ الذي جلبه الامير محمد العبدالله

ابن رشيد من الرياض واسكنه عنده بحائل بحجة ظاهرها اكرامه وباطنها تحديد اقامته .

واذا كان الامير محمد عندما جلب الشيخ عبدالله من الرياض كان الحافز لذلك خوف الامير من أن يسيطر الشيخ محمد عبدالله بدهائه وعلمه وعقله على ساكني الرياض وحسن ثم ينقلبوا ضده - فانه في جلبة له الى عاصمة امارته حائل وقع الامير باعظم مما يخشاه - ذلك ان الشيخ عبدالله اثناء اقامته المحدودة بحائل هيمن بشخصيته الفذة على نخبة من طلاب العلم - اى العلم الدينى - فكون منهم حزبا يؤمن ايمانا راسخا في تعاليم الشيخ وتوجيهاته . تلك التعاليم والهادى التي من شأنها هدم امارة آل رشيد ، وكانت النتيجة ان ظل اتباع الشيخ طابورا خامسا في امارة رشيد - جسد اصحاب هذا الطابور بحائل وقلوبهم في الرياض - وظلوا يتفقون سموهم القتلة ضد ابن رشيد وهم في عقر داره فكانوا ولا شك من اهم العوامل الهدامة التي دكت عرش تلك الامارة وسفت اعلاها على اسفلها على طول المدى - هذا هو السبب الذى ذكرته بايجاز .

والسبب الثالث المباشر الذى اسرع في نهاية الامارة وخصه بالفترة التي كان الامام عبدالعزيز مطلقا للبلاد وهي الفترة التي بدأت فيها الامارة تحتضر . ولم يبق الا أن تلفظ انفاسها ، في تلك الفترة تظافرت جهود نفر من ضعفاء النفوس الخونه - الذين كانوا منذ فترة طويلة وهم يكاتبون العدو ليلادهم سرا - وهم في ذمتهم عهد لحاكم بلادهم - وعندما شدد الامام عبدالعزيز الحصار على حائل - وقتل من قتل من شبان البلاد كما مر بنا - كان لهؤلاء الخونه يد عظيمة توهين عزيمة الرجال . كما لهم يد طولى في كوهم همزة الوصل بين ابراهيم السالم السبهان وبين الامام عبدالعزيز . وفي مقدمة اولئك الخونه رجل يسمي نفسه

---

(١) راجع كتاب المؤلف من شيم العرب ص ٢٧٦ ج ٣ .

في مكاتبته للامام حسن الحسلوى . فانه اسم مستعار ـ وهذا الخائن لم يدفعه الى خيانته فائدة يؤمن بها ولا حاجة مادية ـ وانما هو حب بالخيانة لانها فطرته التي فرست بدمه ولحمه الرغبة في الخيانه فهو خلق خائنا كما ان الوفي خلق وفيا ـ فالاول يخون عهد الله ويخون اهله ووطنه وحتى والديه والثاني اذا اوتمن واعطى على نفسه عهدا وفى به ولو كان الذى عاهده قاتلا لابيه فانه لا يخونه وهكذا كانت الخيانه في دم حسن ولحمه وهي بالتالي خلق من اخلاقه .

وارجو ان لا يشمئز القارىء من تكراري لكلمة خائن متعمدا لا من اجل الطعن بشخص « حسن الحاوى » فهذا الرجل مات منذ اكثر من ثلاثين سنة ـ اذن تكون غايتي من تكرارها محصورة على كرهي واحتقاري لاى رجل يكون في ذمته عهد الله لاى حاكم كان . ثم بعد ذلك ينكث عهده ويكاتب اعداءه سرا ـ هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أردت ان يعلم الخائن او الذى تحدثه نفسه بخيانة حكام بلاده ـ انه لو نجا من عقاب حكامه الذين استطاع ان يخفي خيانته عنهم ويخدعهم ـ فانه سوف لا ينجو من عار التاريخ الذى سيظل وصمة سوداء لا في جبينه فحسب بل سوف يورث هذا الخزي لابنائه واحفاده .

ورحم الله الملك عبد العزيز الذى قال أكثر من مرة « من خان لك خان بك » ردد عبد العزيز هذه الكلمة مرارا وتكرارا على مسمع من حسن الحساوى . وذلك بعد سقوط امارة آل رشيد .

وينسب عن نابليون ـ انه وهب مبلغا من المال لاحد الخونه الذين يرفعون له اسرار حكوماتهم الذين كان نابليون يحاربهم ـ وهذا المال الذى وهبه نابليون لذلك الخائن طرحه له بالارض كما يطرح الطعام للكلب ـ وعندما احتج العميل على العمل الذى قام به

نابليون ـ اجابه نابليون بقوله : انا لا استطيع ان اناولك المال من يدي لان يـــــد الامبراطور ((يعني نفسه)) لم يسبق لها أن مست يد خائن .

لقد استطردت في ذكر هذا السبب الثالث الذى وان كان أوهن الاسباب التـــي اطاحت بامارات الرشيد . الا انه عمل دنيء يجب احتقار من يقوم به لكي لا يتكرر .

وبعد فانني اود ان اختم هذا الفصل الخاص بفتون حائل وما اتصل به من الحديث المرتبط بتلك الامارة وباسباب سقوطها الخ .

اقول : اود بأن اختم هذا الفصل ببحث يعبر عن جانب من جوانب شخصية الملـــك عبدالعزيز ذلك العبقري الذى لا يستطيع اى كاتب ان يحيط بجميع جوانب شخصيته ـ والجانب الذى يعنيني الحديث عنه هو من اروع سجايا الملك عبدالعزيز بل هو السر الوحيد الذى بفضله وحد الجزيرة العربية . واذا كان اسكندر ذو القرنين الذى ذكره الله لكتابه العزيز عنـــدما وجه اليه السؤال التالي :

بماذا تم ملكك ؟؟ ـ اجاب بما يلي :

باستمالة الاعداء وتعهد الاصدقاء ـ فان الملك عبدالعزيز يطبق هذه القاعدة تطبيقـــا حرفيا ـ وهذا ما يراه القارىء بالفقرة الاتية .

الفصل الرابع عشر

آخر ايام العوني ونهاية حياته

عندما انتهت امارة آل رشيد بالاسلوب الذي مر بنا ذكره . وفي الساعة التي وصل بها الامير محمد الطلال وحاشيته خيمة الامام الفاتح ، وفي مقدمة الحاشية صاحب الترجمة العوني — في تلك اللحظة التاريخية يؤكد الرواة شهود العيان ومن جملة اولئك الرواة الشيخ عبدالعزيز بن زيد — ان الامام عبدالعزيز لم يترك معنى من معاني الملاطفة والكلام الطيب الحسن الذي يرضي به المغلوبين وينسيهم الماضي . ويفتح قلوبهم كما فتح بلادهم ، الا قاله باسلوب بالغ بالرقة واللياقة — وكان كثيرا — ما يستشهد بآيات القرآن الكريم ذات المعاني التي تطمئن النفوس اليها — ومن ضمن الايات التي استشهد بها ، الاية الكريمة التي جاءت عن لسان ذي القرنين فقال الامام (ايها الاخوان لا اقول لكم الا ما قاله الله تعالى على لسان ذي القرنين — ثم شاء ان يتلو الاية التي كان حافظا لها ومتصورا معناها في ذهنه ولكنه غاب عنه ان يستحضرها كما وردت — بنصها فانحرف الى الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ مشيرا اليه بانحرافه هذا بأن يذكره بأول الاية — ولكن الشيخ لم ينتبه لاشارته — وكان من ضمن حاشية الامير ابن طلال فهد الفويه الشاعر الشعبي المشهور الذي انتبه لما يقصده الامام من معنى الاية فقال الفويه يقول الله تعالى : فاما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الحاربه فيعذبه عذابا نكرا — واما من أمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا [1] .

---

(١) الايتان من ٨٧—٨٨ من سورة الكهف.

ومن دقة ملاحظة الامام عبدالعزيز انه مال الى الجالسين وقال : من هذا ؟؟ يقصد الغويه فتولى الاجابة الشيخ فيصل الدويش وقال هذا فهد الغويه .

الشاهد من حديثنا هذا انه لم تغب شمس ذلك اليوم الا والقائد الفاتح مالك قلوب اهل حائل باسلوبه الكريم - الى درجة أصبح رحيم ابراهيم المهوس المعروف بسرعة خاطره ووضوح بيانه يقول اذا اراد ان يقسم صادقا « والله مقلب القلوب والابصار الذى جعل كل فرد من اهل حائل عندما بزغت شمس ٢٩/ صفر ١٣٣٨ لا يوجد بالدنيا بشخص من عبدالعزيز بن سعود وغابت شمس ذلك اليوم . ولا يوجد مخلوق احب الى قلوبنا من عبدالعزيز بن سعود - ان هذا الامر لم يحصل الخ » .

هذه صورة مصغرة من الاسلوب الذى يملك به عبدالعزيز قلوب الرجال .

واخيرا ظل الامير ابن طلال بمعسكر الامام عبدالعزيز . اما العوني وجميع شخصيات البلاد وكثير من الحاشية عادوا الى البلد بسلام وامان .

بعد ذلك بأيام عاد الامام الى الرياض مستصحبا ابن طلال وجميع اسرة آل الرشيد والبعض من الحاشية والشخصيات .

أما العوني فلم يكن اسمه داخلا ضمن النفر الذين بلغوا بالسفر الى الرياض - بل تركه الامام . ولكن العوني لم يطمئن لهذا الاهمال ، لانه يعرف الامام عبدالعزيز انه الرجل الحازم . كيف وقد شملت قائمة المسافرين او المأسورين بعضا من الناس الذين لا قيمة لهم ولا اهمية بجانب قيمة العوني واهميته من شتى النواحي السياسية والاجتماعية .

يؤكد لي صديق العوني الحميم الشيخ عبدالعزيز بن زيد بأن العوني جاء اليه

لرأيه قائلا ان ابن سعود تركه ، ولم يشر اليه بادنى اشارة يفهم منها رضاه ولا غضبا ، وانه لا يعلم هل من الاحسن له ان يظل بحائل او انه يذهب الى ابن سعود بالرياض.

يقول الشيخ ابن زيد اني قلت له " طالما ان ابن سعود تركك وشأنك ، فعليك الا تتعرض به وان تركن الى الراحة والسكون ما استطعت ".

فقال العوني اعتقد ان ابن سعود من المستحيل ان ينساني ولن يتركني مطلق الحرية فيما لو شئت بأن اسافر الى اية جهة اريد ولذلك ارى انه من الاجمل ان اذهب والتحق بموكب ابن سعود طالما انه قريب قبل ان يبعد عن البلاد .

هذا وقد نفذ العوني هذه الفكرة ، حيث ركب فرسه وسار متتبعا اثر موكب الفاتح فادركه في موقع يسمى " باطب " قريبا من بلدة حائل . وحال ماوصل العوني المعسكر بلغ الخبر وصوله الى الامام عبدالعزيز بن سعود ، حالا امر باكرامه وان تعد له راحلة نجيبه ، كما امر بأن يكون ضمن الحاشية الخاصة لابنه الاكبر الامير سعود ان الملك السابق .

ظل العوني مكرما محترما بضيافة الفاتح مدة تلك السفرة حتى وصل الرياض وفي الرياض كان موضع الحفاوة والاكرام مدة لا استطيع حصرها ولكنها لا تتجاوز السنة وأخيرا اتهم بما اتهم به من نشاط سياسي ضد سياسة الحكم الراهن .

وحتى الان لم ترد نا الرواية الموثوق بها التي نبني عليها او نستنتج منها معرفة هذه التهمة التي اخذ بها العوني .

ولو ان ذلك العهد فيه للوشاية رواج او فيه للواشين معاشات وتقدير واجلال لكان الامر كذلك لقلنا ربما ذهب العوني ضحية لوشاية واس لا يخاف الله ولا ضمير له ، ولكن ذلك العهد كانت بضاعة اهله الرجولة والمروءة والشهامة والدين والاخلاق والفضيلة

والشجاعة ، التي افود واكسب ربحا من بضاعة التزلف والنفاق والوشاية ولذلك نقول : ربما أخذ العوني بهينه لم نطلع طيها وطى اى شكل فان الذى يعرف العوني كعرفة عبد العزيز بن سعود لشخصيته ولطموحه وافكاره وتأثيره طى السامعين فانه لن يطمئن الى العوني اطمئنانا مطلقا .

الاسباب الظاهرة التي سجن من اجلها العوني

لكل امر ظاهر واخفي من الامور السياسية التي تسير طيها ادارة الحكم في كل زمان ومكان . وقد زن الامام عبدالعزيز العوني بالسجن بسبب لم نعرف شيئا عن اشراره الخفية وتفاصيله المتواريه - اما الاسباب الظاهرة التي سجن العوني من أجلها فهي كما رويتها عن الرجال الثقاة الذين كانوا شهود عيان ومن بين اولئك الرجال الذين نقلت عنهم السبب الظاهر الذى سجن من اجله العوني - هو الشيخ سلطان بن طلال الجبر الذى انقل عنه الصورة التي سجن من اجلها العوني انقلها طى الوجه الاتي :

يقول : سلطان - كنا جلوسا في منزل سعود الجبر - وبهم ذلك المجلس عددا من آل جبر وبعض آل رشيد الاجلين . وصاحب الترجمة العوني الذى كان يتحدث الينا باحاديث طريفة من اساطير الماضي ومن الادب والقصائد ((النبطية)) اى الشعبية التي كان العوني ملما به الماما لايضارعه أحد بعصره وكنا في غمرة من الحبور - وهناك سمعنا من بطرق الباب فظننا انه عبدالرحمن الحوطي الرجل الذى نخشى ان يكدر طينا انسجامنا

فذهبنا واقفلنا الباب - بالمجلاز الفوتي - وهي علامة تشير ان البيت لم يكن فيه أهلـــه أو ان الذين في البيت لا يريدون أن يأتي اليهم أحد - فما كان من الذى يطرق البـــاب الا أن طرقه بعنف يشير الانتباه فذهب شخص منا لينظر من خلال ثقوب الباب من هذا الطارق فعاد الينا الذاهب ليقول انه الامام عبد العزيز وفي هذه الاثناء تضاعف طرق الباب بعنـــف اكثر من ذى قبل . وسمعنا صوت المعشوق احد رجال الامام عبد العزيز يصرخ بصوت عـــال افتحوا الباب فذهبنا وكشكشنا وفتحنا الباب - بدون ان نفاجأ بمجيء عبد العزيز لانـــه كان يمثل البساطة بكل معانيها أى انه كثيرا ما يأتي الينا زائرا بصورة كهذه الصورة . ولكن الاسلوب الذى دخل فيه علينا هذه المرة يختلف عن اساليبه التي يزورنا بها عادة - وذلـك انه ما ان توسط مجلسنا ورأى العوني بيننا حتى اشاح بوجهه وعاد يكشكش وأقفل راجعـــا وبوادر السخط واضحة على محياه خارجا من عندنا بدون ان يجلس لحظة واحدة - فذهبت معه واذا به متوشحا سيفه ووجهه يتطاير منه السخط ويتمتم بكلمات توحي ان الغضب بالـــغ منه اوجه ، وبعد لحظة قليلة - عاد الينا - المعشوق واخذ بيد العوني - واودعه "بالمصحك" اى سجن الرياض .

هذا هو السبب الظاهر الذى سجن من اجله العوني ، اما السبب الخفي فانـــه مات بموت الملك عبد العزيز اللهم الا ان هناك عبارات يتناقلها المواطنون عن العوني وهـــي عبارات مليئة بالتحريض يقال ان العوني يردد ها عندما كان بالرياض وهي الاتية :

يقول العوني ان اصحاب النبي ص - العشرة الكرام الذين بشروا بالجنة سألوا النبي قائلين " هل الجنة مجرد نعيم وخلود وغذاء وجماع لا حركة فيها ولا تفاعل . فان كانت هذه الجنـة فهذا يعني الموت الابدى" .

ومن هنا يتحتم علينا أن نقول ، اذا كان العوني في حديثه الذى يذمه من العشرة الكرام[1] يريد أن يهين المواطنين الذين وفر لهم الامام جميع ما يحرص المواطن في ذلك الوقت على توفيره وهو الغذاء والكساء والسكن والزواج تلك الاشياء التي تعتبر في ذلك الوقت منتهى وسائل الترفيه ـ فماذا يكون تأثير كلامه هذا اذا انتشر وشاع بين المواطنين المحرومين من هذه الرفاهية .

والشيء الذى لا شك عندى به أن هذه الرواية وان كنت لم انقلها عن شخص يؤكد انه سمعها من العوني ـ ولكني بحكم دراستي لشخصية هذا الرجل الذى لا يمكن ان يعيش بدون الكتابة واثارة للمغلوب في وجه غالبه . وتحريض المقهور على قاهره ـ اكاد اشعر ثقة مطلقة ان هذه العبارات صادرة من خيال العوني ومن طراز اسلوبه الذى عرف عنه وعبارة كهذه كافية ان تجعل الامام عبد العزيز الذى يعرف العوني معرفة جيدة ان يتخذ معه الاجراء الذى لقي به الشاعر المعروف عمر الطموح مصيره المحتوم .

من معتقل الرياض الى دهاليز ابراهيم في الاحساء

لما كنت شديد الحرص على تتبع اخبار هذا الشاعر الداهيه فقد نقل لي الرواة ان الاخ صلف «الفتي» ، هو الرجل الذى يتولى نقل العوني وحراسته من سجن الرياض الى السجن المعتقل سجن الاحساء ـ الذى يقال له دهاليز ابراهيم ـ وحيث أن صلفا

---

(١) هذا الحديث لم اقف على صحته .

رجلا شجاعا وشهما ومن عادة الشجاع ان يكون صادقا في كل رواياته . لذلك فقد شدت الرحال اليه ، وزرته في منزله في حين المعاهده في مكة — وكانت صدفة موفقة حيث كانت تلك الزيارة فيها كما يقال حجة وحاجه وذلك انني وجدته مريضا فكانت زيارتي له فيهـــا معنى من معاني التشافي له . وهي في الوقت ذاته وصلت بها الى هدفي المنشود . وبعد تبادل التحية والسؤال عن صحته وشرب فنجان القهوة والشاى بعد ذلك سألته عما جئت من اجله . فذهب يقص لي رحلته هو والعوني من الرياض الى الاحساء برويها على الوجـــه الاتي : يقول خلف — كنت قادما من الاحساء للرياض بمهمة كلفني بها الامير عبدالله بـــن جلوى حاكم الاحساء — وعندما انهيت مهمتي وشئت ان اعود الى الاحساء — جاءني رســـول من قبل الامام عبدالعزيز يخبرني بأن هناك شخصا يراد مني أن اذهب به الى الاحساء — وقد عين الرسول الزمان والمكان اللذين يتم فيهما سفري مع الشخص المذكور — وفي الوقـــت المحدد جئت للمكان واذا بناقة موضوع فوقها (مسامة)[1] ولم يكن فوق تلك المسامة أي وقـــاء وبعد لحظة جاءني برجل شاحب الوجه هزيل الجسم كث الشوارب — كأنه خارج من القبـــور وقيل لي هذا العوني سلمه للامير عبدالله بن جلوى — فاركبته الناقة وعندما خرجنا من اسوار الرياض قال العوني ما اسمك ؟ فقلت اسمي خلف — فقال لعل اسمك خلف فقلت لم يكن لـــي تصرف باختيار اسمي — ولقد سماني والدي خلف — فقال : بل انت خلف . ولن ادعـــوك الا خلف وبعض خلف في حديثه قائلا ان قلبي رق لهذا الرجل لذلك انخت راحلتي وراحلته وجعلته يركب راحلتي الاصيل السهلة في مشاها . والتي فيها الشداد وجمع وسائلي الوقاية من (قطن وجاعد) وركبت فوق ناقته — وهنا اطمئن العوني الي وقال الم أقل انك خلف —

---

(١) المسامة أي الغبيط .

ثم سألني ماذا أوصيت أن اذهب به اليه ؟ فقلت سوف اذهب بك الى امير الاحساء عبدالله ابن جلوى وعبدالله سوف يسفرك الى البحرين — وهناك تهلل وجهه الشاحب مسرورا وقال لقد انفرجت مادام ان امرك موكول الى عبدالله بن جلوى — ثم سألني متى نصل الى الاحساء فقلت له رئاسة الطريق بيدك فان شئت استعجلنا وان شئت تأخرنا فالمكان الذى تريدنا أن نظل به او تريدنا أن نواصل المشي منه فانني تحت امرك — فقال لقد قلت انك خلف لا صلف — وهنا بدأ يشعر بالاطمئنان وقال يا خلف انني لم استطعم اللحم منذ أن ادخلت السجن — فهل لك ان تطعمني لحما فقلت لك علي أن اقدم لك لحما حتى تشبع منه — وقصد التقينا بهادية واشتريت منهم خروفا وذبحته بيدى كما اني تولیت طبخه حتى نضج وقدمته له وهناك راح يفترس من لحم الخروف وشحمه بنهم — حتى صدر منه شبعانا وعندها ذهب ينشدني ابياتا لم احفظ منها بيتا واحدا ثم قال كل ما اسأل الله به أن يمكنني من مكافأتك يا خلف على فعلك الجميل معي — وقد قضينا في سهيلنا هذا اياما أكثر مما ينبغي ان نقطع الطريق به — الامر الذى جعل الامير عبدالله بن جلوى يبعث رجالا برئاسة سعيد الفرصل ليختبروا اخباري — فالتقيت بهم بالطريق القريب من الاحساء — ثم بعد ذلك وصلت الاحساء وذهبت الى الامير عبدالله بن جلوى — وحالما رأني قال : اين رفيقك ؟ فقلت قريبا هناك فقال ماذا قال لك فذهبت احدثه بما سألني عنه العوني وبالجواب الذى قلت له بأنه سوف يبعثه عبدالله بن جلوى الى البحرين فقال ماذا قال لك العوني عندما اخبرته بذلك ؟ فقلت له انه قال لي بعدما تهلل وجهه مسرورا « لقد انفرجت مادام ان امرى موكول به عبدالله بن جلوى ».

ويحدثني خلف قائلا ان عبدالله بن جلوى عندما اسمعته كلمة العوني هذه افرورقت هناك — (١) وعندما وصل الاحساء نفذ الامر ابن جلوى امر الامام الذى يقضي بان يودع العوني

(١) المعروف ان عبدالله بن جلوى صديق حميم للعوني كما انه ولي مع اصدقائه بصورة عامة ومع العوني بنوع خاص كما سيأتي توكيد لذلك .

في السجن .

عبد الله بن جلوى بين وفائه لصديقه وبين تنفيذه للأوامر

وقد سألت الاخ صلف عما اذا كان الامير عبد الله بن جلوى قابل العوني أم لم يقابله ؟ فاجابني صلف بأنه لم يقابله الا انه لم يتخل عن عطفه عليه . وعنايته به وأنه يبعث له يوميا طعاما من نفس طعامه هو بنفسه ، ويؤكد ما قاله الاخ صلف بخصوص عطف الامير ابن جلوى على العوني يؤكد ذلك الرواية التي نقلتها عن أمير بريده سابقا الاخ سعود بن هذلول الذي يقول انه زار الامير عبد الله بن لجلوى في الاحساء . وانه عندما يجلس معه على مائدة الطعام يلاحظ ان الامير عبد الله بن جلوى يمد له أحد رجاله قصعه فارغة فيذهب ويأخذ بيده من نفس مائدته طعاما ولحما ويظل يضع في هذه القصعه حتى تمتلئ عنه ويمضي الاخ ابن هذلول بحديثه قائلا انني عندما سألت لمن تبعث هذه القصعه — جاءني الجواب انها تبعث للعوني — ويؤكد ابن هذلول ان ابن جلوى علاوة على ذلك كان يبعث للعوني يوميا « دله » مترعة بالقهوة والهيل ويواصل الراوي حديثه . مؤكدا انه رغب ان يرى العوني بنفسه — فانتهز الفرصة التي يبعث فيها الامير ابن جلوى القهوة — مع حاملها سليمان بن سهمان . وذهب معه ليرى العوني الذي ملأ نجدا اسمه واشعاره واخباره ، وهناك رأى رجلا وخطه الشيب نازل الجسم — وعندما صب له ساقي القهوة ظل يشرب الفنجان تلو الفنجان بسرعة كأن القهوة سوف تذهب من بين يديه — وعندما استمر يشربه للقهوة دون أن يرتوي صاح به السجان سليمان الحربي قائلا : ها يكفي يا عوني من شرب القهوة ، فما كان من العوني الا أن اومى بفنجان القهوة ورمى به بحركة تعبر عن استهانه وضجره بالاسلوب العنيف الذي

اتخذه معه السجان الوقح (١).

والشيء الذي لا شك فيه ان الامير عبدالله بن جلوى كان وفيا مع صديقه العوني – ولكنه اصطدم مع أمره الاعلى الامام عبدالعزيز الذي عرف ان الامير بن لجلوى من اعنف الحكام واشدهم بطشا في تنفيذ الاوامر بل هو الصارم الذي لا يضارعه احد في هرقته بقوة بالغة وشدته وتجرده من اية عاطفة عندما يتلقى الاوامر من الامام – ومع ذلك ذرفت عيناه دمعا وهو الجبار الذي يحمل قلبا اصلب من الحديد ودموعه ذرفت عيناه وفاء منه لصديقه ورحمة به ومما لا ريب فيه انه ظل يعاني وخز ضميره وقلقا مزعجا وصراعا عنيفا في كيانه بين وفائه لصديقه – وبين تنفيذه لا لاوامر قائده الاعلى فحسب – بل تنفيذه لاوامر ابن عمه عبدالعزيز الذي يفداه عبدالله بن جلوى بحمايته الغالية.

العوني يستنجد بعبدالله بن جلوى وبنيه

شعر العوني انه لم يبق له أمل بأي مخلوق الا بصديقه الامير الوفي عبدالله بن جلوى وبنيه فهد وسعود فذهب اولا ينشد قصيدة لابيه بالامير الاب عبدالله – كما انشد بعدها قصيدة مماثلة بالاميرين فهد وسعود ولدا عبدالله.

وكل واحدة من هاتين القصيدتين نجد الشاعر يحاول ان يستميل شعور رحمة وشفقة واخوة الامير عبدالله بن جلوى لعله يتوسط له بجاهه عند الامام عبدالعزيز وخاصة في القصيدة اللامية البالغة اثنين وثلاثين بيتا ولنأتي بما هو شاهد ومناسب للبحث في بعض ابيات من قصيدته

(١) اربعة لا اعتقد أن لو لاحد منهم ضميرا وهم السجان والجلاد والجاسوس على بني قومه والكاتب المنافق.

والكاتب

اللامية التي جاء بمطلعها بشكل يصور امره بأنه لم يجد من يبعث وصيته للامير ابن جلوى الا بواسطة الطير المحلق بالجو ، فكأنه يخاطب الطير قائلا له ناشدتك الله ايها الطير ان تذكر ما اقاسيه من شقاء وبؤس اذكر ذلك ايها الطير لمأوى المستغيث والمستجير يقصد الامير عبد الله بن جلوى - واليك مطلع القصيدة وبعضا منها :

١- يا طير بالله شفني واذكر احوالي واذهب وخبر بحالي من بن الجالي

وذهب يستدرج الامير الى ان قال :

٢- يابو فهد يا منايى وما ذخيرتي يا لولب الرأى يا فكال الاشكال

٣- اشكي لك الحال وابدى لك مصيبتي وانخاك عشر وخمس صوتهن طالي

٤- وانخاك وانا بحبس مك واظلموا بابه وخلون به يا حيد الاثقال

٥- واخبرك بالله جرى لي من مغربي عظمت ذنوبي ولا ادرى وش فيها لي

البيوت الثلاثة كلها واضحات وحتى الرابع والخامس لا يحتاجان كثيرا من الشرح وكل ما فيهما هو انه يستنجد بالامير عبد الله ويقول في المصراع الاخير من البيت الخامس بانه زج بالسجن وعظمت عند الامام عبد العزيز بدون ان يعلم سببا لهذا السجن الذى زج به ثم يأتي بالبيوت الاتيه ويؤكد بأن كل اصدقائه انكروه ولم يبق لديه ملاذ يستند اليه بعد الله الا الامير عبد الله الجلوى كما جاء بقوله :

٦- ترى جميع المعارف لي تنكروا يوم اوجسوا فيظ فالق رأى الابطال

٧- وذكرت مالي سوى مولاى مقصدى ثم انت يوم انها جدن الامال

٨- اشكي لك الحبس والدياب والقصا واشكي لك الضيم من شامت وعذال

٩- يابو فهد قل لهو تركي وسائله بالجاه والجود لا يسمعني اقوال

١٠- الكان انا اخطيت فهو من يدمح مي الخطا طويق ما ثقله حاف ونعال

١١- هذا وقل الكلام وذل من شكـــــي والقيل ما إلغاه عند اهل الثنا غال

الشـرح :

٦ - كل اصدقائي ومن اعرف انكروني . لماذا ؟ لانهم عرفوا ان الحاكم غضبان طي . يقول الشاعر العربي .

الناس اعوان لمن والته دولتـــــه وهم عليه اذا عادت ـــــه اعوان

٧ - ولقد ادركت لا ملجأ لي بعد الله . الا انت الذى انطت آمالي بك .

٨ - اشكو اليك هول " الدباب " اى السجن . كما اشكو لك شماتة الاعداء والقهر .

٩ - يابو فهد يقصد عبد الله بن جلوى المكنى بابي فهد . وابو تركي هو الملك عبد العزيز فيقول : ابذل لي جاهك يا ابا فهد عند ابي تركي بأن لا يأخذني باقوال الوشاة .

١٠ - هب اني اسأت وارتكبت جريمة فهل جريمتي تؤثر على كيان وشخصية الملك عبد العزيز الذى اشبه ما يكون "بطويق" و " طويق " هذا جبل في جنوبي نجد فيقول الشاعر هل هذا الجبل يؤثر على عظمته من كان يسير حافيا . منتعلا فسيان عند هذا الجبل الحافـــي والمنتعل وانت يا عبد العزيز اشبه ما تكون بحطمك وتسامحك بهذا الجبل .

بالله . كم كنت اتمنى ان الملك عبد العزيز الذى عرفناه وعرفه التاريخ بشهامته وسرعـــة نجدته ادرك انذاك كما كان يدرك دائما بأن التاريخ الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها سيذكر هذه القصيدة وخاصة معنى هذا البيت الذى خليق به ان ينطبق على شخصية الملـــك عبد العزيز انطباقا كاملا بعفوه وكرم خلقه .

لا شك بأن المغفور له الملك عبد العزيز جدير به ان يعفو عن العوني كما عفا وتسامـــح عن الذين اجرموا جرما اشد وقعا من جرم العوني ، ذلك الجرم الذى فيما يبدو لنا ان المرحوم عبد العزيز لم يكن واثقا وثوقا تاما بصحته ، ومن اعظم الادلة على ذلك هو اننا نجد الملـــك

عبدالعزيز في عام ١٣٥٨ هـ دفع دية لكل من طاقه كعقوبة العوني بسريبة لم يكن مطمئنـــا اطمئنانا راسخا ،ان عقابه هذا كان صوابا لا شطط .

وكان المرحوم العوني من جملة النفر الذين دفعت ديتهم لوارثيهم وقد اكد لي مـــن اثق بروايته وهو الشيخ محمد الحمد الشبيلي يقول : انه عند ماكان قنصلا للملكة السعودية بالبصرة في ذلك الوقت قد سلم لابنه العوني الساكنة بالزبير حصتها من ورث ابيها. ورث ابيها

وبعد فقد ختم العوني قصيدته بالبيت الاخير قائلا ما معناه : اني ابديت لك ضعفي وذلتي وشكواى لامرء ويؤكد بأن المرء بعد ما يشكو امره ويبدى ضعفه معناه انه لم يترك لنفسه رصيدا من الانفه والكبرياء ، والمعروف ان العوني رجل شديد البأس ولا يعترف بالذل ولا تلين له قناة ولكن على ما يبدو ان الرجل لم يقل هذا البيت الا وهو باسوأحالة من اليؤس والشـــقاء ويحدثني من رآه وهو بالسجن فيقول : انه كان بحالة سيئة جدا وقد نحلت عظامه وغارد مـــه وذبل لحمه وتجعد وجهه وكف بصره ولهذا اصبح معذورا بكل ما يفعله وما يبديه من المعذرة التي يرجو ان ينجو بسببها من هذا السجن الرهيب .

هذا واننا لنجد الشاعر في المصراع التالي من البيت الاخير يقول " والقيل ما لقـــاه عند اهل الثناء قال " . (القيل) يعني القصيد او الشعر رأى ان الشعر ثمين عند مـــن يتوشح بمكارم الاخلاق وتتوق نفسه الى المجد وترنوا الى الثناء العاطر كالملك عبدالعزيز فكأنه يقول عليكم ان تقدروا شعري ويكون شعري هذا خير شافع لي ،واخيرا شفع هذه القصيدة بقصيدة اخرى صحية نحو سبع وثلاثين بيتا يستنجد بها بني عبدالله بن جلوى فهد وسعود ويشكـــو اليهما امره راجيا ان يشفعا له عند الملك عبدالعزيز والذى يبدو ان قريحه الشاعر عند العوني بعد أن لقي مالقيه بغياهب السجن تهدمت او وهنت او ربما ضعف امله بنجدة من يستنجـــد

بهم لذلك جاء بقصيدته التي فيها من المعاني الشيء الذي سبق أن سمعنا مثلها يمتدح به هجين السعدون وطن ان شكل فاني اعذر الرجل بل انني اعجب بقوة عزيمته وشدة بأسه الذي يستطيع أن يكون لديه من التفكير الهادئ والشعور الفائق والقريحة الدافقة ما يجعله ينظم بيتا من الشعر وهو سجين في موضع لا يرى به الشمس كما وصفه بقوله في وسط دياب وحيد لحالي اظلم ولا ادري وين نهاره وليله .

وفي مصراعه في القصيدة اللامية يقول عن نفسه " في وسط حبس مخيس مظلم الجسال " اقول لنا ان نعذر الرجل بل نجله ونقدره والا نغالط الحقيقة ونتجاهل بأن الانسان ذو طاقة محدودة وانه مهما يكن جلدا ومهما تكن نفسه كبيرة عظيمة فان هذه النفس لا يمكن لها ان تستمر بعظمتها اذا وهنت عظام صاحبها وذبلت عروقه وتقلص دمه وتبدل ماء عينيه من سواد الى بياض.

وهذا هو العوني معذور[1] بشكواه ومعذور فيما اذاعه من معاني والفاظ الابيات بقصيدته التي نورد منها بقدر ما نستطيع من الاختصار وهو بقصيدته هذه كأنه ارسل رسلا اصحاب نجائب لفهد وسعود آل جلوى وهذا مطلع القصيدة :

باركب ارجم روسهن بالشكايم	مقدار قيمة ساعة يا هل الهمم

ينادي الشاعر اصحاب هذه النجائب طالبا منهم ان يحفوا اليه مقدار ساعة يمنحا بنظم قصيدته التي يرسلها لفهد وسعود .

وبعد هذا البيت مقدار خمسة عشر بيتا منها ما هو وصف لهذه النجائب ومنها ما هو ثناء ومدح لفهد اولا ثم لسعود حتى وصل الى قوله :

قولوا لحاضين الثناء بالعلائم	نهار صفر الخيل تقلب مجاهيم
قولوا لهم خدامكم بالهضايم	بنحا فهد وسعود ما به مثالهم
قل يا فهد يا سورهن بالهدايم	ان وصلت الذله حلوق البلاهم

(١) جئت بهذا البحث كجواب لاناس سمعتهم يلومون العوني على ما ابداه من الشكوى

انخاك بالمت الثنا والغنائم　　وانا بدباب بمصمك ابراهيم

رجلمني الظلف فوقهن الجزائم　　بين الخشب ومدخلات ملهاهيم

الشرح:

٢ — يقول يا ايها الركب قولوا للذين فازوا بالمجد والثناء واشتروا هذه المزايا بقيمة ثمنه ويوم من ايام الحروب التي يحلو بها الوطيس بشكل تكون به الخيل (الصفر) اى الخيل الناصعة البياض تكون سودا من العرق ومن دخان البنادق وشدة هول المعركة.

هذا المصراع سبق ان قاله العوني لفظا ومعنى بمعجمي السعدون.

٣ — يا ايها الركب بلغوا فهدا واسعود بانني خادمهما المخلص استنجد بكما ولا اظن ان في ذلك علي به عيبا (مابه مثالبم) اى لا عار علي.

٤ — قولوا لفهد الشجاع حامي مؤخرة الجيوش اذا انهزمت في المعارك الشديدة التي تبلغ بها روح الجبان الحلقوم من الخوف.

٥ — استنجد بك ايها الليث لانني سجين (بمصمك ابراهيم) هذا اسم السجن الذى وضع به الشاعر.

٦ — بهذا البيت يصف الشاعر وضعه الراهن بصورة تثير النخوة والنجدة لمن يستنجد به كما انها تثير الرحمة والشفقة عليه فيقول انه يوشح ساقيه بقطع من الخرق لئلا يؤثر على لحمه — وعظامه الخشب والحديد الذى يطبق به على ساقية " مباهيم" اى مقفلة.

٧ — انخاك يا شهل الثنا والقصايم　　بالجاه والمعروف تفزع لمن ضمم

٨ — ترى الامور المعضلات العظايم　　نطاحته شرواك مابه تمالمم

٩ — ولا تظهر الشكوى وتبدى الظلايم　　الا على اللي ينقضون المحاكمم

والتذلل نظرا لما يعرفونه من ثبات وجلد ولكنهم ينسون ما وصل اليه الرجل من حالة يعذر بها

الشرح:

٧ - في هذا المصراع اعاد الشاعر نفس المعنى واللفظ الذى في المصراع الاول من البيت الخامس.

٨ - يقول ان الامور العظيمة لا يوتى لها الا الرجل العظيم الذى من وزنك .يقصد فهد ابن جلوى.

٩ - ان المرء لا يشكو امره ولا يهدى مظلمته الا للرجال الذين يقومون بالواجبات وينقضون الامور العظيمة الجليلة وهكذا ظل العوني ينشد قصائده التي كلها استرحام واستعطاف واستنجا لعبد الله بن جلوى ولبنيه فهد وسعود . والمفهوم ان هاتين القصيدتين افادتا الى حد ما . ذلك انه خفف عنه كثيرا من ثقل السجن فبعد ما كان مغلقا عليه في حجرة لوحده ، بعد ذلك فسح له المجال وترك يتجول في وسط السجن.

من المخلوق الفاني الى الخالق الباقي

ولكن الشاعر كان يحاول من وراء قصيدتيه بأن يحصل له الخروج والحرية الكاملة. واخيرا حينما رأى ان قصائده بالبشر الفاني ومدائحه بالمخلوق العاجز واستغاثته بالانسان الذى لا يملك من امر الله نفعا ولا ضرا لا تفيد ولا تجدى. بعد ذلك زهد الشاعر بالمخلوق ورغب بما عند الخالق وحطم آماله من جميع بنيهم الانسان. وبنى اماله على الحي الدائم الذى يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور. وبعدما كان يحفظ عشرات ومئات القصائد الشعبية ، اعرض عن ذلك وراح يحفظ كلام الله - القران الكريم ، ثلاثين جزءا حفظها العوني كلها عن ظهر قلب.

وبعد ما كان يؤم اندية الامراء والزعماء الذين دأبهم وديدنهم السيطرة على البشر سواء بحق او بغير حق . بعد ذلك راح يؤم المساجين الهائمين(١) . وبعد ما كان لا يهتم بشيء الا بمقدار ما يناله من زخارف ومظاهر وبهرجة هذه الدنيا الفانية ، بعد ذلك ذهب يسأل الله ويبتهل اليه بأن يقبل توبته عن خطيئاته .

وبعد ما كان يمتدح الحكام الذين هم وحكمهم عرضة للفناء - بعد ذلك راح يمتدح ملك الملوك الذي بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير . والذي تخشى لسلطته الجبابرة الفاشمين . والذي قال في محكم كتابه العزيز : كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام .

وهكذا ابن العوني في نهاية امره ان هذه الدنيا ومن عليها لا تستحق من يحيا بها . وان هؤلاء المخلوقين جميعا من حكام ومحكومين ، كل هؤلاء واولئك لا يستحقون من يتذلل لهم بهذه الحياة الفانية . ولا يستحقون من يطلب منهم العفو والمغفرة والتوبة ، لانهم لا يملكون من هذه الامور الا ما هو شيء رمزي ولا اهمية له . ولذلك هزقت نفسه اخيرا عن جميع البشر وشخص بطرفه الى الكريم الذي لا يخيب من رجاه . وتاب وابتهل الى الله جلت قدرته بهذه القصيدة المسماة بالتوبة . وهي كما يدل عليها اسمها توبة الى الله بالمعنى الصحيح فلم يذكر بها اي معنى من معاني الدنيا . ولم يأت ايضا على اسم اي انسان من البشر ، لا يمدح ولا يذم كما كان يفعل من قبل . وانما كلها رجوع الى الله وابتهال اليه واعتراف للباري بالقدرة

---

(١) هناك من يقول ان شخصية العوني طبقت على ان تؤم لا تؤم ، فهو عندما كان طامحا الى مجد الدنيا كان هو الامام لاندية اهلها .
وعندما تاقت نفسه الى لقاء ربها بالاخرة كان ايضا اماما للهائمين المنكوبين وعلى هذه الحالة اصبح اماما اينما حل .

الحارثة بوحدانيته تعالى بالالوهية والربوبية والاسماء والصفات. كما انه رجاء والمغفرة عما ارتكبه من الخطيئات.

والقصيدة تزيد على خمسين بيتا واليك مطلعها وما اخترناه منها :

يا الله يا ولي على كل وال	١	يا خير من يدعى لكشف الجليلة
يا مالك الدنيا ومعطي الرسائل	٢	والكون والدنيا وما به فهي لك
ماله : ربك جل فوق متعالي	٣	وعلمه احاط بدقها والجليلة
يا واحد فوق السموات عالي	٤	من سطوته كل الخلائق ذليلة

الشرح :

بالبيت الاول والثاني والثالث والرابع ، يسأل الشاعر الله سبحانه ويصفه بالقدرة والعظمة. ويقول : يا الله انت الذي تدعى حقا بحالات كهذه الحالة لانك القاهر الذي لا شريك له. وانت الذي تعلم الدقيقة والجليلة.

يا فارج الشدة بضيق المجالي		افرج لعبدك يا منجي خليلة

يقول : انت الذي تفرج الشدائد فارجوك ان تفرج لي كما فرجتها لعبدك وخليلك ونبيك ، يقصد النبي ابراهيم خليل الله.

وانظر بعينيك يا بالا فراج حالي	٦	فرد غريب والمصاعب قليلة

يقول : ارجوك ان تنظرني بعنايتك لانك انت صاحب الفرج العاجل ولاني بحاجة لعنايتك لاني غريب ووحيد وليس لي اية قوة استنجد بها سواك يا الله.

يا راحم شيبتي وانخذالي	٧	يا جابر اجبر مثرتي والفشلة

يسأل الله ان يرحمه بعد مشيبه وان يقيل عثراته وتهته.

لا يقبل

لا اخوان لا خلان لا ابنـاء خوال ٨ ولا من صديق بالـوزا نشتكي لـه

يبين الشاعر انه مقطوع من جميع القرابات. فلا قرابة له من ناحية العصبة ولا من ناحية الرحـم كما انه لا يعرف له صديقا وفيا يشكو اليه امره بحالة كحالته هذه.

تقطعت وذم الدلا والمـدالي ٩ من جملة الخـلان والمستخيلـه

قنيت من المخلوق محمد بدالي ١٠ الا انت باللي ما تخلـي عيلـه

يقول في البيت التاسع والعاشر ان عراة التي بينه وبين البشر كلها انفصمت ، وآماله كلها تحطمت من بني الانسان كافة ، فلم يبق له ان امل الا بالله وحده.

عدوان كل الخلق شرق وشمـال ١١ ولا بقي غيرك ذرى نلتجي لـه

شانون مذلول وعبد وخـال ١٢ مالي من الغزعات موي شليلـه

يقول : كل هؤلاء البشر اصبحوا لي اعداء ولم يبق لي ان صديق لا في مشرق الارض ولا مغربها ويقول : ان السبب عن ذلك انهم رأوني مسجونا ومنبوذا ووحيدا لا قوة لي ولا ناصر.

وانا بعون الله متان حبالـي ١٣ متجود بعـراة وامشي بحيلـه

يقول : ولكنه لا يهمني هؤلاء البشر الذين جنوني لاني استعنت بالله واتكلت عليه فاصبحت حبالي متصلة بالباري ، وعليه الامل به ووثيق العرى بجلالته ولا اسير الا بعونه وقدرته ومشيئته :

انا دخيلك يا عزيـز الجـلال ١٤ حشا كرم جودك يضيـع دخيلـه

من لاذ به ما صار بالضيف تالـي ١٥ يصير الاول لو عظامـه نحيلـه

يقول : انا مستجير بك باذا الجلال والاكرام. وحاشاك يا صاحب الفضل والكرم والمنه والجـود ان تهمل من يستجير بك. ويقول في البيت الخامس عشر ان العبد اذا لاذ بحماك فانه لـن يرى ضيقا ابدا بل سيكون هو الاول ولو انه ضعيف البنية منهوك القوى.

يا رب مالي غير جودك والذي ١٦ فان كان جلمتن فلا لي فضله

لو كان ذنبي راجح بالجبال ١٧ عفوك عظيم ليس ذنبي عديله

يقول : ارجوك يا الله الا تواخذني بما مضى مني من افعال قبيحه فانت المعروف بستر العورات فارجوك ان تستر عورتي وتسبل علي رداء عفوك وجميلك الفسيح .

وفي البيت السابع عشر يقول : ٥٣ يا مولاى ان ذنوبي عظيمة وراجحة بالجبال الراسيات. ولكن عفوك وكرمك وزنا من سيئاتي وافسح مساحة من ذنوبي .

مولاى لا ملجأ ولا ملتجأ لي ١٨ الا انت يالذي ما يذيل نزيله

انني لست اعلم ملجأ الوذ به ،ولا من التجي اليه سوى انت يا الله الذى لا قوة في الدنيا تستطيع ان تنال من يستجير بك بسوء .

افرح لمن بالحبس دونه رجال ١٩ والباب واقفال وحصن طويله

في وسط "دباب" وحيد لحالي ٢٠ اظلم ولا ادرى وشنهاره وليله

بهذين البيتين يوضح الشاعر لنا وضعه الراهن حينما كان سجينا . اما البيت التاسع عشر فهو واضح اللفظ والمعنى فهو يسأل الله أن يفرج له من هذا "الحبس" اى السجن الذى لا يستطيع الفرار منه لما حوله من قوة الجنود الحارسين له . والابواب المقفلة عليه والجدران المحصنه الطويلة . اما ذكره في البيت الذى يلي هذا من قوله : "في وسط دباب وحيد لحالي" فالدباب "لغة تطلق في جنوب نجد على السجن فيقال "دباب" كما يقال للسجن ايضا "مصمك" السجن المظلم الذى لا يفرق به الليل من النهار من شدة ظلامه. كما يوضح بأنه لوحده ويفرده بهذا السجن لا جليس له ولا انيس.

ثم يأتي بهذا ويقول :

متروك مالي من يسرد المقال ٢١ لاحد بيي قولي ولا حد بشيله

يصف نفسه انه مهجور حتى من المحادثة . فهو مقاطع مقاطعة كلية فلا يجد احدا يجيبه فيما اذا شاء ان يتكلم كما انه لا يجد من ينقل حديثه ولا شكواه .

ولي خبر شيء عليه اتكال ٢٢ الا انت يا منجي دريك الدبيله

يقول : انه لم يعلم ولن يعلم ملاذا وملتجأ يتحيز اليه ولا يعتمد ولا يتكل عليه الا الله جل شأنه وتعالت اسماؤه وقوله : « الا انت يا منجي دريك الدبيله » الدبيله — الجيوش المنهزمة التي قهرها العدو " والدريك " المرء المقاتل الذي انهزم عنه رفاقه الجنود واوشك ان يستولي عليه العدو فاصبح باسر الحاجة والضرورة لعناية الله ورعايته .

ادعوك باسماك العظام الجلال ٢٣ وبحق ما خصيت لك من فضيلة

وبحق قدرة عظمتك والجلال ٢٤ وبحق نورك والخصال الجميلة

وبحق ما نزلته اول وتال ٢٥ تجيرني من شر خلقك طويلة

بهذه الابيات الثلاثة يسأل الله ويتوسل اليه باسمائه العظام وصفاته المقدسة وبكتبه المنزلة من الزبور والتوراة والانجيل والفرقان راجيا ان يعيذه من اشرار خلقه .

أسرع علينا يا قريب النوال ٢٦ لا تجعل الشدة علينا طويلة

تمت وفرجها عزيز الجلال ٢٧ وفرحت (بالطارش) لروحي بزيلة

وصلاة ربي عدد رمل سهال ٢٨ على نبي وضح الله دليله

ختم الشاعر قصيدته بالصلاة على النبي وهي قاعدة مطردة عند شعراء الزجل ، قل ان يشدو شاعر قصيدة الا ويختمها بالصلاة على النبي . ولكن يبدو ان للعوني هنا غاية اخرى ، فغايته من الصلاة هذه بأن تستجاب دعوته . وهذا ما يدلنا على أن له الماما بعلم السنة . اذ أن ابياته الاخيرة يعبر لنا عنها في نفسه . فقد ورد بالحديث أن امرءا اذا سأل الله فليبدأ

اليه لغاية ما وكان ابتهاله وتضرعه اليه بنية صالحة ونية صادقة . وبعد ذلك آمن ايمانا وطيدا واستحابانه ستستجاب دعوته . ثم اضاف الى هذا الايمان ان ختم سؤاله وابتهاله بصلاة على النبي ، وسلام عليه . فلا بد الا ان يجيب الله دعاءه . ولهذا نجد المعري حريصا على ان تستجاب دعوته ولو بقبض روحه . اما تراه يقول :

تمت وفرحها عزيز الجلال ... وفرحت بالطارش لروحي بزيله

ومعناه انه واثق ثقة تامة بأن دعوته قد تمت استجابتها على ما يود ويروم . وانتهى امانيه واسمى غاياته ان ينتقل الى ربه وينتهي من هذه الحياة الطويلة بالمتاعب والمتاعب والعناء . وهذا معنى قوله " فرحت (بالطارش) لروحي بزيله " ان انه استجيبت دعوته لا محالة . " بالطارش معناه القادم . اى انه قدم اليه رسول الموت يستلم روحه وانه سر وفرح لمجيء هذا القادم الذى سينقله من دار الشقاء والبؤس والفناء الى دار السعادة والنعيم والخلود .

وقد وصل المعري حدا من اليؤس الى المعنى الذى اشار اليه ابو الطيب المتنبي بقوله :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا ... وحسب المنايا ان يكن امانيا

من مجلس المعري وونيسه في سجنه

كنت دائما وابدا شديد الحرص بأن أحصي كل شاردة وواردة مما له صلة بالشاعر المعري وكم أجد لذة عندما أنقل أخباره عن لهم به صلة مباشرة وتتضاعف عندي هذه اللذة عندما اثق في صحة حديث الراوى .

وبعض الصدفة كنت في الرياض جالسا في نادي حفيد الصديق صديق السعيد وبحضور الاخ صديق نفسه . وهنالك دار الحديث حول العوني — وما أكثر ما يكون العوني مجال الحديث بالاندية الشعبية سواء الحديث في شعره وامثاله وحكمه او في حياته وما ناله فيها من اضطراب وسواطي التهمة تارة . وانخافض الى الدرك الاسفل احيانا — وبينما نحن ماضين في ذلك النادي بالحديث عن صاحب الترجمة — اخبرني الاخ محمد الساطي وقال : يوجد حاليا في الاحساء شخص يدعى محمد الدرازي يحفظ للعوني قصائد واحاديث لا توجد الا عنده واضاف أن الدرازي سجن هو والعوني في دار واحدة في سجن الاحساء — فسألت الساطي عما اذا كان الدرازي ثقة يركن الى روايته ؟ ؟ فأجاب بانه رجل بسيط ولا يعرف الكلفة في حديثه .

ولم نتردد في عقد العزيمة في سفرنا فجر اليوم الثاني بالسيارة التي يقودها عبد الله القحطاني متجها الى الاحساء — وذلك في ١٣٨٦/١١/٢٢ هـ وما ان وصلت هناك — حتى كلفت صاحب الفندق بإحضار لي السيد محمد الدرازي — وما هي الا فترة قصيرة حتى جاءني رجل قصير القامة نحيل الجسم قمحي البشرة بادية على محياه بل ومنطقه البساطة والعفوية وكان هذا ما استرعاه انتباهي من الدرازي كان بعد تبادله التحية دار بين الدرازي وبيني السؤال والجواب الاتيين : قلت للدرازي .

— كم تقدر عمرك ؟

— واحد وسبعون سنة .

— يقال انك سجنت مع العوني في غرفة واحدة فهل هذا صحيح ؟ .

— نعم سجنت معه في نفس الغرفة التي سجن فيها .

— ولماذا سجنت؟

— سجنت لان علي دين مال انتهت مدته بدون ان اسدده فسجنت شهرين هذا في

المرة الاولى ثم خرجت وسجنت بسبب الدين ايضا شهر وستة ايام.

ـ وهل تعرف مقدار المدة التي قضاها العوني بالسجن في الرياض اولا وفي الاحساء أخيرا ؟

ـ نعم سجن في محطة الرياض شهرين وسجن في دباب الاحساء اثنين وعشرين شهرا .

ـ هل انشد العوني قصائد عندما كان في السجن غير قصيدته الاثنتين اللامية التي يمدح الله بن جلوى والمعية بابني عبدالله فهد وسعود ـ والقصيدة الثالثة التي كلها توبة ورجوع الى الله ؟ .

ـ نعم انشد العوني قصائد كثيرة غير القصيدتين اللتين تشير اليهما وغير قصيدته المسماة بالتوبه .

ـ هل تحفظ شيئا من قصائده التي انشدها في السجن ؟

ـ احفظ القليل والكثير ضاع مني .

ـ هل يمكن ان توافيني بما تحفظه من قصائده ؟

ـ قلت لك أنني لا أحفظ جميع القصائد التي أنشدها عندما كان في الحبس . وانما احفظ ابيات من قصيدة انشدها بعبد الله بن جلوى خلاف القصيدة اللامية المشهورة ـ كما احفظ ابيات من ثلاث قصائد كل معانيها رجوع الى الله وابتهال اليه خلاف قصيدته المعروفه بالتوبه ـ فخذ اولا ما أحفظه من قصيدته بابن جلوى التي جاء منها قوله :

يابو فهد مالي بنجد محبين	١	عدوان كل الناس من غير علـه
امثول بالاحساء بين كثيرين	٢	واليوم كل قال للنار خلـه
من يوم شافوا فيحزين المخلين	٣	كل جرد سيله على العرض سلـه
ما منهم اللي رجحه بالموازين	٤	أورد/عنّد شيخ لعلـه
يابو فهد يا ذخرتي لا تخلين	٥	مهجور في دار العنا والمذلـه

ارجيك ترضي لي ايمام السلاطين ٦ اعز من فوق الوطى داح كله
رجواى بالله ثم بك وانت تكفين ٧ من كل من وارد ذراه وشله
نجم الذخيرة يوم طافون الادنين ٨ خزن لقبته يوم جاء وقت حله
حامي أوطام بكل درب لنازين ٩ وبالله وعونك كل درب تحله
يا لولب القالات فض المعاديين ١٠ يا سور سور الشرف انته هلله
بمهندات برقهن يبهر العيين ١١ لدمن من الهامات وصل تهله
واسلم ودم بالعز والنصر والهنا ١٢ لازلت حمد نلتجأ حدر ظله
واختم صلاتي عند ما خطت السين ١٣ على نبي فضل الله فحله

عند ما انتهى السيد الدرازي من تلاوته لهذه القصيدة التي نقلتها منه قلت له — وافني بالقصائد الثلاث التي ذكرت ان فيها ابتهال الى الله — فقال لم احفظ الا ابيات قليله من كل قصيدة فقلت هات الذي تحفظه — فذهب وانشدني ما يحفظه بادئا اولا بقصيده ينادي الشاعر بها الله تعالى فيقول :

ياحي غيرك ما بقى لي رجاء حي ١ تقطعت عنا العرى والعنايا
ما غير عروتك الوثيقة بقى شيء ٢ قسمك به عن شرور البرايا
العايذ اللائذ بجالك تحت في ٣ عفوك ولطفك ياجيل العطايا
مولاي زيني مقصدي من ترى في ٤ اليعاد مالي بالخلايق دنايا
اليعاد عبد مذنب والعمل سيء ٥ من ذا الذي غيرك يغفر الخطايا

وقد مضى الدرازي وقال هذا ما احفظه من قصيدته التي على هذه القافية والمتضمن معانيها استجاده بالله تعالى — اما القصيدة الثانية التي خلاف هذه القافية وهي على هذا المنوال فهي الاتية :

بالله يا سامع نهأ صوت ذنـــون	١	وهو في بطن الحوت والموج غاطيـــه
اسمع دعا عبد غريب ومسجـــون	٢	في ظلمه ماله صديـــق يحاكيـــه
بين الرجاء واليأس بالسجن مرهون	٣	ما حد رحم حماله ولحد يواسيـــه
تقطعت ماله رفيق يذل عـــون	٤	الانت يا منلع الادرا تتنجيـــه
ناس لهم ناس وناس بداعـــون	٥	وانا بلا داع ولا حد نظر لـــه
غير انت يالذي دبر الملك والكـــون	٦	انت الرجاء وانت حجا من لجا فيـــه
الما منهم قاموا لبعضهم ينادون	٧	أقوم اناله وارفع الراس اودعـــه

ويختم السيد الدرازي محفوظاته من قصائد رفيقه في السجن بالقصيدة التي يزعم الراوي أنها اخر قصيدة انشدها العوني عندما كان بالسجن والاصح آخر قصيدة حفظها منه قبل مغادرته له وهي الاتية :

بالله ترى غيرك ولا نسى بداعي	١	ولا شوف حيل للسبب غير دعـــواك
تكللت بيمـــان كل المساعـــي	٢	اولا شوف انا باب سوى باب رجـــواك
يا خير من يدعي ويدعيه داعـــي	٣	يا فارج الضيقات حلال الا شـــراك
أفرح العبد ما وراه استناعـــي	٤	الا استناك ثم جودك ورجـــواك
عبد زين بابك مخيف براعـــي	٥	يارجي الفلك له منك يا مدبر الافـلاك
فلكان مانته له وديع وراع	٦	فهو المضيع بين ذولا وذ ولاك
فرد غريب طاح بين السبـــاع	٧	من يمنعه غيرك وهو بين الادارك
انا دخيلك يا مقيت الجيـــاع	٨	وانا بزنبك بين طـــوك وحنـــاك

بعد أن انتهى الاخ الدرازي من تلاوته لما حفظه من قصائد العوني التي انشدها وهو في السجن والتي ضاع منها الكثير او اكثر من الكثير مات مع العوني ، بعد ذلك وجهت الـــى

الدرازي السؤال التالي ـ كيف كانت معنوية لصاحبة العوني فقال : لم الاحظ منه اى دليل يعبر عن الضعف او الانهيار بل كانا دائما يحدثني بما جرى له ومن حياته كأنه لم يكن في حالة سجن مثل السجن الذى نحن فيه . ويمضي الدرازي في حديثه عن العوني ويؤكد انه وهو في سجنه ووضعه الذى هو فيه فانه كان لا يترك النكتة فيما اذا جاءت المناسبة يقول الدرازي ـ ومن امثال ذلك ان والدتي زارتنا في السجن وقالت : كيف حالكم فاجابها العوني قائلا حالنا يا ام محمد على ما تحبين حسنه وجميلة للغاية ـ ومن أكبر الادلة على حسن حالنا هو ان القطة الواحدة التي هي ضمن الوف القمل لا يستطيع احدنا ان يقتلها بعده من كبرها وضخمها وشراستها ـ اللهم الا اذا أمكن قتلها برصاص المسدس ـ ثم اضاف وهل تريدين يا ام محمد حال لنا احسن من هذه الحال .

ويؤكد الدرازي ان العوني خفف عنه السجن قبل موته بفترة . فاخلي سبيله بصورة محدودة اى انه افسح له المجال بحيث انه ترك يخرج من غرفته التي كان يوضع فوق سائر اصفاد الحديد ـ وسمح له ان يسير حرا كيف يشاء ولكن ضمن جدران واسوار السجن .

واذا كان رفيقه الدرازي يؤكد ان معنوية العوني ظلت كما كانت دون ان يصاب بانهيار عصبي وانه ظل على نكته ـ فان لدى دليل اخر يؤيد رواية الدرازي ويثبت ان هذا الانسان الجبار لم يتخلل الى قلبه اليأس ـ حتى بعد أن فقد بصره واصبح هيكلا عظميا بلا لحم وهذا الدليل سوف اورده بالفصل التاسع الذى هو خاتمة هذا الكتاب .

وقد توفي صاحب الترجمة في عام ١٣٤٣ هـ ـ وشيع جثمانه من السجن الى مثواه الاخير .

وهكذا انتهت حياة العوني الذى كانت زاخرة بالعبر وحافلة بالحوادث ـ وطافحة بالمغامرات . ومشحونه بخوض المعارك الحربيه احيانا . واقتحام معمعة المعارك السياسية

طورا . والفرقة والتشريد زمانا طويلا . والاسر في الحروب مرارا كما سيأتي ذكر ذلك والسجن الابدى — الى ان كف بصره . واخيرا الموت سجينا غريبا فاقد البصر هزيل الجسم . وصدق المتنبي عندما قال :اذا كانت النفوس كبارا

اذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجسام

الفصل الخامس عشر

العوني بالميزان والعوني بما له وما عليه

العنوان الذى وضعته أعلاه لم يكن هبطا كما لم يكن مجيئه صدفة أورده خاطر عابر، بل سبق أن كتبت المعاني الخاصة به منذ ثمانية عشر سنة.

واذا كنت أسميت هذا الفصل (العوني في الميزان ...الخ) فانني أود أن أضع هذا الرجل في الميزان التاريخي، أضعه بكل ما له وما عليه ـ كما أضع الصورة المأخوذة عنه لدى الرأى العام. تلك الصورة التي جانب منها فيه اسراف بالاجحاف عليه، وجانب آخر فيه الحقيقة بكاملها، وجانب آخر فيه روايات مضطربة. كل من هذه الامور سوف أوردها بهذا الفصل بصورة سوف أجتهد ما استطعت بأن أجعل القارئ على بصيرة مما سمع وما قرأ عن العوني ـ ذلك الرجل الذى سبق أن قلت، وأعيد القول الآن، أن الاندية الشعبية في الجزيرة العربية وخاصة في نجد لم ولن تعمر ويتلو أهلها الا عندما يكون أدب العوني وشعره وحكمه هي محور الحديث في تلك المجالس، لا في عصر الجيل الذى عاش الشاعر بين ظهراني أهله فحسب، بل وفي الجيل المرادف لجيله، وحتى عصرنا الراهن. اذا دار الحديث عن أدبنا الشعبي، فان قمته سيكون شعر العوني وحكمه ونوادره ونكته وأمثاله والحديث عن تاريخ حياته ...

هل العوني متقلب ولا مبدأ له ـ كما يقال ؟

ما أصعب الجواب على هذا السؤال، ومصدر صعوبته هو أن حياة العوني من حيث الواقع تثبت أن الرجل جدير بأن ينعت بالتقلب. كيف لا ونحن نذكر أن الرجل بدأ حياته

بنشاط سياسي ضدهم بن رشيد — بل اذا أعدنا الى ما أنشده العوني في هجائه لمن تصدى لهم بالعداء نجده لم يبرز طابع العداوة والحقد في جميع قصائد هذا الشاعر، كما برز في هجائه لامير حائل ابن رشيد — كما أن العوني أول مواطن نجدي تحدى لخصومة عبد العزيز ابن رشيد في الحين الذي كانت امارة الرشيد في أوج مجدها وعنفوان عزها، ومع ذلك لم نجد رجلا أثار الرأى العام النجدي على ابن رشيد وحرّض مواطنيه على الثورة في وجهه كالعوني الذي هيّج الرأى العام عليه باسلوب قاس عنيف طافح بالضغينة والحقد الاسود .

هذا العوني بدأ حياته بالعداء الشديد لآل رشيد وبالخصومة الشرسة لحائل وأميرها ثم انتهت حياته بجانب ابن رشيد — بصورة لم يستوطن أى بلد ويقيم فيها بحياته كلها كاقامته الطويلة المدى كما أقام بحائل — عاصمة امارة آل رشيد — وأكثر من ذلك، لم يتأقلم في جميع البلدان التي استوطنها بما فيها بلاده وسقط رأسه القصيم — كما تأقلم في حائل، بل ولم ينشد قصائد متعددة ومختلفة الوزن، منها ما هو مدح واطراء لامير حائل، ومنها ما هو طافح بطابع الحماسة والتهيج الذي يناضل به العوني في اثارة النخوة في نفوس أهل حائل وقبيلتهم، ليكافحوا ويناضلوا دون تربة بلادهم، كما أنشده بحائل .

وبالتالي لم تذهب حياته ثمنا لأى اتجاه سياسي من اتجاهاته التي عاشها عندما كان بجانب ابن صباح أو بجانب ابن سعود، أو بجانب ابن مهنا، أو بجانب ابن سعدون — كما ذهبت حياته بجانب ابن رشيد .

هل كل امرئ بدأ باتجاه وانتهى بعكسه لا مبدأ له ؟

قبل أن نثبت أن العوني له رأيه الذي يؤمن به ومبدأه الذي يتفانى في سبيله، أو أنه بهيم بلا مبدأ وبلا عقيدة وأنه متقلب كما وصفه بعض الكتاب بهذا الوصف، قبل ذلك يجب علينا

أن نسأل هل العوني الوحيد من الرجال البارزين الذين بدأوا حياتهم باتجاه مشرق وانتهت حياتهم باتجاه مغرب ؟

الجواب على هذا السؤال ينبغي أن يؤخذ من الأدلة التي جاءت من صميم التاريخ الذي نرجعه الى نوع من أمثلة الاحداث الثلاثة ، أمثلة وقعت في فترات متفاوتة فيها من العبرة ما هو جدير أن يكون نماذجا عن الظروف التي حكم بها القدر على أن يعيشها العوني مع اختلاف الزمان والمكان . وهذه الامثلة منها ما هو قبل البعثة الاسلامية بزمن بعيد ، ومنها ما هو بأول عهد البعثة ، ومنها ما وقع في عصرنا الحديث الذي نعيشه الآن . وأود أن أوجز الحديث عن كل واحد من هذه الامثلة ، أوجزه ما استطعت على الوجه الآتي :

١ — المثل الأول ينطبق على الرجل الروماني الذي كان يدعى أولاد شاؤول ، ثم سمي فيما بعد القديس بولس — فقد كان هذا الانسان في بداية حياته سيفا مسلطا على كل من يدين بالمسيحية ، وكان المسيحيون يلقون على يده أشر أنواع العقاب — من تقتيل وتعزير واحراق بالنار ، ثم شاء القدر أن يتبدل هذا السفاح المجرم بالامس الى ناسك ورع ، بل الى انسان يعتقد فيه قداسة النبوة ، والى مؤمن شجاع يناضل في سبيل الديانة المسيحية ولا يقبل أية تضحية دون أن يقدم حياته قربانا في سبيل مبادئه التي آمن بقداستها ، ووهب نفسه فداء لها ومات وهو باسم الثغر قرير العين .

٢ — المثل الثاني ، وقع في بداية عهد النبوة المحمدية ، هذا المثل حدث من شخصين وهما : خالد بن الوليد ، ووحش الحبشي . فالأول كان قائدا لفرسان المشركين في غزوة أحد ، وبفضل قيادته وشجاعته استطاع أن يهزم جيش سيدنا محمد (ص) ثم بعد هذه المعركة بفترة ليست بعيدة ، أسلم خالد وكان أبرز قائد بفرسان المشركين ، فقد كان

بعد اسلامه ابرز قائد عرفه العرب والمسلمون في فتوحاته وانتصاراته الرائعة . هذه قصة خالد بن الوليد . أما الثاني الذي هو وحشي ، فقد كان هو الاخر بجانب المشركين في غزوة احد السالفة الذكر نفسها ، وقد قتل في هذه الغزوة بالذات سيد الشهداء حمزة عم النبي "ص" وأبرز فارس بالمسلمين القدماء . ثم بعد ذلك اسلم وحشي ، وجاهد بجانب جيش النبي ، وقتل مسيلمة الكذاب ، أشر وجال بصره .

٣ — المثل الثالث الذي وقع في تاريخنا الحديث ، قام به مصالي الحاج ، الذي يعتبر الرائد الاول للثورة الجزائرية الحديثة ، وكثير من الشبان الجزائريين كانوا كلهم منضوين تحت لوائه ، هذا عندما كانت الثورة في المرحلة الاولى ، وفي خطواتها التمهيدية ولكن عندما دخلت الثورة المرحلة الفعلية ، وانتقلت من دور الخيال والاماني والكلام الى دور التنفيذ الثورة العملي ، هناك وقف مصالي الحاج موقفا سلبيا معارضا للثوار الشبان وأخيرا تبدلت معارضته السلبية — الى شقاق عنيف ، بل وتطور الامر الى حرب مسلح ، ومعركة دامية دارت رحاها بين مصالي الحاج ، وتلامذته الشبان المجاهدين المخلصين وانتهت بانتصار الشبان وبهزيمة مصالي الحاج وفراره الى باريس ، ملتجأ في آخر ايامه بجانب المستعمرين الفرنسيين ويعيش الى يومنا هذا في باريس مطرودا ومنبوذا عن بلاده الجزائر التي تحررت على ايد ابناء بلاده الاحرار الجزائريين الذين كانوا اكثرهم تلامذة عنده ، وهو الذي دربهم على النضال ثم كانت خاتمته سيئة على النهج الذي مر بنا . وهكذا حكم القضاء والقدر على العدوني على أن تكون نهايته مخالفة لبدايته — كما حكم القدر على اسلافه الاسبقين بولس ، خالد مصالي ،

وغيرهم كثير وكثير.

اذن لم يكن العوني بدعا من نوعه ، بل انما هو واحد من البشر الكثيرى العدد الذين مثلوا هذا الدور.

وهكذا نجد العوني اعد نفسه رافضا مختارا بأن يربط مصيره بمصير اسرة آل رشيد ، وان يعتبر نفسه واحدا من رجال آل رشيد (١) ، كما أن آل رشيد نعموا او تناسوا ذلك الهجاء المر الذى هجاهم به العوني سابقا ، واعتبروه واحدا من وجهاء رجالهم الذين يركن لرأيهم في الملمات.

وقد سبق أن قلت وأكرر قولته أن العوني لم ينقاد بجانب ابن رشيد بقلبه وجوارحه بين عشية وضحاها ، كما هو شأن بعض الصحافيين والمذيعين في عصرنا الراهن اولئك الذين نعرف منهم اناسا مجدوا حاكما ما الى درجة أن قال احدهم : لولم اعبد الله لعبدتك يا أيها القائد الملهم الخ . . قال هذه الجملة في الليلة التي سبقت الانقلاب الذى اسقط به حكم ذلك الحاكم في ليلة او ليلتين فقط ، وفي طرفة عين انقلب ذلك المذيع واولئك الصحافيون الذين كانوا يمجدون ذلك الحاكم بالامس ويسبحون بحمده الى درجة التأليه انقلبوا ناعتينه طاغيا مستبدا فاسدا الخ من اوقح النعوت التي لم توجد بقاموس اللغة العربية حتى بحق الشيطان.

لا لا يستطيع المرء أن يضع العوني بجانب هؤلاء وانما للمرء ان ينظر للظروف التي حكمت على اولئك النفر الطالما ذكرهم من بولس الى معلى الحاج ومن ثم يحكم على صاحب الترجمة بالحكم الذى يختاره بأن يجعله بصف واحد من اولئك القوم ولا سيما الاخير منهم

---

(١) قد يكون من أهم الامور التي جعلت تاريخ العوني مشوها ومنسيا مع انه حافل بالاحداث هو انه لسوء طالعه حكم عليه بأن يكون مصيره بجانب المغلوب ، فلو كانت نهاية حياته بجانب الغالب ، لربما سمعنا وقرأنا عنه الشيء الكثير الكثير.

هل نفسية العوني طبعت على المشاغبة وسفك الدماء

اجبنا على السؤال الاول القائل ـ هل العوني لا يهدأ له الخ . . والآن نود أن نجيب على هذا السؤال الثاني ـ نجيب عليه بنعم وبلا .

اولا ان اتوسع اكثر على الجانب الاول الذي فيه ما يثبت ان الرجل لديه نفسية تواقة الى المشاغبة واثارة الفتن بل وسفك الدم ـ ثم بعد ذلك اجيب على الجانب الثاني الذي سوف انفي به ان صاحب الترجمة يميل الى اثارة الفتن وسفك الدم على الشكل [illegible] ولو بين الابن وابيه أو يرغب سفك الدم كهواية بنفسه ـ هذا الامر لا حقيقة له ـ وكما ذكرت سوف اجيب عليه بعد ان اجيب على الجانب الاول بما يلي .

حينما يدرس المرء تاريخ حياة العوني بتدبر وعمق وروية يجد وله الامر واضحا ان نفسيته لم تكن مفطورة على اثارة الفتن والمشاغبة حبا بالفتن او هواية لها باي شكل تكون هذه الفتن ورغبة بالمشاغبة من حيث هي ـ وانما الرجل تطيب له المشاغبة على الاقوياء وخاصة ذوي النفوذ والصولجان ـ وبعبارة اصح يهوى مصارعة الحكام واثارة الفتن بوجوههم سواء بصورة علانية ـ أو باسلوب خفي ـ وليس كل حاكم يهوى العوني مشاغبته ـ أو معارضته ـ لا ليس ذلك . فالحاكم المغلوب او المهزوم ـ أو الامير الخنوع او المهضومة حقوقه نجد العوني يقف بجانبه موقف المنتصر له ، كما كان واقفا بجانب الامام عبد العزيز عندما كان لاجئا سياسيا في الكويت ، ولكنه مجرد ما كسر الامام عبد العزيز طوق ما يسمى باللجوء السياسي وذهب مغامرا في فتوحه للرياض وفي غزواته تلك التي كلها فتوحات وانتصارات بعد ذلك

نجد العوني ذهب يكيل له الموالوات بجانب آل مهنا امراء بريدة وقد يقال : ان آل مهنا امراء بلاده ، وان العوني يدافع التحيز الاقليمي مضطر ان يقف بجانب آل مهنا ضد الامام عبد العزيز الذين علاوة على كونهم حكام بلاده يكونون ايضا اولياء نعمة العوني ، قد يقبل ذلك الذي يحاول أن يدافع عن العوني ، ولكن ماذا يجد من الدفاع المدافع عن العوني فيما اذا اوردنا القصة المتواترة التي يقول أكثر من واحد من الرواة الثقات ، بان العوني ، عندما رأى تركي ابن عبد العزيز آل سعود يسير وراحلته هزيلة لا تستطيع مسايرة الركب عند ذلك اناخ العوني راحلته واركب الامير تركي في المقدمة اى فوق الشداد ومن ثم ردف هو فوق مؤخرة الراحلة ، وعندما قال تركي سائلا العوني : هل تظن ان عبد العزيز ((يقصد الامام)) رآني عندما مر بي اسير وراء راحلتي الهزيلة ، فما كان من العوني الا ان قال : قد رآك قال العوني هذه الكلمة باسلوب فيه منتهى التحريض للامير تركي على ابن عمه الامام عبد العزيز فما كان من تركي عندما استفزه العوني الا ان قال ((الله يحسن الى فياض دماه انني طلقاه)) اى اللهم اجعلني القاتل لعبد العزيز ، فكان جواب العوني للامير تركي ، والله لولا هنوتي بك هذه فلا انخت ذليلي واركبك بالشداد . اى لولا انني اتوقع بان الامام بالمرصاد على قتل عبد العزيز لما سكت البتة ولتخترا حتى وقد على نفسي)) .

اذا يجد من يتقبل بهذا العبارات بشان الامير تركي بان استفز فيما يحرض الامير على قتل ابن عمه الامام عبد العزيز الذي لم يترك الامام من الحفاوة والاكرام للعوني شيئا الا فعله .

وقد ذكرت بوضوح العناية والاكرام اللذين يلاقيهما العونى من الامير سعود بن رشيد . ومع ذلك نجده لم يتورع من ان يهيج عليه ابن عمه النقى عبد الله الذى كان سنه في حدود المراهقة .

كل هذه الادلة تثبت ان العونى مشاغبا للحكام الاقوياء .

هذا جوابنا على الجانب الاول ، اما جوابنا على الجانب الثاني ، فاننا نجد العونى يحمل نفسا رقيقة تجاه المقهور او الضعيف المغلوب حتى ولو كان هذا الضعيف حيوانا وهل تريد دليلا اكثر من قصته مع الجزار الذى اراد أن يذكى خروفا وهرب الخروف من يد الجزار ، ودخل منزل العونى ، فما كان من العونى الا ان رقت عاطفته على ذلك الحيوان ودفع للجزار قيمته وزاده مكسبا من عنده وظل الخروف في منزل العونى الى ان غادر الكويت ، عند ذلك ذهب به الى بدوى يعتقد فيه الامانة والصدق واخذ منه عهد الله ان لا يذبح الخروف بل يتركه الى ان يوافيه اجله (١) ومثل هذه القصة قصة مشابهة لها رويت عن صديق العونى عبد العزيز ابن زيد الذى يقول انه رواها عن صاحب الترجمة نفسه وخلاصتها مايلي :

كان العونى يسير مع ركب فوق رحالهم وقد وصلوا الى بئر وجدوا فيه جروا — اى ابن كلب صغير — رحل البدو عنه وتركوه بتلك الصحراء لاغذاء ولا ماء فما كان من العونى الا ان رق قلبه على ذلك الكلب — الكليب — وحمله معه في خرجه يطعمه ويسقيه الى ان وصل احد المدن وهناك امن للجرو غذاءه بل وحياته لانه كان عرضة للموت .

---

(١) انظر كتابنا من شيم العرب للمؤلف ص ١٩ ر ح د .

واذا كان هذا موقف العوني تجاه الحيوان عندما يراه مغلوبا على امره فان الامر طبيعي ان يكون له مواقف بجانب الانسان حينما يراه مقهورا والموت منه قاب قوسين أو ادنى فخذ موقفه بجانب عبد العزيز بن صمعان الذى تاه في غزوة الجوف وراح الى معسكر ابن شعلان وهناك قال الشيخ نواف بن شعلان لقومه ان ابن صمعان مرسل من قبل اهالي حائل ليتفاوضوا معنا ويسلمونا ابن رشيد وكان سعود ابن رشيد وقتها محاصرا في الجوف ، قال الشيخ نواف هذه العبارات المختلقة كي يقوى عزيمة قومه ليستمروا بالمثابرة على حصارهم لابن رشيد .

اما ابن صمعان فانه عاد هاربا من ابن شعلان الى رفاقه جنود ابن رشيد ، وهناك قدم ابن صمعان بين يدى الامير سعود ليصار بضرب عنقه ، وما كان من العوني الا ان وقف مدافعا دون ذلك الصبي الضعيف الذى باتت حياته على كف عفريت ، ومن ضمن الحديث الذى دافع به العوني عن الصبي ابن صمعان الحديث الذى قاله : هذا الصبي يا حضرة الامير مجهول ولا يمكن ان اهل بلادك يبعثون للتفاهم مع ابن شعلان صبيا كهذا المجهول فرد عليه ابن صمعان قائلا انت المجهول يا هلقصيمي — وقد كان العوني يدرك ان ابن صمعان الصبي المازح سوف يكون الرد منه نفس العبارة التي تلفظ بها ابن صمعان ، وهناك قال العوني للامير الا تسمع ان هذا الصبي يقول لك انه ذو عقل وتدبير وموفد من جماعته لابن شعلان فهلما اقتلني ، فانتهى العفو عن ابن صمعان بفضل دفاع العوني ودهائه عندما استحمل من الصبي ابن صمعان على تلك النكتة التي باتت سلاح بيد العوني للدفاع عن الصبي الذى الى الفهاوة والمذاجة اقرب منه الى الفطنة والذكاء .

وللعوني موقف بالدفاع عن الشيخ ناصر السعيد الهواوى وذلك عندما اعتقله الامير عبد الله المتعب واراد أن يقتله على اعتبار أنه من علماء الدين الذين افتوا بتكفير ابن رشيد وجهاده شرعا ، وعندما اراد الامير عبد الله ان ينفذ فيه القتل هناك تصدى العوني بالدفاع عنه موردا الحجج التي اقنع بها الامير واعوانه اصحاب الحل والعقد ومن جملة حجج العوني المقنعة قوله - هذا ناصر الهواوى ان قتلتموه قتلتم " دردا " ((الدرد حشرة من حشرة الصحراء التي لاتؤذى)) ولكن هذا الدرد اذا قتلتموه سوف يقول لكم اعداؤكم انكم تقتلون العلماء ورثة الانبياء ، وهكذا دافع العوني عن الشيخ ناصر الى ان انجاه بعد الله من سيف الجلاد - هذا في المرة الاولى ، كما انه في المرة الثانية عندما اعتقله الامير الثاني محمد الطلال دافع عنه العوني ، كما دافع عن فهيد السحلي ولكن دفاعه عن الشيخ الهواوى لم يجد عند الامير ابن طلال ، كما لم يجدى دفاعه عن فهيد السحلي فيما لو ظفر به الامير قبل ان يمتطي فرسه ويولي هاربا وقد اوردنا القصيدة التي انشدها العوني في تلك المناسبة وهي قصيدة تحمل في معانيها العتاب للصديق محمد الطلال الذى لم يوجهه بالهواوى المقهور وابن سحلي الذى يتصور العوني انه سوف يقع اسيرا بيد الامير فيهرب عنه وهوا ى ابن سحلي علاوة على ذلك يقرب لخادم العوني عبد الله بن شديد كما سلف ذكره .

وهكذا نفسية العوني مثالية للكبار بل وتتغذى بمثل دماهم وتتصدى لمحاربتهم طالما ان امكن او الدس عليهم سرا ، ولن يردعه عن ذلك رادع مهما انعم عليه اولئك الكبار ومهما اعتنوا واحتفوا به ، فان ذلك لا يردعه من مصارعته لهم ، ومن ناحية اخرى تجده

يعطف ويرحم المنهورين بروح انسانية كانه واحد من القديسين الرحومين المشرفين بالتسامح ورق القلب .

واقولها مرة ثانية وثالثة ان الامام عبد العزيز اعترف وافهم وافطن من ادراك هذه الغريزة بخلق المرئ ، ولذلك وضعه في المكان الطبيعي الذى لقي به مصيره .

حضر العوني اربعا وخمسين معركة وغزوة

اذا نظرنا نظرة عابرة الى الغزوات والمعارك الطاحنة التي خاض غمارها العوني وجدناها مع الاختصار اربعا وخمسين بين غزوة ومعركة واذا كان المثل الشعبي عندنا يقول المرجلة تحضر وتغيب واذا كانت هذه الكلمة أي "المرجلة" تعني بمفهومها الخاص الشجاعة فان اعداء العوني قبل اصدقائه لا يستطيع أي واحد منهم أن يأتي بأقل دليل يثبت به أن العوني جبن أو غابت شجاعته بأية غزوة من تلك الغزوات المتعددة التي منها ما حضرها العوني خيالا واطرح مرتين عن جواده — شللا لا منعا [1] ومنها معارك عنيفة تارة يكون بها العوني من اشد المحاربين عزيمة واقواهم باسا فيها اذا كان قومه محاصرون من قبل العدو ولا نجاة لهم الا بالجلد والثبات وطورا يكون العوني الجهاز الحافز للمقاتلين ببنيانه وقصائده النارية التي تفعل مفعول القنابل واليك ما استطعنا العثور عليه والالمام به من الغزوات والمعارك التي حضرها هذا الرجل — تلك التي ظرفنا بها من المعاني التي اوردها بقصائده التي تعتبر كل قصيدة منها أوثق مصدر تاريخي ومن ماهو من تاريخ حياته التي قضاها هنا وهناك تلك الحياة المليئة بالمغامرات والمنغمرات والمؤمرات .

وحياة العوني وان كانت حافلة بالمواقف والعبر التي منها ماهو له ومنها ما هو عليه فانها حرية ان يغفلها التاريخ لولا الملاحم التي انشدها الشاعر في اطواره المختلفة

---

(١) الشلع الذي لا يستسلم به الفارس الا بالقوة — والمنع الذي يستسلم به الفارس ويأخذ به عهدا على حياته من الفارس الذي يقهره .

واروع تلك الملاحم ملحمته الدائمية والرائعة ، فالاولى فيها وصفه للغزوات الثلاث التي خاضها بجانب الامام عبد الرحمن الفيصل وابنه الملك عبد العزيز كما ذكر وصفه الرائع لمعركة الطرفية التي وقعت بين ابن صباح وابن رشيد وذلك بقصيدته الدائية التي اوردناها سابقا ، وفي ملحمته الرائية ذكر وصفه لمعركة عنيزه وانتزاعها وانتزاعها من قبضة ابن رشيد وادخالها تحت قيادة ابن سعود بصورة اثبت بانه شارك بهذه المعركة ثم انتقل وذكر فتح بريده والحصار الذي تم تضعين ليلة والضرب مستمر وذهب الى ان جاء بذكره لوصف معركة البكيريه — ثم الشدانه ثم مصرع عبد العزيز بن رشيد ، فهذه ثمان حوادث التاريخ لدينا بواسطة ملاحمه التاريخية والتاسعة معركة بريده التي كان يحارب فيها بجانب امراء بلاده آل مهنا ضد ابن سعود .

اما الغزوات التي حضرها العوني بجانب عجمي ووالده سعدون ، فانها كثيرة والمعارك اكثر ولكني مع الاسف لم اجد من يحدد لي عددها ولكن المفهوم بانه اسر عند ابن سعدون مرتين ، مرة اسره ابن هذال في احد المعارك التي دارت بين الهذال وبين السعدون ومرة اخرى اسرة الظفير ، ولكل واحدة من هاتين الاسرتين قصة رائعة سوف نوردهما في موضعهما عند نهاية هذا البحث .

وقد وصلنا الآن الى احد عشر معركة مع العلم الاكيد بانه فاتنا كثير من المعارك والغزوات التي حضرها الشاعر بدون ان نوفق للعثور عليهما كما نوفقنا لضبط المعارك والغزوات التي حضرها الشاعر بدون ان نوفق للعثور عليها كما اخذناها من ملاحمه عندما كان بجانب ابن سعود او التي استقصيناها من الرواة الموثوقين عندما كان بجانب

ابن رشيد وهي الغزوات التي المحت اليها سابقا مرقمة بتواريخها البالغة اثنين وعشرين غزوة ومن تلك الغزوات غزوة الجوف التي ظل ابن رشيد محاصرا بها وكانت المعارك والحروب المستمرة بين الرشيد والشعلان اكثر من عشرين معركة واذا اسقطنا من الحساب عدد المعارك التي وقعت في حصار الجوف كما اسقطنا ايضا عدد المعارك التي وقعت في حصار حائل ثم اردنا بذلك الاختصار ، عندئذ تكون الغزوات والمعارك التي مدها ما هو بها شاهد عيان وجهاز معرك لها بتصائده ، وهنا ما خص غمارها تكون اربعا وخمسين غزوة ومعركة ولا يفوتنا الانتباه بان بين هذه المعارك معارك يشيب لهولها الطفل كمعركة الطرفين والمكسريه وجراب ، ومن المحتمل جدا ان يكون حضر معركة الملبد الرهيبه لانه وقتها في سن شبابه .

أفمن يخوض غمار هذه المعارك الطاحنة ايصح ان يقال له جبان ، طالما بان هؤلاء المتجمين له بالجبن كما اسلفت لا يستطيع اى واحد منهم أن يشبهه بانه جبن او فر بمعركة من تلك المعارك .

هذا وانني سوف اوافي القارئ الكريم بادلة اكيدة لاقف بها عند الحد الذي اقنع به تلك الدعاية المختلفة القائلة ان صاحب الترجمة جبان لا لا يكفي تفنيدي لهذه الدعاية وحسب ، بل سوف اورد البراهين الناصعة والحجج الدامغة التي تفيد ان العنزي لم يكن شجاعا شجاعة عادية ، بل جلود لا يجد اليأس والقنوط الى قلبه مدخلا ، وشجاع بالشدائد اذا حمي الوطيس وطال الحصار وضاعت فيها الاذهان وانشلتغيها البصائر

والابصار وشجاع بالمفاجآت التي تكشف عن غريزة المرء ولعمري ان شجاعة الحصار الطويل وشجاعة المفاجآت لهما اثقل ميزان الشجاعات كلها فكم من شجاع وشجاع يفقد ويصاب بالخور والذهول عندما يفاجأ بحادثة طارئة لم يحسب له حساب.

اما شجاعة العوني الادبية فقد مر بنا ذكرها (١) تلك التي لا يقال لها شجاعة ادبية فقط بل شجاعة انتحارية.

---

(١) انظر صفحة ( ).

بعد ادلة النفي نورد ادلة الاثبات

.اقدمت اوردت الادلة التي تنفي نفيا قاطعا بان العوني لم يكن جبانا بعد ذلك يتحتم علي ان اورد الادلة الواقعية التي تؤكد ان الرجل شجاعا ،اورد ها بشهادة الرجال القدماء الذين عاصروا الشاعر . ومنهم من حاضر طيس الرفاء بجانبه ومنهم من حاضر معركة بجانب الرجال الذين يحاربون الجبهة التي فيها العوني واليك شهادة واحد من جماعة الفئة الاخيرة وهو الرياض[1] ، لقد سألت الشيخ الرياض عما يعرفه من شجاعة العوني فقال:عندما دخل الامام عبد العزيز بريده محاربا ، كان آخر المحاربين الذين لم يستسلموا بسهولة رجال كان ابارز فيهم من شجاعته وتحريضه وثباته العوني كما سألت الامير الطارس سلمان ابن محمد آل سعود الذى يعتبر الآن آخر فرسان اسرة حكاما آل سعود سألته عن رأيه في شجاعة العوني في الحروب فقال انه شجاع ، ولكن شجاعته بطيئة ولم تكن مرتجلة او متسرعا بها وعندما سنحت لي الفرصة بالاجتماع زعيم قبيلة المنتفق الشيخ عجمي السعدون سألته عما يعرفه عن شجاعة العوني بصفة ان الشيخ عجمي من اعرف الناس بصاحبالترجمة ، اجابني عجمي قائلا : ان العوني شجاع ولكنه لم يكن ذلك الشجاع السباق المشهور كما اني سألت الشيخ سعود بن سعدون شقيق عجمي نفس السؤال الذى سألت به شقيقه فكان جوابه صورة طبق الاصل عما اجابني به اخوه عجمي ، وعندما علمت ان الاخ فهد المفضى الذى لازال على قيد الحياة سبق

---

(١) الرياض من اهل الرياض .

ان خاض معركة مع الشيخ عجمي المعدون في العراق وهي معركة طوق بها قوم عجمي من قبل العدو والعوني من طوقوا عند ذلك سألت فهد المفضي عن موقف العوني في تلك المعركة ، فأكد فهد المعروف بصدقه ان اشجع المحاربين واربطهم جأشا في تلك المعركة هو العوني ، وهذا يعني ان شجاعة صاحب الترجمة لا تعرف الا اذا طال المدى في الحرب.

هذه الروايات نقلتها عن الرجال الثقات الذى كانوا شهود عيان في شهادتهم بشجاعة العوني .

الدليل المحسوس الذى يؤيد صحة شهادة الثقات

اما الشاهد المحسوس الذى يؤيد صحة شهادة اولئك الثقات ، هو موقفه العوني البطولي الذى وقفه في حصار الامام عبد العزيز لحائل ، في تلك الحرب الضروس التي كانت حائل محاصرة بجيش ابن سعود العرمرم وجنوده اولئك الجنود الابطال الاشاوس الذين يعتقدون اعتقادا راسخا انهم ان قتلوا فانهم شهداء تتلقفهم الحور العين . . . وان قتلوا فان قتلى اعدائهم بالنار . . وحزاهم بقتلهم للكافر جنة الفردوس.

فأية قوة تقف امام رجال يؤمنون بهذه العقيدة .

وهل يجهل العوني الواسع الفهم والحاد الذكاء ان سبيل النجاة متعذر لرفاقه المحاصرين بحائل ××××× بل من كان لديه اقل تفكير يدرك ان الغدر والغلبة

في نهاية الامر سيكونان للامام ابن سعود لامحالة ، وذلك بحكم توفر شتى الوسائل العسكرية والمادية والمعنوية عنده ، ولعدمها انعداما كاملا عند من كان في حائل محاصرا .

واننا نرى بعضا من اهل البلاد راحوا يكاتبون الغازي المنتصر ، بل نرى اناسا بينهم وبين امير البلاد ابن رشيد قرابة مصيبه ومصاهرة ومشاركة في الحكم نراهم هؤلاء عندما رأوا مستقبل الامارة على شفى جرف هار ، ذهبوا يضعون ايديهم بيد عدو القائد المحاصر .

اما العوني الذي كان لاناقة له في حائل ولا جمل والذي كان منهوزا عند الامام عبد العزيز وحاله كهذه الحالة تحتم عليه ان يغادر هذه البلاد ، كما غادرها العدد الوافر من قادة قبيلتها شمر ، فاذا قيل انه لا يمكنه مغادرة البلاد بعد ان طوقت وشدد عليها الحصار فعليه على الاقل ان يجعل نفسه اخرسا وان لا ينطق بكلمة واحدة تكون حجة يأخذه بها المحارب المحاصر الذي اصبح فتحه للبلاد قاب قوسين او ادنى .

اجل كان على العوني ان يسلك أحد هذين السبيلين سبيل المكاتبة السرية للمحاصر او سبيل الصمت ، ولكن خلقه الذي فطره الله عليه ذلك الخلق الذي فطر على الوقوف امام القادة والحكام الاقوياء جعله يقف موقف الجبروت والتمرد باعثا بروح التقة المحاربين الشجاعة حاثا لهم في قصائده النارية بان يثابروا ويصبروا موصيا اليهم بان النصر قريب ، موهما لهم انهم سوف يفكون حصارهم هذا ثم يصبحون محاصرين للقائد الذي يحاصرهم بمقر داره واصغى اليه يقول :

انزحوا عن ماه وحماه وحدره ... والوغد غير الحبل راس بهمان

واصغي اليه ايضا مؤكدا للمقاتلين انهم أسد ، وان الاسد لحمه مر ولا ملمع بمن يأكل براثنه وظفوره ، ها هو يقول :

اسألوا الضرغام هل تؤكل ضفوره ... ثم يوجد بالطبع ضبع بن بانـــــى

وهل ثمة دليل على رباطة جأش العوني وقوة جنانه اصدق لا من ثباته فحســـب بل من تحديه للعدو والمحاصر وهو في اتعس الظروف حراجة تلك الظروف التي كمـــا سبق وقلت : انه ظرف خرست به جميع الالسن اللهم ذوى الرصاص وصوت العونـــى الذى كان كل بيت من قصائده يقوم مقام الجيوش الجرارة .

شجاعة العوني ~~والمفاجأت~~ بالمفاجأت

بعد ان اوردت الادلة التي تنفي عن العوني دعاية الجبن التي روجها المرجفون ثم جئت بالادلة التي تثبت شجاعته بالحروب الثقيلة جئت بها عن طريق الرجال الثقـات شهود الاعيان .

وأخيرا قدمت الدليل الملموس الذى يؤيد شهادة اولئك العادلين الذيـــن لا مجال للشك في صحة رواياتهم ، جئتهم من منطق الاحداث في حصار حائل .

بعد هذا وذاك يطيب لي ان اورد شيئا عن شجاعة الشاعر ورباطة جأشـــه بالمفاجأت الطارئة التي تعتبر قمة الشجاعة تلك التي كثيرا ما يختل بها توازن المـــدد

الوفر من الشجعان المجربين .

والمعروف عند العرب ان لا يكون ثابت الجنان بالحوادث الطارئة التي يهافت فيها المرء بصورة مرتجلة الا جبان الرجل الذى شجاعته خارقة لا تصنع فيها .

حدثني الشيخ عجمي بن سعدون بأن العوني اسره احد فرسان قبيلة الظفير بمعركة وقعت بين الفريقين . وبعد ان اسره كان (خلعا لاضعا) والفرق بينهما ان الاول يكون الاسير مأسورا بعهد عندما لا يستطيع احد ان يمسه بسوء لانه اصبح بذمة وعهد الفارس الذى اسره ، اما الثاني فانه يكون المأسور تحت رحمة الاسر فان شاء قتله وان شاء عفا عنه واذا جاء الاسير احد يريد ان يفتك به فان الاسر لم يكن مسوءا ولا عنه ولا يدان باقل لائمة عند قومه ، كما يعاب ويلحقه العار بالاولى .

وكان الاسر حريا به ان يقتل العوني لان رجال قبيلة الظفير كلهم يكرهونه ولكني لا اعلم لماذا سلم من فتك الفارس الذى اسره ؟ ؟ هل انه لم يعرفه شخصيا ؟ ؟ ام تركه راغبا ان يكسب رضاء هذا الشاعر وثناءه . ام ان العوني كافح عن نفسه ولم يستسلم حتى اخذ عهدا على ذمته . هذا شيء لا افهمه ولا اوفق لسؤال الشيخ عجمي عنه ولا عن اسم الفارس الذى اسر العوني واظن من مجرى الحادثة ان الوضع الاخير هو الواقع . ولكن موضع اعجابنا بالشاعر يكون على الشكل التالي :

جاء [illegible] فارس يعرف العوني شخصيا ولا بد ايضا بانه يعرف بانه لم يؤسر بعهد فهجم عليه شاهرا سيفه قاصدا ضرب عنقه . ولكنه قبل ان ينفذ به القتل شاء بان يسمع الشاعر حديثا يتشفى به مادام على قيد الحياة . ويريد ايضا بحديثه

هذا ان يقهر العوني ، ويسقيه جرعات الموت حيا فباغته شاهرا سيفه بصورة مفاجئة قائلا : احمد الله واشكره الذى رماك بيدى يالعوني الخبيث وها انا الآن سوف اقتلك اشر قتلة ، فماذا ياترى يكون موقف اسير كالعوني بمثل هذا الموقف ؟ ؟ اما كان الجدير من العوني ان يجثم على قدمي هذا الذى شاهرا سيفه بوجهه لعله يجثوه هذا يرحمه او يكشف عن اسوته كما فعل احد دهاة العرب عندما دنا منه علي ابن ابي طالب ليضرب عنقه ؟ ؟ نعم كان على العوني ان يفعل شيئا من ذلك فيما لو كان جبانا كما ينسب عنه ، ولكننا نجده ذهب يتحدى ذلك الفارس بكل هدوء ورباطة جأش قائلا له : لاعتقد انك تستطيع ان تسبني بادنى اذية لانني لم اتخل عن جوادى الا بعد ان اخذت لنفسي عهدا من الفارس فلان ومثلك لايستطيع ان يخفر ذمة فارس مرهوب الجانب كفلان ، وما ان سمع الفارس الذى ((شلع)) العوني عن جواده الا ان هدد بالقتل ذلك الفارس الذى كان ينوى قتل العوني ، لان الشاعر بدهائه وفطنته بل وشجاعته وقوة اعصابه وثبات جنانه استطاع ان يجعل الفارس الذى طرحه من جواده امام الامر الواقع الذى لايسعه الا ان يحميه .

وفي معركة اخرى وقعت بين فهد بن هذال الملقب بالبيك وبين سعدون باشا ابن سعدون طرح العوني عن جواده طعنة احد فرسان ابن هذال ، باسلوب كان شلعا لامنعا ، وعندما جيء بالعوني بين يد ابن هذال الذى كان حاقدا عليه منذ ان كان العوني بجانب الامام عبد العزيز ابن سعود ، وذلك ان الامام كان يجامل ابن هذال ومن مجاملته له انه كان في اثناء الحديث يقول الامام ياعمي واحيانا

يا ابن هي فما كان من العوني الا ان قال : ((وا الفائدة بأعبد العزيز من عبيده عمك وابن عمك الذى لم يحارب لا هو ولا قبيلته معك يوما من الدهر)) .

والعوني عندما قال هذه الكلمة لم يقصد بها اهانة ابن هذال بقدر ما يقصد تحريضه لباقي بقيلته محاربا بجانب الامام عبد العزيز ولكن كلمة العوني هذه وان كانت ترضي الامام فانها لاترضي ابن هذال الامر الذى جعله يحقد على العوني ولذلك عندما وقع بين يديه اسيرا قال ابن هذال للعوني لن اعفو عنك الا اذا اعطيتني عهدا الله بأن تحتلم مني بعرق ابن سعدون الذى كسبته منه في المعركة التي اسرتك بها وتسلمه بيدك للامير سعدون بن سعدون فتعهد العوني لابن هذال بذلك ، فكان سرور ابن هذال كبيرا ظانا ان العوني سوف يحتلم بعرق ابن سعدون على الحالة التي عليها البعرق اى ((منشورا)) وعملا كهذا فيه منتهى الاهانة لابن سعدون لان العوني في حمله لبعرق ابن سعدون ((منشورا منشورا)) سوف يمر في طريقه في الصحراء الى اكثر من قبيله فينظر رجال تلك القبائل لبعرق ابن سعدون قائدا به العوني من ابن هذال .

ولما كان نزع البعرق من اصحابه اكبر دليل على هزيمة المنزوع منه وعلى انتصار النازع له فقد اراد ابن هذال ان يصل الى هذه النتيجة عندما اخذ من العوني عهدا بحمل البعرق من عنده الى ان يسلمه ابن سعدون مقابل العفو عنه ، ولكن العوني كان على جانب كبير من الدهاء والمكر فهو تعهد لابن هذال بذلك لينجو من القتل ، ووفي بما تعهد به ولكن ليس على الصورة التي اراد ها ابن هذال ، وذلك ان العوني استلم البعرق من ابن هذال ((منشورا ، وحمله وهو فوق راحلته منشورا ، أي عندما ذهب مغادرا لابن هذال ، ولكنه ما ان تجاوز المكان الذى ابعد به عن الموقع الذى فيه

ابن هذال بصورة لا يراه فيها حتى اناخ راحلته وحطم عصا الثمرى وحمله مطويـــا ووضعه في خرجه ، الى ان وصل ابن سعدون وراح يقص عليه ما دار بينه وبيـــن ابن هذال مؤكدا لابن سعدون قوله :ان ابن هذال في منتهى البساطة لان من بساطته انه يريد لأن تقتلني يا سعدون حينما آتي ببيرقك منشورا مارا به على جميـــع رجال القبائل التي يكون طريقي عليهم حتى اذا سألني سائل ما هذا البيرق ؟؟ اجيبه بان هذا البيرق ابن سعدون الذى اغتاله ابن هذال . .الخ . فسر ابن سعـــدون من الطريقة التي اتخذها العوني في خدعته لابن هذال .

جلد العوني وعدم قنوطه وقوة يأسه وعدم يأسه

الذى سمع أو قرأ قصيدة العوني المسماة بالتوبة كما أقرأ القصائد الاخـــرى التي قالها يسجنه تلك التي كلها رجوع الى الله يعتقد جازما ان هذا الشيخ المســن يئس من الحياة واستولى على قلبه القنوط وبات منهوك القوى غائر الاعصاب ،وهذا ما ينتظر من رجل ذبل لحمه ، ونحل عظمه ،وابيض شعره ، ونضب ماء عينه ،ولكن الـــــذى يعد وان للعوني قلبا يختلف كثيرا عن قلوب بني البشر العاديين قلب نحت من الصخر المذكر .

واذا كان عدم اليأس والقنوط من ابرز علامات الشجاعة فان للعوني قلبا لا يعرف اليأس ولا يؤمن بالاستكانة ولا يجد القنوط أى منفذ يتخلل منه الى قلبه الكبير العنيـــف المتمرد الذى يبني من الخيال اما لا قصوى ومن الوهم اماني يجترها ويسعد بها .

ولعل اوضح دليل يشهد على متانة اعصاب هذا الرجل وقوة بأسه وصلابته التي لا حدود لها هو ما يجدر بي أن ارويه عن الاخوين الصادقين محسن بن عقيل وذعار النافع اللذين ادخل في سجن الاحساء هذا وعدد من رفاقهما الذين من نفس مدينة حائل كمطلق المبارك ((ابو فرنيه)) وعبد الرحمن الحوطي وجميعش بن سقيان الخ ادخل هؤلاء النوفي سجن الاحساء بامر من الامير عبد الله بن جلوي وذلك لسبب لم يكن سياسيا وانما هو لانهم تأخروا عن تأدية صلاة الجمعة .

حدثني ذعار اولا ، ثم التقيت بالاخ محسن العقيل بصفته مع الذين ادخلوا السجن في الغرفة التي فيها العوني وسألت محسنا عما حدثني فيه الاخ ذعار فراح يروي لي الحديث نفسه الذي هو صورة طبق الاصل عن رواية ذعار الاتية يقول ذعار: عندما ادخلنا على العوني بغرفته التي سجن فيها كان نظره وقتها على وشك ان يفقده الامر الذي جعله لا يستطيع ان يعرفنا على الرغم من انه يعرفنا جيدا واحد واحدا (١) ويمضي ذعار فيقول : بدأ لنا ان في نفس العوني حديثا يريد أن يبوح به لنا ولكنه لم يكن واثقا اننا كلنا رفاقه الشامرة الذين تعرفه ويعرفنا ، ولكي يطمئن عما اذا كان بيننا غريب ام لا قال :

س — من هذا الذي معكم — الذي لم يسبق لي به معرفة عرفوني به ؟ ؟

ج — نعم انا عبد الرحمن الحوطي

س — ومن الذي جالس بجانبك ؟ ؟

ج — هذا مطلق المبارك ((أبو فرنيه)) والذي جنبه جميعش السقيان ، وجنب جميعش ذعار النافع .

---

(١) جميع هؤلاء الذين ادخلوا على العوني بسجنه هم اولئك الموالي الذين خالفوا العوني برأيه عندما كانوا في الخوف ماعدا محسن انظر صفحة

س — ومن الذى جنب ذعار .

ج — بحسن العقيل ، من جماعتنا ومن حائل وانت لماذا تسأل هذا السؤال فاذا كان عندك حديث تحدث به .

س — البساط احمدى لـ(١)

ج — نعم الجماعة محفوظة(٢) احنا ربعك بخويطنا(٣) لم يشاركنا اى شخص لسم يكن هذا .

س — هل سمعتم شيئا عن مصطفى كمال وانتصاراته على الانجليز ؟ ؟ .

ج — لم نسمع ولم نعرف شيئا عن مصطفى كمال .

س — لقد سمعت انه انتصر على الانجليز ولا زال سائرا يتقدم من انتصار الى انتصار وسمعت انه طهر بلاده تركيا من الانجليز وجاء بجيشه الى اطراف البلاد العربية وسمعت انه احتل الموصل الم تسمعوا شيئا عن هذه الاخبار انطيبة .

ج — لا نعلم شيئا من ذلك ، ثم انبرى عبد الرحمن الحوطي وقال : وبش(٤) يهمنا من مصطفى كمال وفتوحاته ومن هو هذا المسمى مصطفى كمال .

س — الا تعلمون اننا كنا حلفاء للاتراك الى اخر لحظة سقطت بها حائل وان عجمي بن سعدون يقاتل الآن بجانب مصطفى كمال وان انتصار الاتراك يعتبر انتصارا لنا وهو الامل الوحيد ومصطفى كمال هذا ضابط شجاع يريد ان يعيد الى تركيا

---

(١) البساط الاحمدى : يعني هل اكون باماننا فيما باذا كنتم وحدكم .

(٢) محفوظة : نعني عسة لم يشاركنا احد .

(٣) بخويطنا : اى كلنا رفاقك .

(٤) وبش يهمنا : اى ماذا يهمنا .

عزما وسجدها واذا اعتزت تركيا اعتزينا احنا جميعا الخ . .

انظر الى هذا الشيخ الذى بلغ من السن عتيا ، وتقلص بصره ووهن عظمه وتجعد وجهه وهزل جسمه ولكن شيئا واحدا ظل باقيا صلبا لم يعتره اى ضعف الا وهو قلبه الذى لا يلين على الرغم مما يعاني من الاسى ووحشة السجن الذى يلين له الحديد ذلك السجن الذى كما وصفه بعجز بيت من قصيدته التوبة عندما قال اظلم ولا ادرس عن ظلامه وليله اجل انظر الى هذا الشيخ السجين الذى لديه همة وامال وتمرح الشاب الثائر لا الشاب الهزيل الخامل . انظر اليه واصدر حكمك عليه فيما بعد اهل هو جبان كما يشاع عنه ويذاع ؟ ؟ ام ان لديه ارادة تفتل الحديد وعزيمة اشمى من السيف وهمة تناطح السحاب وقلبا اصلب من الفولاذ .

يثبت العوني أنه شجاع

هذا وانه ليطيب لي أن اورد في هذا البحث قصة تثبت ان هذه الدعاية الشائعة عن جبن العوني طارت وملأت الاجواء الى ان وصلت الى العوني نفسه كما ان القصة التي سمعت بعض بدى تعبر تعبيرا واضح المعالم ان العوني كان يعاني في كيانه مركب نقص كبير من أثر هذه الدعاية واليك خلاصة القصة .

عندما فزا الامير سعود بن رشيد الجوف تلك الغزوة التي مر بنا ذكرها التقى وهو في سبيله فازيا بالفارس العجمي المشهور ناصر بن سرحان ، ويرافق بن سرحان

ثلاثة شبان من شجعان قبيلته هم غانم بن جمران وماجد بن فائز وثالث لم أحظ بأسمه ان غزوة ابن رشيد هذه لمدينة الجوف مغامرة انتحارية دفعه اليها نجدة رجاء ابن مويشير ، ومغامرة كهذه لم يكن فيها غنيمة يحرص بدوي كابن سرحان ورفاقه عليها ، ومن اوضح الادلة على ذلك هو ان تلك الغزوة لم يشارك ابن رشيد اي فارس بدوي من قبيلته شعر وذلك عندما كانت الغزوة في مرحلتها الاولى لان البدوي بطبيعته لا يرغب ان يساهم بغزوة كهذه لم يكن الا كما يقال ((نادر وجدار)) اي انها غزوة على بندقة الجوف لا على بادية ينهب البدوي الفارس ابلا أو غنما ومن ثم يعود الى أهله وافر الحظ بغنيمته .

اما اذا اساهم فرسان شعر في آخر هذه الغزوة فانما كان مجيئهم بقصد منه ان يفكوا الحصار عن اميرهم الذي طوقه الشيخ نواف الشعلان وشدد عليه الحصار .

واذا كنت اسهب في الحديث عن مقدمة هذه القصة فان غايتي من ذلك ان اثبت ما نقلته عن الراوي الذي هو الاخ غانم بن جمران العجمي ، بان ابن سرحان ورفاقه لم يرغبوا مشاركة ابن رشيد بغزوته هذه لولا ان الحدقة وحدها حكمت عليهم .

وهكذا امضى ابن سرحان ورفاقه بصحبة الامير الغازي .

وقد مر بنا الحديث الموجز عن غزوة ابن رشيد هذه للجوف ولذلك لا ارى داعيا الى تكرار الماضي ، وانما أود ان اصل الى جوهر القصة ذات الصلة المباشرة بصاحب الترجمة وهي قصة كانت الرواية فيها مضطربة ، وما زادها اضطرابا ، هو أن احد

الاطراف فيها الذى هو الفارس ابن سرحان ، يقال انه يعترف بقسم قليل من جوهر القصة اعترافا يجعل القصة مشلولة أى انه لا يعترف بها كاملة بتفاصيلها .

لا ادرى أهو ناسيا او متناسيا علما بانني وان التقيت به كثيرا فانني لم أسأله عن القصة بصفته لا زال على قيد الحياة ، واما احد الاطراف الذى هو العوني فانه ميت ، والرجل الذى سبق ان لم تخنه الذاكرة انني سمعتها منه عبد الكريم الزيد هذا الثالث توفي ايضا منذ ثلاث سنوات .

والوحيد الذى يرويها وهو لا زال على قيد الحياة وهو من بقية الرجال الذين ساهموا مع مسعود بن رشيد في تلك الغزوة الانتحارية ، هو الاخ فيصل الرشيد ولكن رواية الاخ فيصل بالنسبة لمن يريد ان يحقق سوف يجد الذى يهوى المعارضة او تفنيد الرواية يجد فيها مجالا يدخل منه وذلك للسببين الاتيين :

أولا : والاهم ان احد الاطراف الذى وقعت عليه الحادثة لا يعترف اعترافا كاملا بالرواية التي سمعتها من فيصل الرشيد .

ثانيا : فيصل نفسه لم يعترف انه كان شاهد عيان .

كل من هذين السببين يجعلان رواية الاخ فيصل لا تبلغ عند المحقق المكانة التي تبلغها رواية الاخ غانم بن جمران ، وذلك للاسباب الاتية :

آ — منها ان ابن جمران يروى الحادثة وهو شاهد عيان .

ب — ومنها ان الجمران يرويها بتفاصيلها على الصورة التي شاهدها والتي تجعل القارئ لا يعتريه ادنى شك بصحتها لان تسلسل القصة التي يوردها الراوى تثبت صحة روايته اثباتا قاطعا .

ج — ومنها أو أهم ما في الموضوع ان الراوي الراوي ليس ثقة فحسب بل يكون ابن عم للفارس ناصر بن سرحان أي أن راوي الحادثة والشاهد بها من صلب قبيلة ابن سرحان اعني انه عجمي لحما ودما ، والامر الذي يجعل لرواية القصة مكانة من الصحة لا يرقى الشك الى صحتها حتى لو انكرها ابن سرحان او اصر على عدم الاعتراف بها .

شهد شاهد من أهلهـــا

والقصة التي نقلتها عن غانم بن جمران الذي كنا سبق ان ذكرنا انه احد رفاق ابن سرحان ومن بني قبيلته وشهادته مقبولة لانه يروي القصة بمساطة بعيدة عن التحيز . اذ لو اراد ان يتحيز لكان الاولى به ان يتحيز لابن عمه ورفيقه في تلك الغزوة ، وهاك خلاصة القصة التي شهد بها شاهد من اهلها على الوجه الاتي :

يقول ابن جمران : عندما كنا مطوقين في مدينة سكاك التي قسم منها محتشد فيه ابن شعلان ورجاله الذين يفوقوننا عددا وعدة وقسم آخر في حوزة اميرنا سعود بن رشيد ورد الينا نبأ يفيد ان هناك فارس من قوم ابن شعلان يتخلل في غلس من الليل ويأتي الى سكان سكاك ينقل الاخبار التي يأتي بها من والي ابن شعلان واهل سكاك .

فقرر الامير ابن رشيد أن يبعث فرسانا يقتطون جيادا سباقات ليطرحوا الفارس

او ليقتلوه ، فانتدب لهذه المهمة الفارس ناصر بن سرحان والفارس سويلم الشعلان[1] ، اما ناصر فانه امتطى فرس سليمان العنبر التي تعتبر من أصل واسبق خيل الامير اما سويلم فانه ركب حصانه الذي دون الجواد التي امتطاها ابن سرحان جريا فذهب الفارسان وتواريا ليلا عن الاعيان متربصان بفارس ابن شعلان ليقتضا منه ، وهناك جاء الفارس كعادته ، فهجم عليه الفارسان ناصر وسويلم وكانت جواد ناصر كما ذكرت اسرع جريا من حصان سويلم ، الامر الذي مكنه من ان يفسح فرصة بعد تيته في ظهر فارس ابن شعلان ، الا أنه اخطأ الهدف واصاب فرس العدو بمقتل ارتمت من فورها ارضا فاقدة الحياة وفي نفس هذه اللحظة المفاجئة هرب فارس ابن شعلان جريا على اقدامه فعاد ابن سرحان حاملا سرج الفرس وعنانها مبتهجا للامير انه رمى العدو وقتل فرسه ، ومن ثم ذهب ناصر يمدح شجاعة رفيقه الفارس سويلم ، وبعد مدحه قال ان هذا الفارس من الخطأ ان لا يكون راكبا جوادا اصيلا سباقة ، ثم اضاف قائلا للامير لماذا لا تعطون سويلم الشعلان فرس العوني[2] ، التي لا يركبها صاحبها ولا يغير عليها ، فسكت الامير دون أن يجيب ابن سرحان وكان يسمع هذا الحديث ابن عم الامير محمد الطلال الذي يكون العوني دائما في حضرة آل طلال ، فذهب الفتى محمد وتحدث حديثا عابرا عما قاله ابن سرحان في تلك الليلة وحالما سمع العوني هذا الحديث اضمر الانتقام من ابن سرحان

---

(١) انظر كتاب " من شيم العرب " جزء ٣ ص ٢٠٤ تجد اسم سويلم الشعلان .

(٢) فرس العوني المسماة البسيمة جاءت اليه هبة من عجمي السعدون ، والبهة كانت لام الفرس ، اما البسيمه فانها مهرة ولدة عند العوني واصلها "مطلاوية" .

وفي صباح الغد جاء العوني واضعا طرف عمامته على متنه الايمن ومسكا بيده عصا وفي الحين الذى كان الفارس ابن سرحان متكئ على الشداد ، عندئذ باغته وذهب يضربه بذلك العصا بالرقيق ، وهناك قام ابن سرحان وامسك بلحية العوني واجتز طنها شعرا وقد استطاع الحاضرون ان يحجزا الاثنان ، هذا وكان الامير سعود داخلا من فرقة مجاورة لذلك النادى الذى حصل فيه الاشتباك بين العوني وابن سرحان ، فذهب العوني الى الامير بغرفته ، وقال له ، هذا ناصر بن سرحان اجنبي عندك وانا اجنبي فاود منك أن تسمح لنا انا وهو ان نتبارز في هذه الارض الفسيحة الخ .

وطبعا لم يوافق الامير على طلب العوني ، يقول الراوى [1] ان احد حاشية الامير قال كلم لم يسمعها العوني ، وهي ((اردى لك)) اى اسوى لحظك بالعوني فيما اذا بارزت فارسا مدربا ومشهورا كابن سرحان ، والذى قال هذه الكلمة على حد رواية الراوى xxxxxxx هو ضيف الشجاع المشهور ويقول الراوى ان ضيفا قال لابن سرحان قاصدا تهدئته : الحق عليك انت يا ((ابو كروز)) .

والسؤال الذى يطرح نفسه هو ، لو سلمنا جدلا ان الامير اراد ان يتخلص من العوني ووافق على طلبه في مبارزة ابن سرحان فهل يتراجع العوني ويعترف على نفسه بالجبن امام سرب يقدم على مبارزة ابن سرحان حتى ولو وثق ان هذا الفارس المجرب الذى سبق ان قتل اكثر من فارس من الفرسان الذين بارزوه وفي مقدمتهم

---

(١) نقل لنا الراوى تفاصيل هذه القصة امام الامير سعود بن هذلول في منزله الصيفي في الزبداني وذلك في ٧ رجب ١٣٩٣ يوافق ٥ اغسطس آب ١٩٧٣ .

فارس مطير فرحان ابن زربيان ؟ الجواب المحتمل بدون شك ان العوني سوف لا ولن يتراجع من موقفه الا اذا كان ابو الطيب المتنبي تراجع عن كرته عندما هرب في بداية الامر من فرسان العدو ثم قال له عبده البيت القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم .

فما كان من المتنبي الا ان كر على الفرسان كرة انتحارية واثقا ان مصيره القتل لا محالة ولكنه فضل ان يموت شجاعا حال ان يسخر منه عبده ويعيش جبانا .

وهكذا العوني لن يتأخر قطعيا من خوض مبارزة ابن سرحان بعد ان طلبها ولو وثق أنه مقتول لا محالة .

واذا سبق ان قلت في مقدمة هذا البحث بان العوني يشعر ولا شك بمركب النقص الذي يعتريه من تلك الدعابة ، فان موقفه من ابن سرحان يعبر تعبيرا صادقا عن احساسه بمركب النقص لان الاسلوب الذي اتخذه العوني المعروف بهدوئه ورزانته ومتانة اعصابه لا يحتمل أن يقوم به الا احمق ارعن ، ولكن مركب النقص جعل العوني يفقد اتزانه ، ومصدر مركب النقص هذا جاء من كون الذي قال هذه العبارة اي طلب فرسه ليركبها فارس غيره ، مركب النقص الذي اقلقه وافقده رشده ان القائل لهذه الجملة فارس ذائع الصيت وله من الشهرة بالفروسية القدر الذي قل ان يباريه فيها الا الافذاذ من فرسان الجزيرة العربية فمركب النقص عند العوني حفزه على ان يقوم بعمل يحاول ان يذل به هذا الفارس ولو كان عمله هذا فيه منتهى الحماقة بل والغدر ، لانه فاجأ ابن سرحان وهو غافل عنه .

وبعد فانني اعتقد ان القارئ ليس بحاجة بأن أوكد له بعد هذه الادلة الواقعية بان الاشاعة التي تنسب من العوني بأنه جبان انما هي اشاعة باطلة مختلقة روجها عليه اعداؤه وحساده ، فشاعت وملأت الافاق ، وما اصعب مفعول الدعاية اذا انتشرت وتواترت بين الجماهير ومن الدعاية الرائجة والذائعة عما يقال عن جبن العوني تلك التي يقال ان للعوني شقيقا يدعى حمد وحمد هذا يزعم الزاعمون انه فارس مغوار وانه ذات يوم صار بينه وبين اخيه مناظرة جاءت على الوجه الاتي :

قال حمد يقصد أخاه العوني ، انا اشجع فارس واشجع منك .

فأجابه العوني قائلا : بل انا اشجع منك لانك اذا اسرفت في شجاعتك لن تقتل الا فارسا او فارسين اما انا فانني اقتلى من الفرسان بالمائات وبالالوف بقصيدة احرض فيها المقاتلين فيلتقي الجمعان فيتساقط الجثث القتلى وانا جالس في مكاني دون ان اشترك في المعركة .

هذه الرواية من جملة الروايات التي تشاع وتذاع بغية اثبات الاذلة عن جبن العوني ولكن لو وجهت لاى راحد يشيع هذه الدعاية الجملة الاتية :

من هو حمد شقيق العوني ؟ واين كان وماهي حياته ؟ واين ولد واين مات وهل هناك حقيقة أن للعوني شقيقا فارسا اسمه حمد ؟ ؟ .

اقول لو القيت هذه الاسئلة على مشيعي هذه الدعاية لما جاء الجواب الا عدم معرفة اى شخص فارس اسمه حمد — الا عندما يقال ، حمد اخو العوني فالرجل

الذى لا يعرف الا بأخيه ان صحت الرواية ايجدر به ان يناظر أخاه باى معنى من معاني الرجولة ، مادام انه لا يعرف له اسم بالتاريخ الا عندما يقرن اسمه باسم اخيه العوني .

بعد ان اوردنا الادلة الناصعة التي تفند ما يقال عن العوني من الجبن يبقى علينا أن نجيب على السؤال الاخير الاتي :

هل الميزة التي برز فيها العوني هي الشعر ام الدهاء والسياسة ؟ ؟

كانت الميزة البارزة للعوني الشعر ، ولم يعرف عنه في اول حياته الا أنه شاعر فقط ، وحتى الميزة التي برز فيها كشاعر حماسي مهيج هذه الميزة لم يعرف بها الا عندما انشد قصيدته المسماة بالخلوج ، عندئذ لمع اسمه من بين شعراء نجد وعرف بأنه ابرز شاعر في الحماسة والتحريض ، وهكذا ظلت مواهبه البارزة محصورة على انه شاعر مبدع بالحماسة فقط ، اما انه عرف بسداد الرأى وبعد النظر وبالافق الواسع والرأى الصائب الذى جعله يتصدر المجالس عند الحكام ، هذه الميزة لم تعرف عن العوني الا عندما جاءت المناسبة الاتية :

سبق أن قلنا أن الشيخ مبارك الصباح لم يكن حريصا على معاداة ابن رشيد ومحاربته بل كان يرغب دائما بالمسالمة . واكبر شيء يهمه هو ان يظل كما كان حاكما لبلده الكويت ، وان لا يعرض بلاده وامرأته للخطر والمغامرات التي لا يعلم ماذا تكون نتائجها .

ولذلك نجده ذهب يرسل رسله لابن رشيد طالبا مصالحته ومسالمته ، وكان الامير ولتذاك عبد العزيز المتعب ، الذى لبى هذا الطلب وتمت شروط السلم بين الصباح

والرشيد بشرط من الثاني بالا يكون للاجئين السياسيين نشاط سياسي في الكويت ، فقبل الفريق الاول هذا الشرط على مضض . وذلك انه كان في الكويت قوم من زعماء نجد الاقدمين ونفر آخر من الثائرين المعارضين الذين يروق لنفوسهم معارضة الحاكم المستبد بأي ثمن يكون . وفي طليعة هؤلاء المعارضين الناقمين الذين لا ناقة لهم فيها ولا جمل شاعرنا العوني الذي جلبت شيمته على محاربة القوى الجبارة .

والقائد لهؤلاء اللاجئين السياسيين هو الامام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود وكان ابنه عبد العزيز وقتذاك لا زال في شرخ شبابه مجهولة مواهبه .

تجمع هؤلاء المعارضون في الكويت ثم غزو بقيادة عبد الرحمن الفيصل وابنه الشاب عبد العزيز ، غزوا قبيلة عتيبه ثم عادوا فائزين بالغنيمة ، فبلغ خبر هذه الغزوة ابن رشيد ، فبعث مندوبا من قبله يهدد ابن صباح بنقض المعاهدة ان تكررت امثال هذه الغزوة ، ويطلب منه ان يبعد اللاجئين السياسيين عن بلاده فان لم يفعل فمعناه ان ذلك سيكون نقضا للمعاهدة وقد اكد ابن رشيد لابن صباح بالا يعود الرسول المنتدب الا بواحدة من اثنتين .

ولم يكن لدى ابن صباح من الامر الا ان اعطى عهدا لابن رشيد بانه سوف يبعد اللاجئين السياسيين الخطيرين عن بلاده . وعلى رأسهم طبعا الامام عبد الرحمن بن فيصل بن سعود .

ولما كان الشيخ مبارك من دهاة العرب الذين لا يدخلون انفسهم في مأزق حتى يعرفون كيف يخرجون منه استطاع بحنكته ودهائه ان يجد له مخرجا يقيه وصمة عار

تكثه لعهده لابن رشيد . كما يقيه لوم اللائمون له بطرده لضيوفه المستجيرين به .

وهذا المخرج هو انه شجع الامام عبد الرحمن الفيصل ومن معه من القوم على ان يستمروا بغزواتهم هذه وجهزهم بالعتاد الحربي وارفد عليهم المؤونه الغذائية . وكان وراء هـــذه الخطة طريقة اخرى اتضحت فيما بعد .

خرج الامام عبد الرحمن من الكويت غازيا . وناويا بأن يكسب ويغنم بغزوته هذه ، ثـــم يعود الى اهله بالكويت سالما غانما . ولكن الشيخ مبارك كان ينوى بالا يعود هذا الغـــازى الى الكويت . وعلى اساس هذه النيه ارسل الشيخ رسله من جانبين : فريق ذهب لابن رشيـــد ليؤكد له وفائه بعهده وبره بوعده وانه اخرج ابن سعود ومن سمح بهجره من اللاجئين السياسيين

اما الفريق الثاني فانه يبلغ الامام عبد الرحمن الفيصل طلب الشيخ مبارك الصباح بـــأن يقبل معذرته ويقدر ظروفه الحرجه مع ابن رشيد فيما اذا حكمت عليه هذه الظروف السياســـه بأن يقول له الا يعود الى الكويت ما دامت الحالة هذه متأزمة بينه وبين ابن رشيد الى الحيـــن الذى يأمر الله به ان تتبدل الحال هذه الى حال احسن منها حاليا .

دهش الامام عبد الرحمن من هذا الخبر المفاجيء . وعندها انتدب نخبة من مفكرى قومه الغزاة وشرح لهم ماتضمنت الرسالة التي جاء بها رسل الشيخ مبارك . وطلب منهـــم أن يبدى كل منهم رأيه الذى يراه في حل هذه الازمة . فماذا سيكون الرأى يا ترى ؟ . . الســـر كله لابن رشيد والبحر الذى يملك مقوده ابن صباح تعذرت عودتهم اليه ، ما الرأى يا قوم ؟ . . اختلفت الاراء وتباينت المفاهيم . وربما اوشك ان يتعذر سبيل الرأى السديد المنجي للجميـــع ولكنه يوجد شاب بين هؤلاء القوم قد تجاوز السادسة والعشرين ولم يبلغ الثلاثين سعد .

هذا الشاب عرف انه شاعر فحسب ، ولم يلمع اسمه بعد كسياسي بعيد الغور وداهية ضليع الفكر . بل ولم يلمع اسمه كشاعر مطبوع رائع الصيت الا انها بعد .

وهذا الشاب تبدو عليه البساطة والبلاهة احيانا التي غالبا ما يصطنعها ويتعمدها كما قال في بيتين له :

اتدبيح وانا ماني بدبوجـــــه	وأسفه العلم كأني ما تمعنس به
والمثاقل بصدري تقل منسوجـــه	افتح الرأى الى منه غلق بابه

هذا الشاب الذى يقول في البيت الاول انني اتباله وانا لست البلها واعطي جنبا من الحكمة والادب كأني لا افهم شيئا من هذه المعاني . ولكنه يستدرك في البيت الثاني ويقول : ان الامثال الادبية والحكم المفيدة . كل هذه المعاني كأنها في فؤادى مطبوعة ومنسوجة نسجا طبيعيا . ثم تجده في المصراع الاخير يقول : افتح الرأى الى منه غلق بابه " الى " كما ذكرنا سابقا يستعملها الشعراء الشعبيون بمعنى اذا — اى اذا تأزمت الامور فانه سيجد سهلا لحل المعضلات هذا هو العوني الذى فتح لقومه الحائرين الباب على مصراعيه ، لقد فتحه برأيه السديد وظل قومه الغزاة داخلين لهذا الباب من ذلك التاريخ الى هذا اليوم . فاهرني وعيك ايها القارئ لا رافيك برأيه الحكيم المتلخص بالمعاني الاتية :

نحن الان بهذه الصحراء اصبحنا فاقدين لكل شيء لا اهل ولا مأوى ، ولا سكن ، واننا لمهددون بكل كارثة من كوارث الزمان مهددون بالجوع ، ومهددون بالعرى ، ومهددون بالتشريد وتشتيت الشمل ، ثم قهر العدو وقتله لنا . كل هذه المعاني مهددون بها لا محالة ، فيما اذا فقدنا ناصر بالعدة ، التي لا مخرج لنا الان الا بالتماسها ، ثم سكت العوني هنيئا ، فصاح به القوم بلسان واحد :

لماذا سكت اخبرنا بهذه الناحية التي تشير اليها .

العوني : لقد سكت راجيا ان تجمعوا برايكم سويا على العمل بها كما اجمعتم بنطقكم هذا وسؤالكم اياي عنها .

الامام عبدالرحمن : لاشك باننا مجمعون على العمل بكل شيء يبدو لنا ان فيه نجاة ومخرجا معا نحن به من مأزق خرج ويسير سير .

العوني : اذن فالمسألة التي اراها ولا سلامة لكم الا بالاخذ بها يجب ان يتقمص كل فرد منا بردائها واعني بها الشجاعة والاقدام . اي ان نظل في سبيلنا غزاة متمردين على حاكمهم البحراين رشيد وغير معتمدين على حاكم البحراين صباح . ومن ثم نسير في سبيلنا كما كنا غزاة . فنصب غارتنا على أية قبيلة من القبائل . فاذا فتشنا مواشي هذه القبيلة ، عند ذلك نعود الى الكويت فندعو ابن صباح ونجعله امام امر واقع مع ابن رشيد فابن رشيد لابد له الا ان يغضب على ابن صباح ويعتبره ماكرا وناكثا للعهد ونحن بعدما نأتي لابن صباح لا يبوح واحد منا بالسر . واياكم ان يفهم ، أن قد ومنا هذا للكويت هو ان نوقع بينه وبين ابن رشيد المفسدة ، لا ، لا يسمع ابن صباح من احد منكم هذه الفكرة لانه اذا علم ذلك لاتعلم ماذا يتخذ من التدابير التي ينقض بها ما ابرمنا .

قال احد القوم : وماذا يكون عذرنا لابن صباح اذا جئنا اليه الان وهو قد ارسل رسله يبلغوننا امره بالا نعود الى الكويت ؟ .

العوني : نأتي اليه بعذر معقول فنقول : اننا ذهبنا من بلادك ، وكل فرد منا لايخلو من ان يكون له مشكلة تضطره الى ان يعود للكويت . فمنا من له عائلة يريد اما ان يؤمن معيشتها ، او يرحل بها الى المكان الذي يقصد الاستقرار به . ومنا من له دين فيريد ان يستوفي دينه ، ومنا من عليه دين يريد بأن يسدد ما عليه . وعلى اساس هذه الحجة المعقولة نستطيع بأن

نقنع ابن صباح وندينه منطقيا قائلين له : انك لم تبلغنا الامر الا بعد ما خرجنا من عندك ، ولو اخبرتنا ونحن في الكويت لما خرجنا حتى انهينا كل ما هو لنا وما هو علينا ، ولكنا ذهبنا من عندك على اساس اننا غزاة فجهزتنا انت بالمال والعتاد . وكل ما نعتقده باننا سوف نعود اليك فاتحين منتصرين كما ترى ، ونحن بهذا الاسلوب نكون قد اضطررنا ابن صباح على ان يقبل عذرنا مرغما . وحيث ان ابن صباح عربي ويفهم عادات العرب فانه لا يستطيع ان يطردنا بل سوف يتجرع مرارة الصبر ويتركنا وشأننا في الكويت ، حتى نبتاع غنائمنا ونقضي ما لنا وما علينا ومن ثم نتحول من مدينة الكويت " مؤقتة تكفينا مدة اطول من الاولى ونغزو في سبيلنا هذا احد القبائل التي في ذمة ابن رشيد . وفي خلال هذه المدة التي نقضيها الان بين غزوتنا هذه وبين عودتنا للكويت واقامتنا فيه . وبين غزوتنا الثانية وكسبنا الناشئة من احدى القبائل وتفكيرنا بالمصير النهائي لابد بأن يفرجها الله لنا فرجا يكون من نتائجه ان نرى ابن صباح الذي احب ما عليه فراقنا اليوم ، سنكون بالغد احب ما عليه قلبه عودتنا اليه ولسوف يخطب ودنا ما استطاع ان شاء الله ، بعد نجاح هذه الخطة الموفقة .

الامام عبدالرحمن : بورك فيك يا العوني : ان رأيك هذا هو الرأي الصائب . ولقد فهمت ما تشير اليه بقولك " ولابد بأن يفرجها الله فرجا يكون من نتائجه الخ . . . اتقصد بانه خلال فترة غزوتنا هذه وعودتنا للكويت وغزوتنا الثانية لابد بأن يفرغ صبر ابن رشيد ويعتبر ان ابن صباح مخادعا ماكرا وناكثا بعهده وغير صادق بوعده فيأخذه طيش الغضب على ابن صباح ومن ثم يعلن الحرب عليه . وفي حالة اعلان الحرب عليه سوف يضطر ابن صباح لا محالة بأن يسترضينا ولا يسمح لنا بالخروج من بلدته فيما اذا كنا بالكويت . بل سوف ينقب عنا اينما كنا برسله حتى يجدنا ويسترحمنا بأن نعود عليه في الحالة التي نكون بها هناك قد خرجنا غزاة في سبيلنا نحو خطتنا المرسومة .

العوني : نعم اطال الله عمرك هكذا . اقصد كما اننا بغزواتنا هذه سوف يختل الامن على ابن رشيد ومن في نفسه ما فيها من نقمة وعداء ، سوف يتمرد عليه وينضم الى قوتنا ، فلكذلك حينذاك قوة ترهب العدو وتجعل لنا حرمه وتقدير في نفس ابن صباح في الحين الذي يعلن ابن رشيد عليه الحرب فانه لا يستطيع بان يقف بوجه ابن رشيد موقف الند للند . بدون ان نكون نحن بجانبه .

الامام والقوم جميعا هللوا وكبروا مؤيدين لرأي العوني ومنفذين لع بايمان صادق — وعزيمة راسخة .

هذا وقد مضى القوم في سبيلهم وادلجوا سيرهم حتى صبوا غارتهم على قبيلة قحطان

وهذا العوني يؤكد هذه الغزوة ويصفها كبطل من ابطالها وذلك في ملحمته التاريخية التي المحت اليها سابقا فيقول :

وصلة على قحطان وخلى دراهم ... قوم دعا والى السما بذهابها

تشهد خشوم النمر باللي شاهدت ... يوم على سمك العجاج هضابها

هنا نجد العوني يصف الغزوة هذه في البيت الاول وصفا بليغا مشيرا بوصفه ان قائدهم غزا قبيلة قحطان وغنم مواشيها وقوله " صله على قحطان " اى، صب غارته على قبيلة قحطان .

وفي البيت الثاني نجده يصف المكان بشكل يخالف ما ذكره الاستاذ الريحاني[1] فالعوني على كل حال رجل من رحال هذه الغزوة شاهدها ورآها ، اما الريحاني فهو راوي . وكما ورد في المثل ليس من سمع كمن رأى . وهنا نجد ان العوني يؤكد لملحمته البائية التي هي مرجع من مراجع تاريخنا القومي بان هذه الغزوة كانت بموقع قريب من جبل النمر .

---

(١) قال الاستاذ الريحاني في كتابه تاريخ نجد الحديث صفحة ١١٧ ما نصه :
خرج عبد الرحمن بجيش من الكويت واغار على عشائر قحطان في روضة سدير . اما الشيخ مبارك فكان قد رمى شبكتين في بحر السياسة دافعا للحرب واستعداد لها . اذ ارسل لابن رشيد يفاوضه بالصلح واستمر الريحاني الى ان قال :

عاد عبد الرحمن الفيصل بغزاته وغنائمه الى الكويت. فدهش الامير مبارك من مجيء هؤلاء الغزاة. وكان العذر السالف الذكر هو الحجة البالغة والمنطق الوحيد الذى يلتهج به كل فرد من افراد الغزاة. لقد صبر الشيخ مبارك على مضض حتى سدد الغزاة ديونهم كما يزعمون وقضوا حوائجهم وتمونوا من جديد وخرجوا هذه المرة من الكويت خروج القوم الذين لا يكون العودة اليه الا بحالة ثانية تكون اعز واشرف من عودتهم الماضية. مضى الغزاة في سبيلهم حتى صبوا غارتهم على عشيرة بريه وهي عشيرة من قبيلة مطير بموقع يقال له "ركن مجزل" وهذا العوني يذكر هذه الغزوة ويصفها بملحمته قائلا:

وصله على "نايف" "بركن" "مجزل" نوما وامام المسلمين عدا بهـا

اخذ "بريه" والعراصم خلطهـم خلي منازلهم يطير ترابهـا

"الى صلة" معناه كما اسلفنا الى صب غارته مشيرا على عقيد القوم — "على نايف" يقصد نايف بن بصيص من رؤساء قبيلة مطير وقوله "بركن مجزل" يقصد موقعا من المواقع التي يقطنها قبيلة مطير امام المسلمين يقصد الامام عبد الرحمن الفيصل وابنه عبد العزيز. كلاهما يلقبان بهذا اللقب.

"اخذ بريه" اى اغتنم مواشيهم والعواصم خلطهم — هؤلاء فخذ من قبيلة قحطان.

عاد زعيم الغزاة بعد ذلك يعسكر في اطراف الاحساء كما ذكر ذلك العوني بقوله:

وانكف طن هجـر وخيم جمعـه خيله على هجـر تدوس خصابهـا

وامر على قومه ترد اكسوبهـا وادوا كما دوا عدا جذابهـا

"انكف" اى عاد ورجع يقول: ان زعيم غزاتهم بعد هذه الغنائم التي نالوها بعد ذلك، عاد وبنى خيامه في هجر اى في الاحساء مقدار اسبوع.

وكان الامام عبد الرحمن قد غزا غزوته وقفل راجعا فارسل اليه بأمره بالا يرجع الى الكويت الخ.. الحاصل ان هذه الغزوة كانت قريبة من جبل النير كما وصف ذلك العوني لا كما وصفها الريحاني

وأمر على الغزاة ان يودع كل منهم فتيته عند اهله ويعود اليه بالاحساء ليجدد هذا الزعيم غزوة اخرى واخرى . ولكنه بعد هذه الغزوات اين يرجع ؟ وبأى محل يستقر هذا الغازى . ابظل هائما في سبيله هذا دائما وفي صحرائه مغامرا . لامن بلد يستوطنها ولا من بيت يسكنه هذا خيمته في القيلولة او ظهر مطيته ، او سرج جواده طبعا لم يسكن له ولذاته مسكنا سوى هذه المساكن الثلاث ؟ . .

خرج الغازى وجنوده من الاحساء ولديهم عزم ان يغزو قبيلة اخرى او ليتحروا الفرج من الله بارجاء هذه الصحراء الفسيحة .

ولنترك هؤلاء ينتظرون فرج الله . وان فرجه لمن صبر لقريب وقريب .

ولنعد الى الامير ابن رشيد الذى بلغه خبر ابن سعود انه خرج من الكويت وغزا قبيلة قحطان ثم عاد من غزوته بالنجاح وابتاع غنائمه في مدينة الكويت ، ثم خرج ثانية من الكويت فغزا قبيلة مطير . ولقد سبق له قبل هاتين الغزوتين ان غزا قبيلة عتيبة . ولكنه اكد له ابن صباح واعطاه عهد الله وميثاقه بانه لن يعود لمثلها بل اعلاه بعدا صادقا بانه سوف يخرجه من بلاده الكويت اذن لابد من ان يكون ابن صباح بنظر الامير الرشيدى مخادعا وماكرا وناكثا لعهده وساطلا بوعده .

ولذلك نجد ابن رشيد قد بعث وفدا من عنده ليبلغوا ابن صباح بانه اعلن عليه الحرب، واكد له بأنه لن يثق بعهده بعد ذلك وان لايكون بينه وبينه حكم او معاهدة الا السيف فقط .

ذهب رسل ابن رشيد حاملين هذه الرسالة المفتوحة للشيخ مبارك الصباح . فحلوا ضيوفا عنده وبلغوه ما اوصاهم به امرهم . المقصود انه وقع الحرب بين ابن صباح وابن رشيد وهذه الخطة التي رسمها العوني والتي فكر بها وبذرته التي غرسها قد بدأت فصولها

وازدهرت زهورها وانبعثت ثمراتها .

ولنرجع الى زعيم الغزاة الهائمين بصحرائهم الارض فراشهم والسماء غطاءهم ، ولا رزق لهم ولا قوت الا من كسب سواعدهم بما يفترسونه ليعيشوا .

ها هوذا زعيمهم الامام عبد الرحمن يقود الركب الغازي يقوده في الفلاة ووقت القيلولة قد حان وآن الاوان للغزاة ان ينيخوا ركائبهم ليرتاحوا قليلا حتى تذهب شدة القيلولة ، وليتظللوا تحت الاشجار لبينما يتغدوا وتخمد حرارة الشمس المحرقة بلهيب القيظ . كان هؤلاء الغزاة ينتظرون قائدهم الامام عبد الرحمن بأن ينيخ راحلته ويرتاح قليلا ليرتاحوا جميعا ، ولكن الامام كان شارد الذهن متوقد العزيمة ملتهب الحواس ، لا يحس بلهيب القيظ ولا يشعر بحمو هذه الشمس الكاوية . وانما كان سائرا قدما الى الامام ببعد عن فرقته مقدار كيلو مترا يسوق راحلته بعقب رجله بصورة تكاد رجله الضاربة دائما على متن ذلولته ان تمزق جلد الراحلة وتصل مباشرة الى قلب الذلول ، سابحا بلجة من افكاره ، عائلته في الكويت ، وزلامة آبائه مسلوبة . ومصيره هو وغزاته مجهول .

والى متى وهو ماض في سبيله هذا هائم في صحرائه لا قوة له ولا لغزاته الا من طريق الكسب والنهب ؟ هذا شيء لا يبنى عليه مستقبل مضمون العاقبة الحميدة . وبينما زعيم الغزاة سابح ببحر عميق بافكاره هذه في تلك اللحظة ، يأتيه فرج الله :

يا الامام يا طويل العمر .

الامام : من هذا ؟

رسول من اخيك الشيخ مبارك الصباح حملني هذه الرسالة يأكد علي بالحاح شديد بالا انام الليل ولا اريح نفسي وراحلتي ما استطعت حتى اسلمك هذه الرسالة يدا بيد . وان ابلغك تحياته وسلامه الجزيل وانحاك عن لسانه بأن تعود للكويت انت وغزاتك جميعا

بقدر ما استطاعت من السرعة الممكنة ، لان اخاك مباركا محتاج لك حاجة ماسة . واليك رسالة اخيك التي فيها من الايضاح ما هو كاف وشاف .

فتح الامام رسالة اخيه مبارك واذا هي شاملة لكل معنى من معاني النخوة والاستعطاف والمحبة والولاء وتتضمن المعاني الاتية :

ان ابن رشيد اعلن علينا الحرب . وهذا لا شك بسبب اننا مخلصون لك ومحافظون على اهلك بغيابك فالله الله اسرع علينا بالعودة انت ومن معك من قومك الهواسل الميامين الخ . . جميع القوم لا يعلمون شيئا من حديث صاحب هذه الراحلة ولا من اين اتى .

عبد الرحمن الفيصل : ابن العوني . اتوني به . جاء العوني مسرعا .

الامام عبد الرحمن : لو كان لك دعوة عند الله تود ان تستجاب او امنية ترجو ان تفوز بها ما هي هذه الدعوة او تلك الامنية التي ترجو الله ان تنالها الان .

العوني : لا اتمنى شيئا بالدنيا اعظم واجل من ان اسمع الخبر الذي يؤكد لي به الرواة ان ابن رشيد اعلن الحرب على ابن صباح هذا هو اقصى ما اتمناه . ولم يكن شيء بالدنيا احب على نفسي من ان تتم هذه الامنية .

الامام عبد الرحمن : ابشر فقد تم الامر حسب خطتك المرسومة وآرائك السديدة . وهذه رسالة الشيخ مبارك الصباح يؤكد بها بان ابن رشيد اعلن الحرب عليه . ويرجونا بالحاح على ان نعود اليه بالكويت باسرع وقت ممكن .

العوني : لقد صدق ما تنبأت به ، والفضل يعود بعد الله لك يا طويل العمر الذي اخذت برأيي ونفذته ، كما يعود لرفاقنا الشجعان الذين ثابروا وصبروا . ولو كنت يا طويل العمر حينذاك " دبوجه "[1] لما اخذت برأيي ولا نفذته بل ولربما سخرت به وازدريته ، وكم من رجل

---

(١) الدبوجه هو الغبي الذي لا يفهم .

ورجل يأتي لقومه بآراء سديدة حكيمة . ولكنه لم يكن بين هؤلاء القوم رجال يفقهون ويدركون ويعقلون ما يشير اليه وما يذهب هذا الرأي . فيذهب هو برأيه موضع سخرية وازدراء ومقت عند كل من لم يكن لهم ذلك الافق المنير والعقل الراجح والفكر الحر كافقك الفسيح وعقلك الناضج وفكرك الثاقب . .

هذا وقد عاد الامام عبد الرحمن وقومه الى الكويت عودة كانوا بها مرفوعي الرأس موفوري الكرامة ، بل كانهم جاؤوا فاتحين .

وقد وجدوا الشيخ مبارك الصباح فاتحا لهم قلبه على مصراعيه .

هذه نبذة من آراء العوني السياسية التي قام بها حينما كان بالكويت بجانب الامام عبد الرحمن الفيصل وابنه الشاب آنذاك عبد العزيز ومن تلك اللحظة بات العوني بنظر الحكام ذو رأى سديد وسياسي محنك اكثر منه شاعر ، وان كانت شهرته عند العوام بانه شاعر اكثر منه سياسي .

لا شك بأن المؤرخين لم يغوصوا الى ذكر الاسباب والمسببات التي كان من شأنها ومن نتائجها ان قامت الحرب بين ابن صباح اولا وبين ابن رشيد . ثم امتدت الى أن وقعت والتحمت بين ابن سعود وبين ابن رشيد .

كادت ان تضيع هذه الحادثة من عالم التاريخ

نعم ان المؤرخين لم يذكر الكثير منهم الاسباب الدقيقة كهذه الاسباب . كما انهم لم يذكروا كثيرا من البطولات الخارقة التي يقوم بها افراد نكرات . بل ولم يذكروا شيئا ولو قليلا من الآراء السديدة الحكيمة التي يبديها جنود مجهولون كرأى العوني هذا .

والسبب هو كما ذكرنا سابقا ، هو أن الكثير من الكتاب الذين كتبوا تاريخ بلادنا ، لم يكونوا من صميم الشعب بالمعنى الذى يمكنهم من معرفة افراد الشعب الذى لهم مالهم من نشاط ملحوظ سواء اكانوا من شجعان الرأى او من شجعان الحروب او من ذوى مكارم الاخلاق وسمو المنزلة الاجتماعية . . . نعم لم يكن لكثير من الكتاب الذين كتبوا عن بلادنا شيء من هذه الصفة ولذلك لو تسأل الاحياء منهم عن العوني لما وجدت من يجيبك عنه وعن دوره الخطير الذى لعبه في شتى ميادين السياسة بعصره . بل ولا من يجيبك عن غيره من الابطال ورجال الفكر بذلك العهد . وكل مافي الامر ، ان هذا الكاتب لا يتحدث الا عن نفر او افذاذ من الزعماء البارزين ولو سألت هذا الكاتب ايضا مستفسرا منه عما هو آت ، وهل يمكن ان يبرز زعيم ببطولته او يبلغ مايمكن ان يبلغه من المجد وذيوع الصيت ، بدون ان يؤازره رجال من اهل الفكر والرأى ليمهدوا لزعامته هذه الاشياء التي يجعلها مقبولة ومحبوبة عند عامة الشعب وخاصتهم . بل هل من الممكن ان يبلغ اى زعيم او اى فاتح نجاحا ملحوظا ، مالم يكن لجانبه ابطال شجعان يساندون قواه ويعاضدونه بآرائهم وسواعدهم ؟ . . . طبعا سيكون الجواب من هذا المؤرخ نفيا لا محالة . . .

اذن فيكون السر الذى يجعل كثيرا من مؤرخينا يهمل بتاريخه ذكر بعض افراد الشعب العاملين ، ويهمل ذكر بعض الاسرار الناضجة والاراء الصائبة التي تصدر من افراد الشعب كرأى العوني . . هذا وكغيره من الامور الهامة التي اهملها المؤرخون لعدم المامهم بها .

السبب كما قلته سابقا بغير موضوع من هذا السفر ، واقوله الان مكررا وهو هـدم العام المؤرخين بكنه وتطور وسير حياة افراد الشعب البارزين من شتى نواحي البروز ، سواء كان من الناحية السياسية او الاجتماعية او الادبية الشعبية . وذلك ان الادب الشعبي كان هو السائد آنذاك ، وبصفتي فردا من افراد هذا الشعب ، ومن النفـر الذين يحرصون حرصا شديدا على الاطلاع والعلم بدقة ما يدور وما يحدث من تاريخ بلادنا سواء من الناحية السياسية او الاجتماعية .

ولهذا تجدني منذ كنت في شرخ شبابي ساعيا لتدوين وحفظ الحوادث ذات الاهمية ، بشوق يحدوني لهذه الغاية . وقد لا تكون مراجعي التي اركن اليها مقصورة على كتب المؤرخين نعم قد لا يكونوا هم مرجعي الاساسي فحسب . بل مراجعي الاساسية الاصلية هم الرواة الثقاة من الشيوخ الذين كان لهم بتلك الحوادث الصلة المباشرة . . واحيانا استفيض حوادثنا التاريخية من صميم ادبنا الشعبي الذي نجده متصلا بتاريخ حياتنا السياسيـة اتصالا لا ينفصل . وطورا تراني اروي عن الرجال الصادق في الرواية الذين قد لا يكونـوا باشروا تلك الحوادث بانفسهم مباشرة عملية ، ولكنهم رووها من مصادرها الاساسية كهذه الرواية مثلا . . اعني بها آراء العوني ونشاطه السياسي وسداد رأيه الذي ابداه للامـام عبد الرحمن الفيصل هذه الرواية وامثالها لم يذكرها فرد من المؤرخين الذين ذكـروا تلك الحوادث . وقد لا نجد الان من يذكرها على الشكل المفصل الذي جاء بالسيـاق . وقد لا اوفق للعلم بها ولتخليد ذكرها تاريخيا ، لو لم يكن لي صلة بالشيخ عبد العزيز بن زيد الذي كان له اوثق الصلات وامتن الروابط بالعوني فرويتها عنه مباشرة . وحادثة تاريخية ذات اهمية كهذه كادت ان تضيع لو لم اوفق بحفظها من راويها .

الفصل السادس عشر

رأى المتنبي في نفسه ورأى الناس فيه

ذكرت في الفصل السابق الرأى العام في المتنبي — وما له وما هو عليه — كما ذكرت السؤال القائل — هل ميزة المتنبي البارزة الشعر أو الدهاء او السياسة ؟ وقد أجبت على هذا السؤال جوابا استمديته من تاريخ حياة الرجل .

وفي هذا الفصل أود ان اذكر اولا رأيه هو بنفسه ثم آتي الى ذكر رأى الناس فيه . فرأيه بنفسه موجودا بعضه باشعاره — وبعضه ماخوذا من اقواله التي يصرح به دائما بين جلسائه في كل مناسبة .

رأى المتنبي في نفسه شعرا

بعض أن قتل الوصيف زامل التقى المتنبي بالشاعر فهد الغويه وانشده ثلاثة ابيات فقط — قائلا :

١ يا فهد ارتحل واركب على دوجه ترى ولي السماء ملسكة ابوابه

ثم خرج من هذا المعنى وراح يزهو بنفسه . وقال :

٢ انا بهيج وانا ماني بدبوجه أسفه العلم كأني ما اتعلمت به

٣ المشاعل بصدري تقل منسوجه أفتح الرأى الى منه فلق بابه

لما كان بين الغويه والعوني معاصله بالوصي زامل فاننا نجد العوني ينصح الغويه بأن يغادر حائلا خوفا عليه من أن يناله سوء من الرجل الذى قتل زاملا وهو ابن عم رأ سل الذى كان وقتها صاحب صول وطول في البلاد والقاتل يقول : ولماذا ينصح العوني الغويه بمغادرة البلاد . ولا ينصح نفسه ما دام انه صديق لزامل كصداقة الغويه؟ الجواب على ذلك ما يلي :

لما كان الغويه يعتبر واحدا من اهالي حائل وان لم يكن من قبيلة شمر — فانه مولد بحائل ووالده وان كان من قبيلة سبيع ، فانه جاء الى حائل وهو طفل وتزوج في البلاد واعتبر واحدا من اهالي البلاد . واصبح يسهل على قاتل زامل عقاب الغويه بالنوع الذى يختاره — اما العوني — فانه بحكم التقاليد والعرف والعادات المعمول بها يعتبر مستجيرا بصفته من اهل القصيم — ويصعب جدا ان ينتقم منه قاتل زامل لانه بات محميا من قبل امير البلاد الامير سعود بن رشيد .

وهذا البيت الذى جاء في مطلع الابيات الثلاثة التي انشدها العوني لم يكن موضوع بحثنا الذى نحن بصدده . ولكن مع ذلك لا نستطيع ان نتجاهل معانيه ونغفله — اما موضوع البحث هو المعنى الذى جاء به العوني في البيتين اللذين بعد البيت الاول ، لان فيهما صورة ناطقة عن مرأى الشاعر في نفسه ، فهو في البيت الاول يقول انه يتغابى وان لم يكن غبيا ويتجاهل وان لم يكن جاهلا — ويبرز في البيت الثاني زهو العوني بنفسه واعجابه بقدرته فيقول ان الحكم والامثلة كأنهما مطبوعة في فؤاده وفي عجز هذا البيت يقول : ان لديه قدرة نادرة على تذليله للامور السياسية المغلقة .

وفي بيت من قصيدته اللامية التي رثى فيها عبد الله بن طلال نجده يقول :

عندى ذلول فوقها ننسف الكسور ولي عند صيصان المعرفه دلا يسل

وفي بيت من قصيدته التي يستذر فيها من الامام عبد الرحمن بن فيصل وابنه عبد العزيز يقول :

انا هشمر مروة كل مسموم حماية الساقة عزيزبن الانزال

فهو يعتز بنفسه لا في البيت الاول الذى يحمل معاني الرثاء وبطبيعة الراثي ان يأتي بمعان يشجع بها الراثي نفسه — كما قال ان لديه فلوص نجيبه وبامكانه ان يترك البلاد — وسوف يجد احتراما ومعزة عند اولي النهي والمعرفة — بل نجده راح يزهو ويعتز بنفسه حتى في قصيدته التي تحمل طابع الاعتذار من الامام عبد الرحمن . فكان لسان حاله يقول : ان قبلت معذرتي ايها الامام فيها — والا فانني صديق الفرسان حماة الذمار . وسوف أجد عندهم كل معزة واحترام .

هذا رأي العوني بنفسه الذى جاء على لسانه نظما .

رأى العوني في نفسه حديثا

ذكرت اعلاه رأى هذا الرجل في نفسه شعرا ، والان اود ان اوافي القارئ برأيه بنفسه في الاحاديث التي تنسب عنه في كثير من المناسبات .

اذا كان أى انسان من سائر البشر يود ان يرى نفسه ويراه الناس بعين الكمال . فان العوني واحد من هؤلاء البشر لا يستطيع بحكم طبيعة البشرية أن يخرج عن هذه القاعدة .

فالعوني — وان كان يحاول ان لا يبدر منه اية اشارة من الإشارات التي تعبر عن الابهة او التعالي — لا في لباسه ولا في احاديثه ، ولا في جلوسه ولا في حركاته وسكناته . فهو في كل هذه الامور لا يوصي لعن يراه الا انه انسان يمثل البساطة والتواضع في كل معانيهما .

واذا كان لسان الانسان كما يقال : ترجمان لقلبه لانه يعكس الصورة الحقيقية التي يكنها المرء في خفايا نفسه ، فان العوني مهما تظاهر بالتواضع والديمقراطية والبساطة ، فانه في احاديثه وامثاله وبعض من ابيات شعره ، نجده خلاف ما يتظاهر به ، فمن احاديثه التي يرددها في اكثر من مناسبة قوله : انا انسان لا نصيب لي قطعيا الا عند الرجال الطيبين اما من لم يكن طيبا فانه يكرهني بطبيعته — كانت هذه الجملة يقولها العوني عن نفسه عندما كان عند الامام عبدالعزيز ، وعندما كان عند الشيخ سعدون آل سعدون ، ويرددها عند جميع الحكام الذين استقر عندهم كآل صباح وآل رشيد الخ .

وعندما كان عند الامام عبدالعزيز حصل بينه وبين الامام حوار حول هذا الموضوع فالامام قال للعوني : انك عندما تشيع هذا الحديث فان غايتك منه ان يتنافس الناس على احترامك لكي واحد يكرمك توهمه بانه شهم كريم شجاع — فقال العوني : لا ياعبد العزيز الامر ليس كذلك ، واذا شئت ان تعرف هل انني على صواب في حديثي هذا ام انني على خطأ فما عليك الا ان تقوم بعملية امتحان تجعلك تقف على الحقيقة — فقال الامام وما هي عملية الامتحان ؟ . فقال صاحب الترجمة — تظاهر امام الناس انك غضبان علي وانك طردتني . وتكلم بحقي ما شئت من القذف واللعن — وانظر ساعتذاك من يدافع دوني ويحاول ان يشفع لي عندك ويهدىء سخطك علي ومن الذي يضع على النار حطبا ليزداد غضبك علي — وعندئذ احكم انت بنفسك هل أنا صدق

بكلامي او كما تقول بانني اتعمد هذه الدعابة عن نفسي ليحترمني الجميع.

وجد الامام عبدالعزيز في كلام العوني منطقا معقولا فذهب وطبق تلك القاعدة اى انه عندما حضر عنده رجال اسرته واصحاب الحل والعقد من جلسائه راح يشتم العوني ويقذفه قذفا مرا — فقال اخوه الكبير الامير محمد بن عبدالرحمن — للامام — انت يا طويل العمر اعرف منا بالعوني — ولكن الذى نعرفه هنا هو ان القهوة اذا تصلح بلى بهارها « الهيل » فان المجلس لا يصلح ولا يزين الا اذا لحضره العوني وظل يحدثنا بحديثه الشيق من الشعر ومن التواريخ احيانا ومن النكته المسليه احيانا أخرى ثم انحرف الامير محمد الى اخيه الامير سعد وقال ما هو رأيك يا سعد بكلامي هذا — فقال سعد ارى ان الانسان اذا كان يعيش بلا ماء او الارض اذا هي تحمر وتزدهر خضراء بدون ماء فان المجلس الذى يفقد فيه العوني — يكون كالانسان اذا حرم من شرب الماء او كالارض اذا فقدا الماء — ثم انحرف الامير سعد الى الامير عبدالله بن جلوى وقال وما هو رأيك يا « ابو فهد » فقال : للامام عبدالعزيز الحق ان يقول عن العوني ما يشاء لانه يعرف عنه جوانب زينه وشينه اكثر مما نعرفه نحن ، اما الذى اعرفه انا فانني اعتقد ان المجلس الذى يفقد العوني فانه يفقد انسه وسلواه.

وهنا انبرى الامير ناصر بن سعود — وقال من هو العوني الحضيرى[1] « التتان[2] » الدخنز — من هو العوني الذى لولا عبدالعزيز لما وجد من يرد عليه سلام السنة الخ ».

---

(١) الحضيرى اى انه لا ينتسب الى قبيلة من قبائل العرب.

(٢) والتتان اى انه يشرب التتن الدخان وهذا كان اكبر عيب في ذلك الوقت الى درجة ان شهادة من يشرب الدخان لا تقبل شرعا في نجد سابقا — ولا يتقدم اماما يصلي بالجماعة حتى ولو كان يحفظ القران وغيره اي فانه لا يتقدمه.

فما كان من الامام عبدالعزيز الا ان ضحك ملء فيه وقال (انا*) يا عمي — صارت بـــك — انا* معناها آسف وصارت بك — اي ان السهم اصابك .

وبعد فاننا اذا اخذنا هذه القصة على علاتها وبدون تحليل — لا يسعنا الا ان نؤمن ايمانا مطلقا بما يقوله العوني عن نفسه . ولكن اذا امعنا النظر بها وفحصناها جيدا نخرج حتما بنتيجة تدلنا على ان العوني يحمل في خفايا خلقه نفسا تتعالى على الحواســـه المواطنين العاديين — قد يقال ان ناصر بن سعود وان لم يكن من سلالة الحكم فانه يمـــت الى آل سعود بعلة القربى — ولكن هذه القربى تعتبر بعيدة الاثر الذي يجعل العونـــي وان لم يتعالى عليه بصورة ظاهرة ومحسوسة . فانه يتعالى عليه باسلوب يحس به ناصر بن سعـــود نفسه . ولو قدرنا ان العوني ديمقراطي وبسيط وشعبي . وبجامل ناصر بن سعود بنفســـي الروح التي يجامل بها مثلا الامير عبدالله بن جلوي ، لما وجدنا ناصر يقف من العوني ذلـــك الموقف الصارم او على الاقل كان يمتنع من هجومه على شخص يواسيه ويزوره ويجامله — .

ما دام العوني يتعالى على ناصر فان الاخير عندما يهاجم العوني لا لانه خســـيس ونذل كما يزعم العوني بأن الذي لا يحترمه نذل . وساقط — الخ . بل لان نفسية العونـــي لم تكن لتقبل ذلك الانسان البسيط المتواضع — وان تظاهر بذلك فان تظاهره شكلي وليس نابـــع من خلقه الاصيل .

قصـــة العوني الاخرى مع سعدون

نفس الحديث الذي تحدث به العوني عن نفسه في حضور الامام عبدالعزيز تحدث به مع سعدون بن سعدون .

يقول الشيخ هجي السعدون بأنه ذات ليلة كان يتحدث بهذا الحديث يسمع من والده الشيخ سعدون فقد رآه سعدون قائلا لابد من دليل واضح على ذلك فقال العوني سوف أوافيك بالدليل قريبا .

يقول : الشيخ هجي كان الحديث بينه وبين والدي ولم يعلم عنه احد وكنا معسكرين بالصحراء وكل ما بين يوم وآخر نرحل من موضع الى موضع آخر . وفي الحالة التي نستقر بها كان كل منا يعرف الموضع الذي يضع خيمته به . ففي احدى رحلاتنا هذه نزلنا في مكان ما . وجاء العوني ووضع خيمته في مكان رئيس الطاهين والسفرجية المدعو جمعة ، فجاء هذا فوجد العوني واضعا خيمته مكانه فصاح به وزجره ولا زال يسمعه الكلام البذيء .

العوني — الارض فسيحة يا جمعة فعليك بان تنزل هنا بجانبي ونتقابل الليلة سويا متجاورين ونتأنس مع بعضنا حتى نرحل من هنا ويعود كل منا الى مكانه او يدوم الجوار بيننا فيما اذا طاب لك معشري .

جمعة — لا اريدك ولا اريد قربك بل احب ما على قلبي البعد عنك . واكره شيء لي القرب منك . واخيرا هجم جمعة على خيمة العوني وطرح اعمدتها ورفعه على ان يذهب الى مكان آخر . فسكت العوني ولم يخبر سعدون بما وقع له مع جمعة .

وفي اليوم الثاني أو الثالث رحل الشيخ سعدون بمعسكره من مكانه الاسبق ونزل مكانا آخر فجاء العوني ووضع خيمته في الموضع الذي ينزل به الشيخ هجي . ويؤكد لي الشيخ هجي بانه عندما رأى العوني بانيا خيمته بمنزله ان افضي طرفه ولم يخبر بادني اشارة .

فعند ذلك جاء العوني الى الشيخ سعدون قائلا : اتريد دليلا على انه لا قيمة لي الا عند الرجال الافاضل واكبر واوضح من هذا الدليل .

سعدون — اى دليل تقصد .

العوني — الا تعلم ما حدث معي من رئيس الطاهين عندما وضعت خيمتي بموضعه بالامس.

سعدون — لا اعلم شيئا عن ذلك .

العوني — هكذا حدث معي من " جمعة " بالامس " وظل يسرد القصة كما ظل يتحدث عن منزله اليوم في موضع الشيخ عجمي الذى افضى طرفه عنه .

وبعد فان ما يقال عن موقف سعود بن ناصر . وعن العذر المبرر لموقفه تجاه العوني جدير به ان يقال عن شيخ الطاهين جمعة — وعلينا ان نقبل الموقف الذى اتخذه جمعه اتجاه العوني — لا لانه نذل وخبيث كما هو رأى العوني الذى يزعم انه لا نصيب له عند الانذال — بل نقبل موقف جمعة — لان العوني كان يتعالى على جمعه وينظر اليه نظرة مواطن من الطبقة الثانية ، وانني على يقين من العلم ان العوني لو تخلى عن كبريائه . وبلغ من التواضع والتسامح درجة جعلته ينزل على مستوى جمعه . ويداعبه احيانا ويزوره ويواسيه ، ويؤانسه — كما يزور ويؤانس المواطن اخيه المواطن مارقا العوني نظره عن الفروقات الادبية والاجتماعية التي بينه وبين السيد جمعه .

لو فعل العوني ذلك مع السيد جمعه — لما وقف من العوني ذلك الموقف الشرس — وانما العوني كان يتعالى ولا شك على جمعه . وينظر اليه انه في منزلة بينه وبين منزلته بون شاسع وهذا ما جعل في نفس جمعة رد فعل — ولم يكن العوني بدعا من نوعه بل ان امثاله كثيرون من العظماء والعباقرة بل حتى الفلاسفة فيهم من كان يتعالى على اخوانه المواطنين — وفي مقدمة الفلاسفة افلاطون الذى فلسفته تشير الى الطبقية بصورة طبيعية فتجده يقسم المواطنين الى عدة طبقات متفاوتة .

وما اقل هؤلاء الرجال الذين يجمعون بين الاباء وشوخ الانف من جانب ، وبين التواضع والتسامح ولين الجانب لاخوانه المواطنين من جانب ثاني . ولقد اجتمعت بالشيخ الحسن بن سهل الهرم سلمان بن رشدان الذى عندما اجتمعت به كان قد بلغ من العمر مائة وخمسة عشر عاما — وكان فاقدا بصره ولكن سمعه ووعيه وذاكرته لم يفقد منها شيئا فوجهت اليه السؤال التالي .

من تفضل على رجال محمد بن رشيد البارزين الذين عاشرتهم ؟

فقال : كلهم كسنون المشط لا استطيع ان اقدم واحد على غيره . واذا كان ولابد . فانني لا اقدم فيهم رجلا على حمود الزيد — فقلت للشيخ انني اسمع عن حمود الزيد كما اسمع عن بضارعه بالرجوله من رجال عصره الذى اشتهروا في ذلك الوقت كيوسف(١) العتيق وعلى المجراد(٢) وغيرهما . ولا اخال حمود الزيد الا انه واحد من امثال اولئك الرجال الابطال — فما هي الميزة التي يمتاز بها ابن زيد عن رفاقه البارزين في ذلك الجيل ؟ فقال ذلك الشيخ الحكيم .

لا اقول لك ان حمود الزيد يمتاز عمن تسمع بهم لا بشجاعته ولا بعزة نفسه وسداد رأيه فهو رجل من طراز اولئك الرجال الافذاذ وانما الخلق الذى يمتاز به حمود الزيد هو انه اذا جاء الينا نحن الذين دون منه منزلة لا يشعرنا باحد منا الا انه مواطن طاوى سهل الجانب في تواضعه وفي معاشرته لنا — واذا ذهب من عندنا احتل بين اولئك الكبار المكانة التي لا يستطيع اى واحد منهم ان يهضم قناته ، اما اولئك الرجال فانهم وان كانوا شجعانا وكل واحد منهم يمثل البطولة بكامل معانيها — الا انهم يتعالون علينا وينظرون الينا نظرة تعال وسخرية — الامر الذى يجعلنا بقدر ما نحب حمود الزيد الذى يجالسنا ويؤانسنا بقدر ما نكره اولئك على تعالهم علينا .

ومن منطق هذه الحكمة التي رويتها عن ذلك الشيخ المحتال المجرب الذي اعتبره تاريخا متحركا ، استطيع ان اصل الى النتيجة التي انظر بها الى العوني بانه شعبي — ودمقراطي في مظهره . ولكنه استقراطي في قرارات نفسه . وفي فطرته . فلا تهـــوى نفسه الا مجالسة الحكام — او رجال الحكام البارزين حتى اذا كان الانسان شجاعا ولـــم يكن بارزا فان العوني لا يركن اليه . واذا ادعى انه لا يحبه الا الرجال الافذاذ والبارزين الطيبين . فانه صادق من ناحية وغير صادق من ناحية اخرى . فهو صادق لانه هو بقدرما تهوى نفسه مجالسة عظماء الرجال البارزين من حكام وامراء وادباء — بقدرما يتعالى ويمسخ انفه عن مجالسة المواطنين العاديين .

ومن هنا يحصل التنافر والكراهية بينه وبين هؤلاء المواطنين الذين يتعالى عليهم . واذا قال قائل ان في تحليلي هذا الشخصية العوني تناقضا بين عطفه على مهضومي الحقوق كان طحل مثلا كما مرينا وبين رحمة ودفاعه عن المقهور الذي على وشك ان يضرب ضربه . وبين تعاليه على اخوانه المواطنين الذين لم يسعدهم الحظ ان ينالوا منزلة من سمو الجاه — جوابي على ذلك هو ان هذا التناقض موجود في خلق العوني وما علي في كتابي هذا الا ان احاول ما استطعت بان اقدم للقارىء جميع الجوانب الايجابية والسلبية الحسن منها والسيء الذي جبلت عليه اخلاق صاحب الترجمة .

رأي احمد قاء العوني به

من المسلم به ان الصديق سوف لا يتحدث عن صديقه الا من زاوية المحبة — ولقد اصاب كبد الحقيقة ذلك الحكيم الذي قال اثنان لا يؤخذ رايهم المحب كثيرا لا يؤخذ رايه بمن يحب . والمبغض كثيرا لا يركن الى رأيه بمن يكره — فكلاهما مهما حاول احدهم ان يتجرد عن العاطفة فانه لا يستطيع ان يجرد نفسه فيها فاصدقاء العوني الذين اتيحت لي الفرصة بالاجتماع بهم هما الشيخ عجمي السعدون — والشيخ عبد العزيز بن زيد .

فالاول ينظر الى العوني نظرة محبة واحترام ويتعته بانه لاجل لا يمكن ان يركن الى الخلود والسكينة فهو في رأي عجمي ان العوني انسان محرض من الطراز النادر المخيف وقد أكد لي الشيخ عجمي بانه جاء اليه رسالة من العوني وذلك حينما كان الشاعر يرافق محمد بن طلال في سفرته للجوف عام ١٣٤٩ — تلك السفرة التي مر بنا الحديث عنها عندما وقع الخلاف بين العوني وبين اولئك الموالي . في تلك الفترة اراد العوني ان ينجو بنفسه ويترك حائلا التي اصبحت امارتها طي كف عفريت. يقول الشيخ عجمي بان مضمون رسالة يشير الى ان العوني يقصد ان يأتي الي — ويمضي عجمي قائلا انني اود العوني كثيرا واحترمه . ولكنني رغم ذلك احمد الله انه لم يأت الي في تركيا . فقلت له ولماذا تود ان لا يأتي اليك مادمت توده وتحترمه ؟ .

فقال : لان العوني رجل مهيج ومحرض . ومن المستحيل ان يتركني مخلدا الى الراحة والاطمئنان كما انا فيه الان من وضع يفرض علي بان اظل في تركيا طي ما انا فيه من هدوء وسكون .

ورأى الشيخ عجمي بالعوني انه وفى — وطبعا كل يتحدث بما يعرفه — طما بانني شخصيا لا استطيع ان اوفق بين رأى الشيخ عجمي بالعوني الذى ينعته بما ذكره وبين تحريضه لصبي كالامير عبد الله الدلال على ان يقتل ابن عمه الامير سعود — الذى كما اسلفت اذا اراد العوني منه مالا قال انه راى بالمنام ان الامير ارسل اليه كذا وكذا من الجنيهات فيضطر الامير سعود بأن يرسل له المبلغ الذى حدده — وكذلك اذا اراد حسين لباس منه هدوم الامير فانه يلمسه العوني بيده — فيضطر الامير ان يتخلى عنه ويعرف للعوني السذى يتآمر عليه سرا وعلى كل فان الشيخ عجمي يتحدث عن العوني عن الجانب الذى عامله به صاحب الترجمة اما صديقه الثاني الشيخ عبد العزيز ابن زيد فان رأيه بالعوني يأتي هو سقرى فذ لا يمل حديثه طما بتاريخ روؤساء قبائل الجزيرة العربية العاما لا يعرف ابن زيد على رأيه بانه عرف شخصا اوأفركتابا فيه من الوضوح والبيان كما هو موجود عند العوني .

ويقول ابن زيد ان آفة العوني انه معجب برأى يراه . فاذا صمم رايا فانه يصر عند وقوفه في رأيه ومن المستحيل ان يتزحزح عنه قطعيا .

ويقول ابن زيد ان العوني اذا جاء ذكر الله تعالى قال انا نثني بالله جل شأنه عظيمة . ولا اتصور انه سيعذبني بالنار لانه كريم وعند ظن عبده به فانني حسن وجميل الخ .

الفصل السابع عشر والاخير

مختارات من شعر العوني بالحكمة ومن امثالـــه

اردت أختصر في هذا الفصل نهذا ما اخترته من شعر العوني الخاص بالحكمة — ومن امثاله التي يتداولها الشعبيون باديا اولا بالشعر .

كم تجد للشاعر معانيا رائعة الوصف بالحكمة كما تجده احيانا يقدر ما يدعو الـــى مجد هذه الدنيا التي يقول عنها :

ان لذة الدنيا اذا لم تجد بها

حلوا تذوقه عقب جرعة مرورهـــا

هذه الدنيا التي يرى العوني ان لا قيمة للحياة فيها اذا لم ينال المرء فيها نعيما بعـــد تعاسة العيش والكفاح المرير تجده احيانا زاهدا بها وكاشفا لعوراتها ومحذرا ومنذرا النفـــر الذين نالوا منها ما نالوا من جاه ومال بالا ينخدعوا بها بل عليهم ان يتأهبوا للحظـــات التي وسف تكبها عليهم وتهجم هجوما معاكسا لا تسلب منهم المجد والجاه والثروة فحسب بـــل تسلب منهم هذه المعاني بكاملها . كما انه يوضح بأن هذه الدنيا لا ترهق احدا وتذله اكثر ما ترهق النفر الجبابرة الذين كان لهم من الابهه والمجد والنفوذ والسلطة ما يجعل النـــاس يخشون سلطتهم ويخافون من بطشهم فاصغي الى نصائحه بهذا المعنى .

١ دنياك يافادي تخـــف المخيفين خفها ترى المركـي عليها مزلـــه

٢ تقبل زمان لك وتدبـــر زمانـــين والدور الاخر مقعدك به مطلـــه

٣ تلقاه الى رزت عليك النوائـــبين وجاءت يجيش لك وخيل وخلـــه

٤ تضحك وقلبه لك حقود على الشين وصبور (١) سجلات المحاسب تظمه

٥ تشرف على وشجاك منها من الزين وتحاسبك عن دق طبيه وجلمه

٦ حتى انها تأخذ مع العشر عشرين وتجرحك جرح ما يدور دولمه

٧ مثل الذى قبلك لقتهم فيمن سنأتمن ما دروا لخ بغلمه

٨ جتهم فجاءة والفزوع ستطال من ما تعذروا انه ظلمهم مغلمه

٩ أسوا بذل عقب ما هم عزيمن اللي طلف واللي حياته مللمه

الشرح :

١ — هذه الدنيا لا تغتر بها ايها المغفل لانها تخوف الجبابرة الذين تخشى صولتهم ، فعليك ان تعمل لها الف حساب وحساب ، لان الاعتماد عليها خطأ وغرور .

٢ — قد ترى منها اقبالا في زمن ، من الازمنة ، ولكنها اذا اقبلت لك زمان فانها سوف تدبر عنك زمانين ، وفي نهاية الامر ستكون حياتك بها سلة من الهرم الذى لا محيص منه هذا اذا نجوت من الموت قبل الشيخوخة ، وفي هذا الشطر معنى من قول زهير بن ابي سلمى :

لا طيب للعيش ما دامت منغصة لذاته بالدر كار الموت والهرم

٣ — تجدها اذا وهبتك الاوسمة المغريه وجعلتك تقود الجيوش والخيول وتسود الاقران .

٤ — وتجدها بعد ذلك ضاحكة لك بغابها ولكن قلبها حقد عليك ولا بد سواء طال الزمان او قصر الا ان تقدم لك حسابا عسيرا على ذلك النعيم .

٥ — وتنظر الى جميع ما وصل اليك منها من الزين والجمال ومن ثم تحاسبك عن كل دقيقة وجلولة .

---

(١) صبور : لابد

٦ — واذا انها وهبتك من النعم قدرا معينا فانها لن تأخذ هذا القدر منك كما كان فحسب ، بل تأخذ مقداره مضاعفا ثم بعد ذلك لم تتركك وشأنك بل سوف تجرحك بآفة لا يجد الاطباء لها علاجا .

٧ — وهذا الغدر من الدنيا وسوء العقاب لم يكن بدعا من نوعه ، معك بصورة خاصة ، فانت كاولئك الرجال الاغبياء الذين انخدعوا بها بسبب بساطتهم ، فوثقوا بها ، فصاروا علموا انها تتربص بهم الدوائر .

٨ — فجاءت اليهم بغتة ، وفاجئتهم عزمرما بعضه يظن بعضا ، في الحين الذى كانوا به غافلين ، ولم يعلموا او لم يقدروا بأن هذه الدنيا كانت واثقة لهم بالمرصاد وانها حاقدة حقدا دفينا عليهم .

٩ — وبعد ان كانوا قادة اسيادا عزيزين بعد ذلك اسوا اذلاء فمنهم من مات ولقي حتفه ومنهم من كانت حياته حياة محزنة سلة .

واخيرا يذهب الشاعر يدعو الى الزهد بالدنيا والرجوع الى الله ، بل تجده يعلن رأيه .

ويقسم بدون يمين بانه لن يصغي الى هذه الدنيا ولن يركن اليها لانها غادرة ، خائنة ، فهي لو منحت المرء معروفا فلا بد لها الا ان تمن هذا المعروف وتأخذه بكامله ولذلك تجده يقول :

١٠ اقسمت ما اصغي له بسمع ولا عين ولا اتصغى به وطربا د كله

١١ اللي سعت بالبعد بين المحبين واستجزلت بافراق خل لخله

١٢ خله تولي مع طريق المولين احذرك لا تربط هواك بهوله

١٣ منم للولي واقصد مغيث المقلين دنياك لو سلف جمله تتسله

الشرح :

١٠ - اقسمت بالا اصغي لحديث هذه الدنيا بأذني ، ولا انظر لمظاهرها الخداعة (١) بعيني ، ولن انتسب اليها ولا بأي شكل من الاشكال ، بل سوف اهجرها مرة واحدة .

١١ - هذه الدنيا التي سعت بتشتيت شمل الاحباب ، والتي كانت سخية بتفريقهـــا وابعادها للاخ الوفي ، عن اخيه لا يمكن ان يوثق بها .

١٢ - دعها تذهب الى غير رجعة واياك ان تهبط مستوى بها .

١٣ - ويجب ان يكون بك آنفه عنها ، وعليك ان تقصد البارى الذى يغيث اليائسيـــن ، اما هذه الدنيا فدعها لانها لو وهبتك معروفا واسدت اليك جميلا فان من شيمتها ان تسلب هذا المعروف وتمن ذلك الفضل .

---

(١) هذه القصيدة قالها المتنبي وهو في الكوفة في اول شبابه ، ولكن الذى يبدو انه قالها وهو في حالة يأس ، وعلى كل فهو لم يبر بقسمه ، ولم يطلق الدنيا حتى طلقته ولم يزهد بها حتى زهدت به .

(٥) امثله العـــــوني :

للعوني امثله كبيرة المعنى منها قوله :

الرجال ثلاثة

رجل لا يهتم الا بنفسه فقط .

ورجل لنفسه ولا هله

ورجل لنفسه ولا هله ولا مته

ومن امثلته قوله :

بعض الرجال كالارض الذى يملأها صلاحا والذى يملأها فسادا كلاهما سيـــان عندها . والذى يزرعها والذى يتغوط بها كلاهما سواسية فيها .

ومن امثاله قوله : ليس العاقل الذى اذا دخل مازقا عرف كيف يخرج منه ، بل العاقـــــل الذى لا يدخل نفسه بمازق قطعيا .

ومن امثلته :

انه اذا زار أحدا . ومن ثم قال له صاحب المنزل : انت صاحب مكان ـ يجب العوني قائلا : انا ضيف اجنبي يقولها باسلوب ظاهره المزاح وباطنه الجد ـ لانه يقول معنى قـول المضيف لضيفه انت صاحب مكان اى انه لا ينوى ان يحتفي به .

ومن امثلته قوله :

اذا رأيت الرجل ممسكا مروحه ولا يروح بها الا على نفسه فاحكم عليه انه لا مروءة لـه ﴿ يتكلم قبل وجود الكهرباء ﴾ اى ان الرجل ذو المروءة عليه ان يروح على من يجاوره يمينا وشمالا .

وما اكثر الامثله التي تنسب عن العوني بين الاوساط الشعبية فاى انسان يود ان يكـــون لمثله اهمية ينسبه الى العوني ولذلك اختصرت على الامثله التي نقلها عنه الرواة بصورة مباشرة.

نهايـــة البحـــث

لا اعتقد ان امرىء قام بعمل من الاعمال الفكرية او غيرها . الا وسيجد نفرا لا هـــم لهم الا النقد والمعارضة واللوم.

وها انذا على يقين من العلم باني سوف الاقي نصيبا وافرا من هذه الانتقادات ،

فمن قائل لنا نحن الان بعصر الذرة ، فمالك ومال البحث بهذا القديم البالي وقد ينسى او يتناسى ان القديم هو الاصل والحديث فرع من اصل ، ولولا احتفاظنا بالاصـــول ، واخذ ما كان منها حسنا ، وترك ما فيها من الخطأ ، لولا ذلك لما حصل هذا التطور.

وبعد مدة من الزمان ، سوف يكون عصرنا هذا الذى نفخر ونعتز به لما فيه من التطور شامل لكل نوع من انواع الرقي ، هذا العصر ، سينظر اليه الاجيال القادمة نفس النظرة التـــي ينظر اليها جيلنا المعاصر الى عصر الشاعر الذى نتحدث عنه الان ولسوف يأخذ من حسنـــات هذا العصر ما يجعله قدوة له ، ولسوف يترك ما وقعنا فيه من زلل وهكذا سنة الكون ولسوف اجد ايضا من لا يراني مصيبا في كتابتي هذه عن فرد من سائر افراد الشعب كالعوني الذى لم يكن ذا سلطان يرجى نفعه المادى او يخشى ضرره كما وجدت من لامني . بل ولم يخجل من معاتبتي على تأليفي لكتابنا (من شيم العرب) فكم وجدت من اسمعني بصراحة قائلا : مالك تذهـــب

لتكتب عن شيم وفضائل نكرات من عامة الناس الذين لا اهمية لهم ولا قيمة الخ . .

ويقصد لا اهمية ولا قيمة من الناحية المادية ومن ناحية المظهر من هاتين الناحيتين فقط ، الى ان استمر هذا المعاتب بعتابه قائلا اما كان الاجمل لك بان تكتب عن اذا كنت عنهم كان لكتابك المكسب المادى المحسوس ؟ وهكذا ظل يلومني هذا اللائم بحديث من هذا المعنى .

وجعلت نفسي متجاهلا ما يشير اليه لان امرئ من هذا النوع لا يدرك معنى الغاية او المكسب المعنوى الذى لا يعادل عندى المكسب المادى حينما اكتب عن فرد من سائر افراد الشعب لاني اشعر بلذة واطمئنان عندما اخلد مكرمة ، لنفر من عامة الشعب نعم انني اشعر براحة في ضميرى وسرور يغمر وجداني وحبورا يداعب كياني لماذا ؟ لاني اكتب عن امرئ لا يرجى ثوابه ، ولا يخشى عقابه فكتابه كهذه جديرة ان تكون بدافع من وجدان الكاتب وحافز من ضميره يحدوه نحو انصاف الرجال الافذاذ الذين قد لا يكون مصدر عظمتهم هو المال او الجاه الفانيين ، وانما هي الفضيلة والشيم والعبقرية والنبوغ.

هذه المعاني الحية لهي التي اراني مسرورا عندما اكرس جهودى للكتابة عنها لانها ادعى للخلود واهلها احق بالرحمة والانصاف.

ومما يدعو الى الغبطة والسرور هو اننا لا زلنا نجد في امتنا العربية من الكرام المنصفين من ينظر الى جهودنا هذه المتواضعة نظرة التقدير والاحترام.

ومن ابرز الادلة على ذلك ، هو ما جاءنا من التشجيع الابوي من لدن القسم الثقافي لدى الجامعة العربية بشأن كتابنا السالف الذكر " من شيم العرب ".

واني ارجو ان يكون لهذا السفر المتواضع من القبول عند قارئه كما كان لمؤلفنا المذكور في به (من شيم العرب) الذى نفذ من المكاتب وعما قريب سوف أطبعه طبعة ثانية وسنضيف الى الاجزاء الاربعة الجزء الخامس.

فهد العارك